62

سامى كمال الدين

الذين أضحكوا طوب الأرض

أحمد رجب
أحمد فؤاد نجم
جحا
عبد الحميد الديب
محمود السعدني
صلاح جاهين
عبد العزيز البشري
فكري أباظة
فرفور
بلال فضل
كامل الشناوي
محمد مستجاب
عبد الرحمن الخميسي
عباس الأسواني



أدب الفكاهة والســـــخــــرية

الذين أضـحكوا طوب الأرض

اسم الكتاب: الذين أضحكوا طوب الأرض

اسم المؤلف: سامى كمال الدين

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧/٢٥٤٢٩

الترقيم الدولى: 977-376-352-8

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكر كوسا

الطبعة الأولى

٢٠٠٨

سوريا– دمشق – الحجاز – شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥

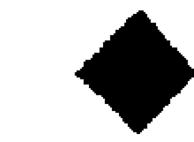
مصر – القاهرة – ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت – شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩٣٣٦٧١/٢٣٩١٦١٢٢

لبنان – تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ – ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات

E-mail:darkitab2003@yahoo.com

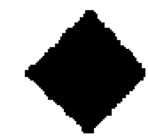
E-mail:darkitab-Nassif@hotmail.com

الذين أضحكوا طوب الأرض



تأليف

سامى كمال الدين



الطبعة الأولى

الناشر

دار الكتاب العربى

٢٠٠٨

إهداء

صديقى خالد رشدى حماد،،

الساخر الذى ضحك منه طوب الأرض

فضحك على طوب الأرض..!!

سامى

﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾

(سورة هود آية: ٧١)

[دخل نعيمان الجنَة ضاحكاً لأنه كان يضحكنى]

حديث شريف

[روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلَت عميت]

حديث شريف

(جملوا القلوب، والتمسوا لها طُرَفَ الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان، والنفس مُؤْثِرَةٌ للهوى، آخذة بالهُوَيْنَى، جانحة إلى اللّهو، أمّارة بالسّوء، مستوطئة للعجز، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أضنيتها، وإن أهملتهاورديتها)

على بن أبى طالب رضى الله عنه

« إياك أن تعاف سماع الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك، وتبلد طبعك، فإنك متى لم تذق نفسك فرح الهزل كربها غمُّ الجد »

أبو حيان التوحيدى

البصائر والذخائر

« الضحك يجيء فى الوقت المناسب لكى يهبنا شيئاً من المناعة ضد تلك الجرأة الزائدة عن المأساة »

مكدوجال

« لا يغضب من المزاح إلا كز الخلق ولا يرغب عن الفكاهة إلا ضيق العطن »

الجاحظ

● إحنا من غير ما نعرف نسمع الإذاعات ونرددها ونقول مافيش فايدة .. الشعب المصرى يسمع أى حاجة وينكت عليها .. تعرفوا موجة النكت اللى طلعت فى الأيام اللى فاتت؟ أنا عارف شعبنا، طبيعته كده وأنا لم آخذ الموضوع بطريقة جدية، وعارف الشعب المصرى كويس .. ما هو أنا منه واتربيت فيه، كل واحد أما يقابل واحد يقول له سمعت آخر نكتة، ويحكى .. وممكن يستخدمونا بأن تقال بعض النكت اللى تأثر على كرامتنا، كرامتنا كشعب له طلائع قاتلت وماتت ».

« ولكن أنا عارف الشعب المصرى .. ده شعب عمره ٧ آلاف سنة، وقهر كل الغزاة وكسرهم، خلص عليهم من قمبيز إلى نابليون، وقعد ينكت عليهم، شعب له فلسفة وطنية وشعب صلب، قوى، هو شعب يحب النكتة، وأنا باعتبر إن دى ميزة لأنه بيفلسف بيها الأمور، فإذا جه أعداؤنا واستغلوا فينا هذه الطبيعة عشان يحققوا أهدافهم لازم نكون ناصحين... »

جمال عبد الناصر

بعد نكسة ١٩٦٧



مخرج لابد منه!!

السخرية مثل الحب لا يوجد قالب يستطيع أن يحويها ويُعرِّفها، فكل التعريفات التى تعرضت للكتابة الساخرة والساخرين والنكتة أصابتها فى مقتل، ذلك لأن الضحكة التى تولدها السخرية لا تنتظر تعريفاً .. ينفتح الفكان عن آخرهما فى صوت أوبرالى ضخم أو رفيع .. ولعل الضحكة هى الشيء الوحيد فى العالم كله التى تتشابه فيها كل شعوب العالم.

وحقيقة أن الضحك يطيل العمر - ليس بعدد السنوات طبعاً - ويجعل الإنسان أكثر راحة فى عالم يسوده القلق والحروب والاستعمار الشرق أوسطى الجديد .. وقد اهتم العالم بالضحك فافتتحت اليابان كلية لتعليم الضحك حتى يستطيع المواطن اليابانى أن يكون «بانياً فى ملكه» وأن يؤدى عمله بجدية وفى بهجة وسعادة.. وقد أشرف على هذه الكلية فرق السيرك .. وفى مونتريال بكندا عقد مهرجان للنكتة اجتمع فيه مائة شخصية من صناع النكتة الفرنسى والإنجليزى.

أما الخبيرة الألمانية موسانى لاينجر فقد أكدت فى بحث أعدته عن الضحك وأكدت أن الفائدة التى تعود على جسم الإنسان من الضحك تتساوى ٤٥ دقيقة من الاسترخاء التام .. وقالت إن الضحك يقوى جهاز المناعة ويعطى شعوراً بالمتعة ويخفض إفراز الهرمونات المصاحبة للتوتر، كما أنه يؤدى إلى توسيع الرئتين وينظم الدورة الدموية ويسارع فى عملية نقل الأوكسچين، وأن هناك مائة عضلة تتحرك فى الجسم عند الضحك منها ١٥ فى الوجه فقط .. أما الدكتور الأمريكى «روبنشتاين» فقد ذكر أن «كل دقيقة ضحك تساوى ساعة استرخاء وراحة».

لكن أغلب الكتاب الساخرين ماتوا من الألم والعذاب والاكتئاب ولم يموتوا من الضحك، فعمنا محمود السعدنى راح يقضى فى بيته فى ضاحية الهرم شيخوخة نبيلة فى صمت، صمت لسانه وهو أعظم المتكلمين .. ودخل دوامة اكتئاب عنيفة لم يستطع

السيطرة عليها فسيطرت عليه بعد أن انفض من حوله الأصدقاء ورأى العراق وقد تحول إلى قبائل متناحرة وهو الذى رسم فى شارع أبى نواس والرشيد أروع ضحكاته ومآسيه.. وكذلك حدث مع الساخر الكبير محمد عفيفى الذى ظل السرطان ينهش جسده سنوات خمس، وحاول أن يهزم السرطان فكتب «ترانيم فى ظل تمارا» ودخل فى محارة عزلته المعتاد عليها وكتب نعيه الذى نشر عن طريق الخطأ فى جريدة الأخبار، حيث أرسل مقاله ليرسل وهرب «النعى» الذى كتبه لنفسه وذهب إلى المطبعة ونشر والرجل كان لا يزال على قيد الحياة، وصلاح جاهين أحس أنه كان يغنى على الناس بعد هزيمة ١٩٦٧ ثم راح يؤلف أفلاما مثل «خللى بالك من زوزو» وغيره محاولاً الهروب من الحصار النفسى الذى عاقب به نفسه وسافر أكثر من مرة للعلاج فى مصحة لكن كان الاكتئاب هو الغول الأقوى فكسره.

وفارق أحمد بهجت السخرية منذ عشرين عاماً وترك «القط والفأر» وراح يكتب فى «صندوق الدنيا» بالصفحة الثانية من جريدة الأهرام حكايات لا علاقة لها بالسخرية .. ويبدو أنه رأى أن زمن الضحك ولى..!

عبد الحميد الديب مات بالجوع والعذاب والجنون، بعد أن ادخلوه مستشفى المجانين ونجا بصعوبة من إدمان المخدرات التى غرق فيها فترة طويلة. وراح ينشد:

« يا أمة جهلتنى وهى عالمة»

ورحل بعد أن ذاق أسوأ ما فى الحياة من فقر مدقع وحياة مذلة .

وعبد الرحمن الخميسى حاول أن يعود إلى مصر بعد منفاه الاختيارى فى موسكو ليسخر فيها «شوية» أياما ثم يموت، لكن أبداً الموت لا يترك الساخرين فى أمان، فقد عاد إلى مصر فى نعش!!

والمسكين عبد الله النديم أبو الساخرين ذاق الويل فى هروبه تسع سنوات فى قرى ونجوع مصر ودفن فى تركيا دون أن يسمع عنه أحد، وكامل الشناوى أحس بالانكسار حين عرف أن الرئيس جمال عبد الناصر يتضايق من نكاته، ولما تم إصلاح الأمور بينهما وذهب لإجراء أول حديث صحفى مع عبد الناصر بعد توليه الحكم أراد أن «يلطف القعدة» ويتصالح مع «الرئيس» بنكتة فقال له: هل تعرف يا ريس إننا بلديات!

- فقال له عبد الناصر: إزاى وأنا صعيدى وأنت من بحرى!

- فقال الشناوى: إحنا الاثنين عندنا سكر!!

- ولم يضحك عبد الناصر للنكتة، بل وزاد الخلاف، لكن بعد الحوار المطول الذى نشره كامل الشناوى عفا عبد الناصر عنه، لكن كامل مات فى مستشفى قصر العينى كسير القلب فقد خذل فى كل قصص الحب التى مر بها ولم تخلف له هذه القصص إلا أبناء من عينة «لست قلبى» و«حبيبها» و«لا تكذبى» و«عدت يا يوم مولدى» وغيرها.

وأحمد فؤاد نجم مثله مثل محمود السعدنى عذبته السخرية حتى نهايات عمره، فكما أن محمود السعدنى دخل السجن بسبب نكتة قالها لفريد عبد الكريم فى بدايات تولى الرئيس الراحل أنور السادات، حين سألة فريد فى التليفون عن رأيه فى السادات .

فقال له السعدنى: أهو كويس عبد وأمه عبده!!

وأضاف عن الفرق بينه وبين عبد الناصر: دوكها موتنا من الخوف وده هايموتنا من الضحك!!

كذلك أحمد فؤاد نجم الذى أبدع فى قصيدته «شحاته المعسل» وعنوانها «بيان هام».

هنا شقلبان محطة إذاعة حلاوة زمان.

من القاهرة ومن كردفان وسائر بلاد العرب واليابان.

تقدم إليكم بكل اللغات مراسم وسيما وجميع الفنون.

صحافة ومنابر وتليفزيون وخطباً فى جوامع وجبنة وزتون.

يسر الإذاعة وما يسركوش بهذه المناسبة وما بندعيكوش.

نقدم إليكم ولا تقرفون شحاته المعسل بدون الرتوش.

شهبندر سماسرة بلاد العمار.

معمر جراسن للعب القمار.

- وخارب مزارع وتاجر خضار.

- وعقبال أملتك أمير الجيوش ما تقدرش تنكر تقول ما أعرفوش.

شحاتة المعسل حبيب القلوب يزيل البقع والهموم والكروب

يانفس يافين يبلبع حبوب ويفضل يهلفط ولا تفهموش

وتفهم ما تفهم داما يهمناش لأن أنت فاهم وعامل طناش

فيا أيها الشعب صهين تفلعص مساء التنفيس مساء الروايح

اخويا الأمير بزرميط الإيرانى

بعت لى السنة دى عزمنى ودعانى

أنا قبلت طبعاً ورحنا العزومة وكان وليمة ما تحصلش تانى

دا إيه المحمر وإيه المكمر وإيه المشمر إله الصهوانى

ختاماً سلاماً وآخر كلاماً ضروراً يسود الهدوء والوئاما ..

سلام عليكم وسلمون وموز

بصفتى رئيساً وأباً وجوز

ولم يكتف أحمد فؤاد نجم بالتلميحات الواضحة فى قصيدة «بيان هام» التى قصد بها الرئيس السادات وصديقه شاه إيران محمد رضا بهلوى، بل راح يلقى القصيدة وهو يقلد حركات وإيماءات السادات وحوكم على هذه القصيدة وقبض عليه بعد ثلاث سنوات هروب، ورغم أنه اعتقل لذات التهمة أيام عبد الناصر وبالتحديد فى يونيو ١٩٦٧ حيث كتب قصيدته الموجعة والتى جلد بها ذاته وذواتنا:

الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا

يا محلا رجعت ظباطنا من خط النار

يا أهل مصر المحميه بالحراميه

الفول كثير والطعمية والبر عمار

وفى نهاية القصيدة يقول عن عبد الناصر

أشعار تمجد وتماين حتى الخاين

وإن شاء الله يخربها مداين عبد الجبار

*والمسكين فكرى أباظة كُسر قلمه وأجلسوه فى بيته بعد أن كان رئيساً لمجلس إدارة وتحرير دار الهلال لأنه هاجم ديكتاتورية عبد الناصر، والذى كسره حقيقة نشره اعتذار فى شكل مقال فى الأهرام على انه أخطأ وبعد ذلك لم يسأل أحد فيه لمدة ستة شهور حتى أعادوه إلى عمله ولكن ليس كما كان.

إذن تبقى الكتابة الساخرة حائطاً صلباً ضد الديكتاتورية والاستبداد والتعسف والظلم والطغيان، تبقى هى الابتسامة المرسومة على الشفاة بدموع، والقلب يرقص ألماً.. والكاتب الساخر لا ينمو ولا يتضح إلا إذا كان صاحب قلم شريف ولديه مساحة حرية سواء وجدت له أو حفرها بنفسه ولنفسه .. ذلك أن الكاتب الى حسب قول محمد عفيفى «هل سمعت بالكاتب الذى اشترى قلماً جديداً وباعه فى نفس اليوم» لا يمكن أن يكون ساخراً لكنه سيكون ثقيل الدم .. مثل السيارة الأجرة مطية لكل راكب .. ولكنه دوماً يقع فى مأزق بين كتابته وحريته «الآن إذا كتبت أموت من الخوف، وإذا لم أكتب أموت من الجوع» هكذا محمد الماغوط الذى يضيف - رحمه الله - فى ظل ما وصل إليه حال العرب، سنقطع الجبال سيراً على أقدامنا لنصل إلى قبر بلفور الشهير فى بريطانيا، وهناك ونحن نتحلق حوله سأضع قدمى على قبره وأقول له بصوت تخنقه الدموع نحن ضحايا المحرَقة العربية نريد وطناً قومياً جديداً ولو على مزبلة».

- ويضيف:

من أنتم

نحن العرب

. ماذا تشتغلون

- نحن لا نشغل شيئاً، فالعالم يشتغل بنا..!!

. لكن «برجسون» فى أشهر الكتب عن «الضحك» والذى ترجمه سامى الدروبى يورد ملاحظات ثلاث عن الضحك منها انه لا هزلى خارج نطاق الإنسان، وأن الضحك يستلزم عدم الانفعال ولابد أن تكون فى مجموعة من الناس «إن المواقف والمبادرات والحركات التى يقوم بها الجسم الإنسانى تكون مضحكة بالقدر الذى يغدو فيه الجسم شبيهاً بآله او وسيلة لإثارة الضحك .. فالأمر الهزلى هو كل حادث يلفت إلى ما هو جسمانى فى الشخص، وما هو معنوى أيضاً.

وقد رد عليه وقتها العالم الفرنسى الشهير yves Delage فى مجلة Revue du mois عام ١٩١٩ بأن الشىء الهزلى يسمى كذلك «حين يكون هنالك تنافر واضح، أو عدم تناغم أو توافق، بين السبب والنتيجة».

ولا نريد أن نتعرض لنظريات الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع عن السخرية وربط فرويد بين السخرية والجنس وتقسيم النكات إلى وقحة إباحية، ووقحة غير إباحية، فقد تعرض لها عديدون من قبل، ومن ثم فإن الأمر يتعلق هنا بدراسة الأشخاص وما يقولون أكثر من الدخول فى قوالب بعيدة عنهم، وإلا أصبحنا مثل أغلب نقادنا الآن الذين فرغوا الأدب من مضمونه بمفاهيمهم المغلوطة عن الحداثة والبنوية والتخشيبية والتكشيرية وغيرهم من «الإبية».

- ولعل أكثر كاتب يخشاه الحاكم هو الكاتب الساخر ذلك لأنه لا ينتقده فقط، ولكنه يضحك الناس عليه بنقده، ومن ثم فإن مثل هذه الأقوال والمقالات تعلق فى ذهن الناس، لذا فهو يحاول أن يقربه منه مثلما صادق السادات محمود السعدنى فترة طويلة قبل أن ينقلب عليه.

كما أن التاريخ شاهد على مواقف عديدة لكتاب ساخرين وأدباء ظرفاء ونصابين خفيفى الدم وليس اليد فقط نجوا من مقصلة الحاكم لخفة دمهم فمثلاً يروى ابن عبد ربه فى «العقد الفريد»: «قال أبو الطيب اليزيدى:

- أُحضر إلى المهدى رجل ادعى النبوة، فقال له أمير المؤمنين: أنت نبى؟

- قال: نعم! قال: وإلى من أُرسلت؟

- أجاب: أوتركتمونى أرسل إلى أحد، ساعة أن أرسلنى الله وضعتمونى فى السجن، والخليفة على وقاره، وفى موقف رصين كهذا الموقف الذى يحاكم فيه من يدعى النبوة، ضحك وأضحك من معه، فأخلى سبيله.

- أيضاً «ادعى رجل النبوة فى أيام الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى يقال عنك؟ قال: إنى نبى كريم. قال: فأى شىء يدل على صدق دعواك؟

- قال: سل عما شئت. قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد أصحاب لحى، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: كيف يحل لى أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة

الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً في لحظة واحدة. فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصِلة، - ليست بَصَلة طبعاً.

وكذلك روى أن الحجاج - وما أدراك ما فجر الحجاج - خرج ذات يوم يتنزه بمفرده ووجد شيخاً من بنى عِجْل فقال له: من أين أتيت يا شيخ، فقال: من هذه البلدة.

- قال: ما رأيكم بحكام البلاد. قال: كلهم أشرار يظلمون الناس فيختلسون أموالهم. قال: وماذا تقول فى الحجاج:

- فقال الرجل: هذا أنجس الكل، سود الله وجهه ووجه من استعمله على هذه البلاد

- فقال الحجاج: تعرف من أنا

- قال: لا والله

- قال: أنا الحجاج

- فقال الرجل: وتعرف من أنا

- قال: لا

- قال: أنا زيد بن عامر مجنون بنى عجل أُصرع كل يوم مرة فى مثل هذه الساعة

- فضحك الحجاج وترك الرجل يمشى .. والحمد لله أن هناك تليفزيونات الآن نشاهد من خلالها .. «الحجاجين» وإلا ...

- وأيضاً من الحكام - كالعادة ولم نكن نعرف، أنهم ورثوها - من بهم غباء وحمق «يضحك» أكثر من الكتاب الساخرين، فقد روى ابن الجوزى فى طرائف الحمقى والمغفلين، أنه: «صعد بعض الولاة المنبر فخبط، فقال: إن أكرمتمونى أكرمتكم، وإن اهنتمونى ليكونن أهون علىَّ من ضرتى هذه، ضرط ضرطة»!!

- وأيضاً «.. وبلغنا أن يزيد بن المهلب ولىّ أعرابياً على بعض كور خراسان فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر وقال: الحمد لله، ثم ارتج عليه، فقال: أيها الناس، إياكم والدنيا، فإنكم لم تجدوها إلا كما قال الله تعالى:

«وما الدنيا بباقية لحى — وما حى على الدنيا بباقى

- فقال كاتبه: أصلح الله الأمير، هذا شعر، قال: فالدنيا باقية على أحد، قال: لا،

قال: فيبقى عليها أحد، قال: لا قال: فما كلفتك إذن؟

- وكأنه ولولا أن الحكام يعادون لنفدوا: ومعذرة للإمام على بن أبى طالب «لولا أن الكلام يعاد لنفد».

- وبعد ...

- فهذا كتاب عن الساخرين كان حلماً لى منذ بداياتى مع عالم الكتابة وكثيراً ما تخيلت هذا الحلم على مقاهى سوهاج ونحن ندرس فى الجامعة وحكيت عنه لصديقى خالد رشدى الذى كتبت له الإهداء لأنه شهد على الحلم منذ ولادته وحتى الآن، ولعل هذا الكتاب هو أحب كتبى إلىّ لأننى ظللت فى عناق وفراق مع أوراقه ٧ سنوات،كانت الأوراق تسكن قلبى وعقلى ولم أحاول أن أكتبه كاملاً إلا بعد السبع السنوات هذه، كما أنه كان عصياً على الكتابة حتى حفزنى عليه عمنا محمود السعدنى ولما صمتُّ صمتُ مثله ولم أكتب. وأنا مدين بالشكر لمن أوجد لدى دافع الكتابة بنشره حلقات فى جريدة «الكرامة» تلك الجريدة التى سيذكر التاريخ ذات يوم من أنها كانت سوطاً للحاكم وأنها كانت ضميراً لأمة - وقد أوجد الدافع الأستاذ جمال العاصى حين كنا نفطر فى بيتى فى رمضان العام الفائت ومعنا الصديق العزيز الأستاذ محمد أبو زيد حيث عرض علىّ نشر الحلقات عن الكُتّاب الساخرين كملحق فى جريدة الكرامة».

- وكذلك أنا مدين بالشكر للأستاذين عبد الحليم قنديل وسليمان الحكيم اللذين رحبا بالفكرة وأصرا على أن تخرج بهذا الشكل الرائع.

- وشكر أخير لكل «الساخرين» الذين كتبت عنهم وقد حملونى عذاباتهم وحزنهم أكثر من ضحكاتهم .

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

سامى كمال الدين

القاهرة

٢٠٠٨/١/١

منذ جئنا إلى الدنيا ونحن نضحك...!

تتحول السخرية فى أحيان كثيرة إلى متعة لدى الفقير الذى لا يملك من ترف الحياة شيئاً سوى ضحكات يملأ بها شدقيه .. ساخراً ممن حوله، وهو إذا تحول إلى ساخر يسخر من كل شىء من نفسه وحياته وأهله وممن حوله .. من الكبير والصغير يحاول تحصين نفسه بالسخرية من الآخرين ثم يردد فى النهاية «ضربوا الأعور على عينه قال خربانة .. خربانة» فمع تزايد الفقر والقمع وإغلاق نوافذ الحرية، وعدم حصوله على الحق فى حياة كريمة يتحول إلى ساخر كبير يبكى فى النهاية على ما أضحكه:

«هجم السرور علىّ حتى إنّه ❖❖❖ من فرط ما قد سرنى أبكانى»

يا عين صار الدمع لك عادة ❖❖❖ تبكين من فرح ومن أحزان

ولكن هذا الإنسان «الضاحك الباكى» لم يأن اليوم ليخترع الضحك أو يوجده، فالضحك موجود قبل وجوده، وإذا رجعنا إلى بدايات الضحك مثلاً عند الفراعنة لوجدناهم قد اهتموا بهذا الأمر مثلما يتضح من أغانيهم وصورهم المنحوتة على جدارياتهم، ويعلق الدكتور شوقى ضيف فى كتابه «الفكاهة فى مصر» الصادر عن دار المعارف عام ١٩٨٥ على كتاب «مصر والحياة المصرية القديمة» الذى نشرته النهضة المصرية مترجماً عن الألمانية، والذى تجد فيه «عشرات الرسوم والصور المتلاحقة التى تنبئ عن هذا الطابع المتغلغل فى نفسية المصريين، فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرآة بيدها اليسرى، وفى نفس اليد «الحُق» الخاص بصبغ الشفاه الأحمر، وفى اليد الأخرى ريشة تطلى بها شفيتها، وكل ذلك فى وضع مضحك.

وفى صفحة أخرى صورة فكهة لشخص أصلع، أرسل ذقنه ومد كفيه مدافعاً عن نفسه كأنه يمنع من يريد أن يحلق ذقنه أو يصلحها.

ونرى صورة مضحكة لذئب يرعى ماعزاً والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل المعروف بين عوامنا إذ يقولون: «حاميها حراميها».

وهناك صور تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن «يكش الملك» والأسد مكشر عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.

ومن الصور التى لا نكاد نراها حتى نبتسم صورة أمير وأميرة بونت، وهما وافدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيراً للسخرية والضحك.

وهناك رواية عن جدنا تحتمس ذلك الملك النشيط القوى الذى اعتنى كثيراً بأمور ملكه بأنه بعد أن يبدأ عمله بنهم وعناية منذ الصباح الباكر وحتى العصر يدعو بعد ذلك مستشاريه إلى مجلسه ليبدأ الطرب والحديث الفكه والضحكات الصافية.

وسئل ذات يوم عن سر هذه المجالس وهو الحاكم الجاد الوقور فقال: «عندما يذهب الرامى بقوسه إلى الصيد، حل الوتر لئلا يتقطع من التوتر المستمر».. كذلك الضحك الذى يخفف توتر الإنسان ويؤدى إلى الراحة للذهن المكدود دوماً ويعيد إليه نشاطه.

ويروى الكاتب الكبير سمير عطا الله أن هناك رحالة من البيرو زار مصر عام ١٧٩٢، ويدعى الكسندر منذوز قال: إن «أهل مصر أهل نكتة». والنكتة تعكس صور الحكمة والقدرة على فلسفة الأمور وتحمل الشدائد. ورويت فى زمن الحاكم التركى قراقوش نكتة تقول: «إن جندياً صعد مركباً فيه فلاح وزوجته الحامل فى شهرها السابع، فصدمها الجندى وأسقط حملها. فأخذه الزوج بتلابيبه إلى قراقوش طالباً حكمه ، فحكم على الجندى بأن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسيها ولا يعيدها إلى زوجها إلا وهى حامل فى الشهر السابع».

ويجيء الرومان ليحتلوا مصر فيسخر منهم المصريون وأهالى الإسكندرية بالذات أقذع سخرية، ثم يجيء بعد ذلك الإسلام ليظهر رجل ساخر فى عهد الدولة الطولونية يسمونه «الجمل الأكبر» وكان مقرباً من الأمراء والحكام يمتدحهم ويضحكهم، ثم جاءته الدولة الأخشيدية ليأتى معها ساخر آخر يسمونه «الجمل الأصغر» .. لكن الدكتور شوقى ضيف يرى أن «مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية الأولى فكهاً ساخراً على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى رافق الدولة الإخشيدية، وكان يظهر

التبالة والحمق والجنون، ويضع كل ذلك مسرحاً ينفث فيه مرارة وخبثا، وفيه تنفيس عما قد يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة.

ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرة لسانه، وكان يقف فى الأسواق يصيح بسبه وهجائه والناس يجتمعون ويضحكون. ولم يكن يسب ويهجو بلفظ قبيح، إنما كان ينهر ويزجر، مستخدماً آية قرآنية أو حديثاً أو سجعاً يولده لوقته».

ويروى عنه أنه وقف ينظر إلى الناس وقد اجتمعوا بكثرة لرؤية «الإخشيد» وهو ذاهب إلى الصلاة فصرخ: «ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟».

– فسأله أحد هؤلاء الناس: «هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة»، فقال: «هذا الأصلع البطين، المسمَّن البدين، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان؟ ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قَبِل الله له صلاة، ولا قبل له زكاة، وعَمر بجثته الفلاة».

ويروى شوقى ضيف أيضاً: «ومن الطريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فتيهاً صالحاً، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال: «حصلت الدنيا على أقطع وأقرع وأرقع»، يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى صاحب بغداد، وبالأقرع سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، وبالأرقع كافورا، وكانت قد صارت إليه شؤون مصر. وكان يسميه فى مواعظة الخصىّ لا يبالى».

وفى الدولة الفاطمية ظهر ساخرون عديدون منهم ما عرف اسمه مثل ابن قادوس الدمياطى الذى وصف صديقاً له أسود اللون بقوله:

إن قلت من نارٍ خلقت وُفُقتَ كل الناس فهما

قلنا صدقتَ فما الذى . . . أطفاك حتى صرت فَحّما

وهناك الجليس بن الحباب وابن مكنسة، وهناك المجهولة أسماؤهم الحقيقية ومنهم من كتب شعراً وتركه على منبر المسجد يوم الجمعة، وإذا بالعزيز بالله يصعد المنبر فيجده وهو مذهول:

إنا سمعنا نسباً منكراً . . . . . . يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقاً . فاذكرا أبا بعد الأب الرابع
أو فدع الأنساب مستورةً وادخل بنا فى النسب الرابع
فإن أنساب بنى هاشم يصد عنها طمَعُ الطامع

وذلك عن حكايات الفاطميين من أنهم ينسبون إلى بيت النبوة، وهو هنا يسخر منهم فى الأبيات السابقة.

وتأتى الدولة الأيوبية فتتذكر كتاب «الفاشوش فى حكم قراقوش» لابن مماتى» الذى جاء على نحوه كتابان آخران بعد ذلك بكثير وهما كتاب حمل نفس الاسم وألفه السيوطى، وكتاب آخر هو «الطرا المنقوش فى حكم السلطان قراقوش» .. وقراقوش كان رجلاً عادلاً ورغم أصله التركى إلا أن صلاح الدين الأيوبى كان يتركه يدير أمور البلاد أثناء ذهاب صلاح الدين لمحاربة الصليبيين، بل إنه الذى بنى قلعة صلاح الدين، لكن ابن حماتى الذى كان يتولى ديوان الجيش خلفاً لأبيه أطلق تشنيعاته الخالدة على قراقوش فظلت حتى الآن تثبت أن قراقوش مثالاً فى الغباء والحمق والتبلة، والرجل من هذه الصفات برىء .. وقد امتلك الأسعد بن مماتى جرأة كبيرة لدرجة أنه بدأ مقدمة كتابه: «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان، صنعت هذا الكتاب لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين».

ثم يأتى عصر المماليك فتزيد السخرية بسبب الحياة الماجنة العابثة اللاهية التى كان يعيشها هؤلاء المماليك الذين أصبحوا حكاماً..!

ويظهر شعراء عديدون يكتبون شعراً ساخراً، لكن هناك شخصين لا يستطيع أن يمر تاريخ الكتابة الساخرة دون أن يتوقف عندهما وأولهما ابن دانيال وهو صاحب المسرح الهزلى وخيال الظل «الأراجوز» أيام المماليك.

وهذا الشاعر - ابن دانيال - اهتم كثيراً بالمسرح فكتب ثلاث مسرحيات «طيف الخيال» و«مُتَيَّم» و«عجيب وغريب» فى عهد الظاهر بيبرس.

أما الساخر الأعظم الثانى فهو ابن سودون صاحب ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس» .. والديوان شعر عامى وحكايات نثرية يرويها بخفة دم وظرف حتى فى وفاة أمه التى ماتت وعنده ٤٤ عاماً .. فحين تقرأ وتضحك لا يستوعب عقلك أنه يتحدث عن أمه هو إذ يقول وهو ينعيها:

لموت أمى أرى الآخــــران تَحْنينى ... فطالما لحـــســتنى لحسَ تَحْنين
وطالما دلَّعـــتنى حـــالَ تربيــتى ... خـوفاً على خاطرى كى لا تبكِّينى
أقول «مَمْ مَمْ» تجى بالأكل تطعمنى ... أقول «آمبو» تجى بالماء تسقينى
إن صحت فى ليلة «وَآوا» لأسهرها ... تقــول «هُوهو» بهــزكى تُنَيْنُنى
كم كحَّلتنى ولى فى جبهتى جعلتْ ... «صوصو بنيلى» وكم كانت تحنِّينى
وربما شَكْشكتنى حين أغضبها ... وبعد ذا كَشْكشتنى كى تُرَضِّينى
ومن فــفيــهىَ إن أهرُبُّ ورام أبى ... مسكى وبمشى له كانت تخبِّينى
وزغرطتْ فى طهورى فرحةً وغدتْ ... تنثــر الملح من فوقى وَترَّقــينى
وفى زواجى تصدَّتْ للجلاء عسى ... على المنصَّــة تلقــانى بتــزيين
وربت أولاداً أيضــاً مــثل تربيــتى ... وبعــد ذلك مــاتت آه وأنينى
وخلَّفــتنى يتــيمــاً ابن أربعــةٍ ... وأربعين سنيناً فى حِســابينى
يعظِّم الله فــيهــا الأجرَ لى وكــذا ... لى فىَّ من بعــدها جــودوا بآمين

أما فى قطعه النثرية الساخرية فيبدو أنه أول من اخترع التنكيت على الصعايدة والسخرية منهم إذ يقول: إن هناك شابا صعيديا يعيش فى القاهرة كتب لأهله خطاباً قال فيه:

«أرسل أفنين بن أبى المدارس إلى أهله كتاباً من الصعيد، يقول فى عنوانه «يصل إن شاء الله تعالى إلى دربنا المحروس الذى ضبَّطوا سَنْط دلقية (شارعنا المحروس الذى بابه مغلق بقفل من شجر السنط)، ويسلم ليد البيت، مطالعة الوالد (يقرأه الوالد)، وفى داخله:

«السلام عليكم عدد ما فى النخيل من أوراق، وعدد أمواج البحر أن تكدر أو راق سلام كثير لا يسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق، أطول من مقود زرافة، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاثة أطواق. من كل بد وسبب، والذى أعرفكم به إن كنتو «لسع «لسه» بالحياة أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على، جوز وزّ فقس الصيف، من ديك الوزة، وأيضاً خروف أبلق وخروف بلا بلاق. ويا سبحان الله تبقوا تتكلموا جزاف، أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل، وقلتوا لنا على طوله، وما قلتوا على عرضه، وأرسلتم تطلبوا «كِشْك» وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة، وإن طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد. وطلبتوا قُللاً، والفلاحين ما زرعوا إلا قرع طويل، فيكون ذلك فى خاطركم.

من حقه، بلغنى أن امرأتى حبلة، فلا تخلوها تولد، حتى آجى، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى، وجرت لى حكاية، وذلك أنى غسلت قميصى ونشرته فى السطوح، فقام بالأمر المقدور ضربه الهوا، فوقع من فوق لتحت، وارتجفت بسلامتى رجفة، وعرفت أن ما هى بشارة خير، وأنها تدل على موت أمى وأبويه، والحمد لله كانوا فدايه. وإنى صليت وصمت لله تعالى إللى ما كنت فى قميصى، ولو كنت فيه كنت انكسرت، فقلت: لا حوالينا ولا علينا! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى إللى تبقى ناحية المشد وقت أخرج من دارنا. والذى تُعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يومّ البستان أنا والخولى، فرأيت فيه نخل عرشى طويل، وشى قصير، وشى ما يشبه شى... كما أنى طلعت البلد ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة، واشتريت لى حمارة سودة، حتى لا تتوسخ، وبس كلام، فإنى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين. بعد السلام على أهل الحارة، كل واحد لوحده، كثير كثير.

بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه، وبالأمارة مطرت المطرة، وأهل البلد كلهم يعرفوا إنشاء الله».

وتمر الأيام وتأتى دولة محمد على باشا - ذلك القائد العظيم - ويجىء إلى الحكم ابنه إسماعيل الذى لم يكن مثل أبيه فيظهر ساخر بارع هو يعقوب صنوع ١٨٣٨-١٩١٢ الذى ينشأ صحيفة يسميها «أبو نظارة» عام ١٨٧٦ وهى عبارة عن رسوم كاريكاتورية وحكايات على ألسنة الفلاحين موجهة للخديوى إسماعيل الذى كان يسميه شيخ الحارة، وهاجمه بشراسة. وهاجم الامتيازات الأجنبية، ولم يتحمل الخديوى إسماعيل سخرية يعقوب صنوع اللاذعة ،وحاول أن يطويه تحت لوائه بأى طريقه، ولما فشل نفاه إلى باريس وأغلق له صحيفته عام ١٨٧٨ .. ولكن الساخر الذى داخل يعقوب صنوع لم يرتض الصمت والهزيمة فإذا به يصدرها فى فرنسا ويرسلها بأسماء مستعارة مثل «أبو صفارة» و«الحاوى الكاوى» .. وبعد أن تم خلع إسماعيل عام ١٨٧٩ وتولية ابنه توفيق لم يصمت يعقوب صنوع وهاجمه بشراسة وتهكم عليه وجعله مسخة .. وحين انفجرت الثورة العرابية جاء ساخر آخر سيخرج كل الساخرين من تحت لوائه .. إنه (أبوهم) عبد الله النديم.

عبد الله الكريم:

شرم .. برم .. حالى غلبان

▫▫▫

يأتى الكاتب الساخر فى وقت يحتاج فيه العصر إلى رجل رافض ومقاوم لواقع ظالم مثل الاستعمار فى القرن التاسع عشر مثل الاستبداد فى نهاية القرن العشرين

وفى القرن الواحد والعشرين - الآن - من حكام استبدوا وطغوا. والسخرية مثل الاعتصام بالدين - حسب قول الدكتور محمد رجب النجار فى كتابه «جحا العربى».

إن الاعتصام بالدين - فيما يشبه النزعة التصوفية - والاعتصام بالفكاهة والمجون وجهان لعملة واحدة، فالنفس المصرية التى أرهفتها الحضارة، وصقلتها المعيشة المنظمة لن تفتقر إلى ملاذ تسكن إليه كلما اشتد بها الجرد، فإذا غلبت على المصرى محنة النقمة، فملاذه النكتة والكفاهة يروّح بها عن نفسه، ويجنح إلى السخرية، وإذا ما غلب عليه الحرج يلجأ إلى الصبر على الفساد ويجنح إلى النسك والزهد والدروشة، أما إذا سنحت فرصة التمرد فالثورة ملاذه .. بعبارة أخرى بقدر ما كانت النكتة تعبيراً عن الشعب وما يجيش فى ضميره فى ظروف معينة، كان النسك تعبيراً عنه فى ظروف أخرى كما يقول الباحثون.

ولم يكن من المقبول أو الطبيعى أن يتحول الشعب المصرى إلى شعب من الدراويش والنساك، فإنه قد أبقى على الوجه الآخر للعملة، استجابة مع اتجاهاته النفسية وحالته الوجدانية، واستجابة مع ما يتمتع به من حس فكاهى أو «روح الفكاهة» التى يتمكن بمقتضاه - الشعب المصرى - من إدراك العناصر الفكاهية والتندر حتى غدت الفكاهة سمة ثابتة ورئيسية من سمات الشخصية المصرية.

والدكتور عبد الحميد يونس يرى أن النكتة الساخرة يرسلها الشعب المصرى فى أحلك الظروف وفى أصعب الأوقات وأحلك المناسبات.

- وهذا صحيح ففى مثل هذه الفترات جاء عبد الله النديم .. وجاء بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى وأحمد حافظ عوض وشيخ الزجالين محمد النجار ومحمد البابلى وحافظ إبراهيم الشاعر وإبراهيم عبد القادر المازنى وعديدون خرجوا من

عباءة عبد الله النديم الرجل الذى «داق» الذل والهوان وعاش حياة كلها غربة فى وطنه وألم .. مع خادمه الأمين وزوجته راسماً بقلمه تاريخاً لن يمحى بعد ذلك مهما مرت عليه السنوات، ويعطى دروساً لأجيال تعيش فى زمن غابت فيه الكرامة وانكسرت الأقلام الحرة إلا أقلها .. فى هذا الزمن الذى يرقد فيه بيت عبد الله النديم فى منيا البصل بالإسكندرية يعانى الإهمال فى عهد الوزير الفنان - فاروق حسنى الذى يرعى الآثار ويهتم بقديم الديار، ويبدو أن الوزير لا يقدر الفرسان فى زمن يصن علينا بهم وهو القائل - النديم طبعاً مش الوزير:

إذا ما الدهر صافانا مرضنا	.·.	فإن عدنا إلى خطب شفينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا	.·.	ولكنا نُهينا إن نَهينا
وإنا والورى قسمان لكن	.·.	إذا ماتوا بنازلة حيينا

هذا السافر السائر العظيم الذى أبكى الإنجليز بسخرياته ينتمى والده مصباح إبراهيم الإدريسى إلى محافظة الشرقية، وانتقل إلى الاسكندرية وعمل نجاراً فى الميناء حيث صناعة السفن، وبعد أن «حوش قرشين» بنى مخبزاً .. وحين جاء عبد الله إلى الوجود فى عام ١٨٤٥ ألحقه بالكتاب فحفظ عبد الله القرآن وهو فى التاسعة من عمره، ثم ألحقه والده «بالجامع الأنور» .. وكان الفتى ذواقاً يستمتع بالكلمة الجميلة ولا يميل إلى الحفظ من «اللوح» وخلاص، وكانت مقاهى الإسكندرية فى ذلك الوقت ملاذاً للأدباء والشعراء ومحبى الشعر فراح يجلس فى هذه المقاهى ويذهب إلى دكاكين التجار الذين يحبون مجالس الأدب .. وقد تكونت الأذن الموسيقية لدى الفتى من خلال إنصاته لشاعر الربابة وهو هنا يشبه الرجل وصديقه اللذين وصفهما صلاح جاهين فى الليلة الكبيرة إذ كلما ذهبا إلى المقاهى طالبهم صاحب المقهى بطلب مشروب.. وكان دليل عبد الله فى هذه السن المبكرة من حياته الشيخ محمد المشرى الذى درس له فى «الجامع الأنور» حيث اصطحبه معه لهذه المجالس وبدأت حياته الإبداعية بكتابة الشعر وإلقائه، وكان لديه ذاكرة قوية وذكاء نادر ثم تعرف إلى النكتة مبكراً وراح يحفظها ويلقها بطريقته الخاصة .. ولكن لأنه لابد للمبدع من عذابات تدفعه لأن ينضج بإبداعه فقد كانت هذه العذابات هى مرافقة أبيه بسلوك ابنه والنضج الذى

انتهجه فى حياته، وهنا خيره بين دراسة العلم أو يبحث له عن عمل يصرف به على نفسه، واختار عبد الله الاعتماد على النفس، وكان ينتقل إلى بيوت العمد والأعيان الذين يهون الشعر والظرف والفكاهة وحلو الحديث، ولكن عبد الله النديم لم يعجبه الحال، وهو مثل أى مبدع حقيقى لا يريد أن يكون .. أراجوزاً أو مادة للتسلية والترفيه، فترك الإسكندرية لأول مرة فى حياته وسافر إلى القاهرة فى ١٨٦١ وقد بلغ السابعة عشرة من عمره، ووجد وظيفة فى مكتب تلغراف ثم تم نقله إلى مكتب تلغراف القصر العالى، وكان خاصاً بوالدة خديوى مصر إسماعيل وساقته موهبته إلى البحث عمن يشبهها فذهب إلى الأزهر الشريف ليستمع إلى الدروس هناك ثم تعرف على محمود سامى البارودى والساعاتى وحضر مجالسهما وحفظ ما يدور فيها .. بل وأصبح مشاركاً بالرأى، حتى جاء إلى مصر الرجل الذى سيقلب الحياة الثورية فيها على عقب وقال «أعجبت أيها الفلاح تشق قلب الأرض بفأسك فلم تشق بنفس الفأس صدر ظالميك» .. وهو الذى وصفه أحمد بهاء الدين فى كتابه «أيام لها تاريخ» بأنه كان يوزع السعوط بيمينه والثورة بشماله .. جاء جمال الدين الأفغانى ليحفز الناس على الثورة ويخرجهم من سكاتهم .. وما صدق عبد الله النديم أن سمع عن رجل هذه آراؤه وتلك مبادئه فسارع بالبحث عنه ومقابلته وحضور كل مجالسه وعدم مفارقته إلا حين يذهب إلى عمله بتلغراف الباب العالى .. وأحس الأفغانى بموهبته فقربه منه وعلمه آلاف الحروف .. وقد نضج الحس الساخر عند النديم مبكراً وكثيراً ما كان يروى النوادر الساخرة على مر التاريخ، وكانت كلما حبكت القافية عنده أطلقها ولو كان يقف أمام الخديوى، وقد تسببت له سخريته فى قطع عيشه وتجويعه، ويروى محمود السعدنى هذه الحكاية فى كتابه «الظرفاء» الصادر عن سلسلة «كتاب اليوم» ص٢٠ بقوله: «كان فى القصر الذى عمل فيه بالتلغراف (القصر العالى) رجل اسمه أغا باشا .. كان سيد القصر غير منازع، والويل لمن يغضب عليه، والسعادة لمن يرضى عنه .. وكان منظر الأغا يدعو إلى الضحك، كان طويلاً وبديناً إلى حد الإفراط، وكرشه المستدير يبرز أمامه، كأنه ألصق بالصدفة فى هذا الجسم الضخم .. كأنه جسم فيل .. و«حبكت» النكتة على النديم فأنشد عن الرجل زجلاً ظريفاً .. غاية فى النكتة والسخرية.

شوف الأغا فى النغنغا .·. زى الثيران فى المزرعه

لو كنت أنا صاحب الأغا .·. كنت اشتريتله بردعه

وسمع الأغا زجل النديم فأمر بطرده من القصر، وأمر أيضاً بأن يضرب بالقباقيب حتى يغمى عليه!

وهكذا خرج النديم من القصر والدماء تسيل من رأسه ومن أنفه .. إلى غير رجعة ..»

وقرر النديم بعد هذه «العلقة الساخنة» أن يترك القاهرة فسافر إلى الدقهلية وقام بتأجير دكان لبيع الخردوات وحوله إلى جلسات للشعر والأدب، وكان طبيعياً أن يتعرض للإفلاس .. وعاش حياة فقيرة رغم ثقافته وخفة دمه، وذات يوم التقى بمفتش الوجه البحرى شاهين كنج باشا الذى كان يهوى الظرف وخفة الدم فتصاحب النديم عليه، وأخذه إلى مجالسه فى طنطا ودخل فى معارك شعرية عديدة انتصر فيها بارتجاله الشعر .. بل ويروى النديم فى مجلة «الأستاذ» إن شاهين كنج باشا حين عرف بهذه المعارك قرر أن يقيم حفلا عاماً للأدباتية والزجالين، وإذا هزمهم النديم قام بجلد كل واحد منهم عشرين جلدة، وبالفعل وافقوا وازدحم الناس أمام بيت شاهين باشا، وظلوا يتساجلون لمدة ثلاث ساعات، هم يقولون والنديم يرد حتى استطاع هزيمتهم وأن يسكتهم جميعاً، وقد أشفق شاهين باشا عليهم ومنح كل واحد منهم خمسة جنيهات .. ولكن النديم كان يبحث عن طريق يعيده إلى القاهرة فقد اشتاق إلى مجالس جمال الدين الأفغانى، وأتاح له شاهين باشا هذه الفرصة حين عرفه على تتونجى بيك (من الحاشية الخديوية) الذى عينه وكيلاً لدائرته، مما أتاح له أن يذهب إلى القاهرة ليجد الأفغانى وقد أسس المحفل الماسونى وضم النديم إليه وأرسله إلى الإسكندرية عام ١٨٧٩ ليبشر بدعوته، وسافر عبد الله النديم إلى بلده متذكراً طفولته وصباه فى تلك المدينة الساحلية التى تنام على البحر مثل العروسة.

واهتم الناس فى الإسكندرية بما يقوله النديم ووجد ترحيباً منهم، وانضم إلى جمعية «مصر الفتاة» وهى جمعية سرية هدفها مقاومة استبداد الخديوى إسماعيل والتخلص منه بأي طريقة، كما كانت تطالب هذه الجمعية بالحكم بالشورى وبدأ يكتب فى جريدة «التجارة» لصاحبها أديب إسحق ثم فى جريدة «مصر» ودعا فى كتاباته إلى الإصلاح السياسى، بل وأصبح له أسلوب متفرد وحديث راح العديدون يقلدونه فى الكتابة .. وكان يريد أن يخرج بجمعية «مصر الفتاة السرية إلى النور لكن مؤسسيها

رفضوا فقام بتأسيس أول جمعية مصرية، فى أبريل عام ١٨٧٩ وأسماها «الجمعية الخيرية الإسلامية» وأسس مدرسة تتبع هذه الجمعية وأخذ يخطب فيها ببلاغة ورؤية سياسية واضحة وعلم الطلاب أصول الخطابة، وحاول أن يوسع نشاط المدرسة والجمعية فألف عدة مسرحيات مثلها تلاميذ المدرسة .. وبعد شهرين من تأسيس النديم لجمعيته تم خلع الخديوى إسماعيل وتولى ابنه توفيق حكم مصر .. وكما يخلق من طهر العالم فاسدا، فقد خلق هذه المرة من ضهر الفاسد فاسدا، فأمر بالقبض على جمال الدين الأفغانى ونفيه فقاد النديم الثورية لدى الناس وجعلهم يستعدون لها وأخذ يخطب فى مدرسته ويطالب بالحرية والعدل والمساواة .. وهناك حادثة مهمة يرويها الدكتور على الحديدى فى كتابه عن عبد الله النديم إذ أنه حين اشتد الخلاف بين الخديوى توفيق ورياض باشا رئيس الوزراء .. أراد الخديوى أن يتقرب إلى الشعب لينصره على رياض باشا، ووجدها النديم فرصة ليستجير من الرمضاء بالرمض أو بالخديوى من بطش رياض باشا، وقام النديم بدعوة الخديوى توفيق لزيارة مدرسته، وأن تكون تحت رعاية ولى عهده، وبعد ذلك طلب النديم من الناس فى الأرياف أن يقيموا جمعيات، وبالفعل كون جمعيات أقوى فى المنصورة ودمياط وميت غمر وغيرها، وشارك الشعب فى الجمعيات فى كل مكان .. بل وراح النديم يكتب المسرحيات الممتلئة بالألغام السياسية ومنها مسرحية «الوطن وطالع التوفيق» التى مثلت على مسرح زيزينيا وحضرها الخديوى توفيق ورياض باشا رئيس الوزراء فتآمر رياض باشا ضد النديم ليخلعه من الجمعية ودسوا عليه أشياء مهينة، وسارع النديم حين علم بالمؤامرة فأرسل استقالته، وقام بتأسيس جريدة «التنكيت والتبكيت» فى ٦ يونيو ١٨٨١ والتى أخذت بحياة النديم ومقاومته شكلا ولونا جديدا، وجاء فى الافتتاحية . قارن بينها وبين افتتاحيات صحفنا الموقرة الآن - «لا أريد منها أن يكون منمقة بمجازات واستعارات، ولا مزخرفة بتورية واستخدام، ولا مفتخرة بفخامة لفظ بمجازات واستعارات، ولا مفتخزة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ولا معربة عن غزاوة علم وتوقد ذكاء، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها» .. وكان أول المطالبين بتجديد الخطاب الدينى الذى تثور عليه معارك سنة ٢٠٠٦ - وذلك فى مقاله «ألسن الخطباء تحيى وتميت».

وقال كلاماً يشبه ما يريده الأمريكان بنا الآن «أترون الدول ترحمكم إذا ملكتكم، أو تبكى عليكم إذا أهلكتكم، أو تعاملكم بالرفق واللين، كلا والله .. ما هى إلا أسود إذ

دهمت احترست وإن تمكنت افترست، وإن ملكت أساءت السيرة، وإن جاورت لم تحفظ الجيرة، وإن تداخلت احتالت، وإن رأت غرة اغتالت..»

ولعبت صحيفة «التنكيت والتبكيت» دوراً هاماً فى مهاجمة الاستبداد وإيقاظ روح الثورة فى الناس، كما احتوت على موضوعات اجتماعية عديدة تناولها النديم بأسلوب ساخر مثل مقال «عربى تفرنج» ومحتاج جاهل فى يد محتال طامع، وغيرهما مئات المقالات التى تفوح بالحكمة والفلسفة والفكر والارتباط بالشعب والكتابة عنهم وكانت تنفد أعداد الجريدة فور طباعتها .. وكان هناك ثوريون يحرصون على قراءتها والاهتمام بها ومعهم «أحمد عرابى ورفاقه» فتقربوا إليه وعرفوه بأنفسهم وما يفعلونه لأجل مصر وطلبوا منه الانضمام إليهم فأصبح خطيب الثورة العرابية، وهاجم فى خطبه الخديوى توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا وطاف البلاد يبشر بالثورة ويمهد لها ويدعو إليها، وكتب منشوراً باسم الجيش أعطاه لعرابى ليوزعه مطالبين فيه بإسقاط حكومة رياض باشا وتشكيل مجلس نواب، بل وسافر إلى الأقاليم وأخذ توقيعات الأهالى بأن يكون عرابى وكيلاً ومتحدثاً، عن الشعب، بل وجاء أعيان الأرياف إلى القاهرة مؤيدين لعرابى، واستقبلهم النديم مع عرابى .. بل وشارك النديم فى مظاهرة عابدين التى ذهب فيها عرابى والجيش إلى قصر عابدين مطالبين الخديوى بمطالبهم التى قبلها مجبراً لتسقط وزارة رياض وبعد ذلك طلب الخديوى من عرابى ورفاقه الابتعاد عن السياسة والعودة إلى معسكراتهم، وسافر عبد العال حلمى إلى دمياط بكتيبته، وبعد ذلك سافر أحمد عرابى لرأس الوادى، وكان لابد من خطبة للتوديع، وودعهم النديم بخطبة قال فيها أمام أبناء الشعب الذين يودعونهم:

حماة البلاد وفرسانها.

إن من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والكوارث أدرك مقدار ما وصلتم إليه من الشرف، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من حسنات، فقد ارتقيتم ذروة لم يسبق إليها سابق، ولن يلحق بكم فى إدراكها لاحق، ألا وهى حماية البلاد، وحفظ البلاد والضرب على يد الاستبداد، فلكم الشكر الجميل، والمجد الخالد، يباهى بكم الحاضرون من أهلنا، ويفاخر بأعمالكم الجيل الآتى من أبنائنا، فقد أعدتم الروح إلى الوطن بعد أن بلغت الروح التراقى».

وتألم يوم سفر عرابى ووقف يخطب:

سادتى وإخوانى: أرونى أمة بلغت مناها بغير العلم أو حد اليمانى؟! قضت علينا الشقوة بأن نعيش فى عصر الخسف، وعهد الاستعباد، فرأينا المشنوق من أهلنا، وشاهدنا المذبوح والمحروق، والموضوع على الخازوق والمسجون والمنهوب، والمشرد والمغلوب والمسلوب، ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا أننا لم نحسن المحافظة على البلاد.

ثم رأينا تسليم أمور بلادنا إلى الأجنبى، وإذلال الوطنى وضياع حقه وتركه فى زوايا الإهمال، فسعينا إلى تحقيق الاتحاد وجمع القلوب، حتى نهض الجيش فأعرب عما فى ضمائرنا، ونادى جهاراً بحقوق الأمة، فنحن الآن ننادى بصوت يسمعه القاصى والدانى: يموت الاستبداد وتعيش الحرية، وعدم المستبد ويبقى جيش الحمية هذا أخوكم الجليل، السيف المجرد لحماية بلاده، يدعوكم، ويسافر إلى رأس الوادى، لا بإكراه ولا بإرغام، ولكنه يسافر ليقطع ألسن الأعداء، ويقضى على الأراجيف، ويعلم الصديق والعدو أن الوطن فى هدوء عظيم، وأن أهله فى طاعة لا يشوبها عصيان فاسألوا الله له ولإخوانه السلامة، وكونوا مثلهم فى الاتحاد والوطنية، فكلكم وطنى وإن اختلفت المقاصد وتباينت السبيل..»، ورفض النديم أن يترك عرابى بمفرده فسافر معه .. بل وغير اسم «التنكيت والتبكيت» إلى «الطائف» لتصبح لسان الثورة العرابية، لكن سرعان ما هزمت الثورة وجاء الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ .. ورفض النديم الاستسلام للهزيمة وأخذ يطلب من الناس من خطاباته أن يقفوا بجوار الجنود، وخطب فى المساجد والبيوت والشوارع والقرى والمدن .. وكان يقول بجرأة يحسد عليها وقتها: هذه أيام النزال، هذه أيام النضال، هذه أيام الذود عن الحياض، والدفاع عن الأعراض، هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر الحماة غوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر، بل عدو العرب، لا بل عدو الإسلام، الدولة الإنجليزية خذلها الله ورد كيدها فى نحرها، يا أهل مصر، إنما آجال الناس محدودة، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، اخرجوا لحرب عدوكم ولا تخشوا الموت، فلكل أجل كتاب.

من لم يمت بالسيف مات بغيره ٠٠ تعددت الأسباب والموت واحد

يا أهل مصر .. إن الإنجليز يقولون إن مصر هى حصن البلاد العربية، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين، فهبوا للدفاع عن وطنكم، الذى هو حصن البلاد الإسلامية كلها،

وجاهدوا فى الله حق جهاده، لتحفظوا هذا الدين العظيم، وتدفعوا عدواً يريد أن يدخل بخيله ورجله فى بلد الله، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم، وقد استعان على أغراضه بالخديو الذى باع الأمة إرضاء للإنجليز».

وحاول الإنجليز القبض عليه بعد القبض على عرابى ورفاقه ونفيهم .. لكن النديم هرب فى البلاد التى أحبته واحتوته، فقد أرسل عرابى ورفاقه رسالة من التل الكبير إلى الخديوى توفيق يطلبون فيها العفو عنهم، ولكن طرأت على ذهنهم اقتراحات أخرى، ولكن الوفد الذى أرسلوه كان قد سافر إلى الأسكندرية لإعطاء الرسالة للخديوى، فأعطوا «الملحق» لعبد الله النديم ليعطيه للخديوى، وحين وصل النديم إلى كفر الدوار ومعه باقى الرسالة عرف أن الخديوى قبض على من ذهبوا إليه ورفض رسالة عرابى ورفاقه فهرب، وحاولت السلطات بكل الطرق إلقاء القبض عليه ولكن بلا فائدة، بل راحت تعلن مكافأة ضخمة لمن يلقى القبض عليه، لكن الناس أحبته وقدرته فاختبأ لديهم تسع سنوات فأصدر ضده حكما غيابياً بالنفى المؤبد إلى خارج مصر.

وتروى القصة فى كتاب «عبد الله النديم» .. قراءات وأبحاث «الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بأن أول استخفاء للنديم كان فى بولاق حيث ذهب إلى أحد أصدقائه واختبأ عنده عدة أيام وكان يخرج مرتدياً زعبوطاً وعمامة حمراوين ويربط عينه بمنديل ويدهن لحيته، ليعرف الناس أنه أحد مشايخ الطرق الصوفية، وبالفعل لم يتعرف عليه أحد ثم انتقل بعد ذلك مع خادمه. إلى قرى مديرية الغربية وكان يدخل كل بلد بزى مختلف ويتكلم لهجات مختلفة من المغرب إلى اليمن إلى النجدى، ولون لحيته كان يتغير دوماً من السوداء إلى البيضاء إلى الحمراء، واتخذ له عدة أسماء أخرى مثل الشيخ على المغربى، والشيخ محمد الفيومى.

واستخدم حيلة جيدة حين جعل صديقا فرنسيا له يشيع هروبه إلى «ليفورتو» بإيطاليا ونشر الخبر بجريدة الأهرام وصُدِّق الخبر، وقل اهتمام الحكومة به.

وقد ضبطه الجنود ذات مرة وقادوه إلى أحد رجال الضبط الجراكسة وهو مأمور أحد المراكز الذى جعل الجند يذهبون وقال له: لا داعى للتخفى .. أنت عبد الله النديم .. لقد عرفتك، وتعاطف معه وأعطاه نقوداً ورسم له خطة الهرب. ورغم تخفيه إلا أنه

كان على اتصال بأبيه وأخيه بعد ما شاع خبر هروبه خارج مصر، بل وقام بتزويج خادمه وكان قارئاً مهماً فى هذه الفترة وألف عشرين كتاباً وأصدر مجلة «الأستاذ» ونشر فيها فصلاً من كتابه «كن فيكون».

وفى نوفمبر عام ١٨٩١ ألقى القبض عليه بعد ٩ سنوات من هروبه وذلك فى قرية الجميزة حين عرفه عمدتها وخبأه عنده لكن كان هناك جندى فى القرية ويعمل جاسوساً اسمه حسن الفرارجى عرف بأمره فكتب إلى الداخلية وجاءوا ومعهم وكيل حكمدار الغربية وحوصرت القرية بالكامل فلم يستطع الهرب وسلم نفسه، ثم أرسلوه إلى نيابة طنطا وحقق معه وكيل النيابة قاسم أمين - نصير المرأة بعد ذلك - الذى اعتنى به وأمر بتنظيف حجرته فى السجن وأعطاه بنا ودخانا ونقودا، وبعد أن انتهى التحقيق عفا عنه الخديوى توفيق شريطة أن ينفى من مصر، فاختار النديم يافا وذهب إليها عام ١٨٩٢ .

وقد كتب إلى أحد أصدقائه قبل القبض عليه رسالة مطولة قال له فيها: «إن سألت عنى فأنا بخير وعافية، وحالة رائعة صافية، ولا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأقدار ولا أتألم من طول المدة، ووقع الشدة، لاعتقادى أن لكل شدة مدة، متى انتهت جفت الأوحال، وحسنت الحال، فترانى فكرى كليمى، وقلمى نديمى تارة اشتغل بكتابة فصول، فى علم الأصول، وحيناً اشتغل بنظم فرائض فى صورة قصائد، ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة، فى فنون مختلفة، وآونة أكتب فى التصرف والسلوك وسير الأخبار والملوك، وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق، ومرة أطوف فى الأكوان، على سفينة تاريخ الزمان. وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير...».

وقد وصف هزيمة الثورة العرابية قائلاً إلى عرابى:

«قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة، وزيادة الاستبصار فى الأحزاب والأنصار، وما علينا فى هزيمتنا بفعل الخائنين عار».

لقد بعت نفسك لله، لا للمظهر والجاه، وقام معك الأمراء والقادة، والعلماء

والسادة، وقام أخوك النديم ينادى بلسانك،ويترجم على جنانك فسرى صوتنا فى البلاد، وتنبه الناس من الرقاد، وتبعنا من الوطن أمشاج، وتواردت علينا زمر وأفواج، فكان لفيفنا العجيب، على هذا الترتيب:

مخلص أدرك ما قصدنا فقام يرصد ما رصدنا

ومتردد حائر مع النوازل دائر ومذبذب إن عظمت

اللأواء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

ومنافق ينقل عنا وإلينا ويحمل معنا وعلينا

وعدو ينسب إلينا البدعة وينصب لنا شرك الخدعة

وحين حدثت أزمة بين أبطال الثورة العرابية وزاد الخلاف كتب إليهم:

«إذا لم تكن عهودكم وثيقة، ورابطة جمعكم أنيقة

وعدتم إلى الديار، على التباعد والنفار، ساءت بكم الظنون

ومالت عنكم القلوب، وصرتم عرضة للدسائس

ومرجعاً لأهل الخسائس، وذكركم المؤرخون بالنقائص

وجردوكم من الفضل والخصائص، وأنكرت أوروبا دعوتكم الوطنية

ورماكم عدوكم متبجحاً بتهمة الهمجية

فارجعوا إلى الإخاء والحق

والتزموا فى المودة والصدق

ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر...».

وبعد وفاة الخديوى توفيق تولى ابنه عباس الذى عفا عن النديم فغادر إلى مصر عام ١٨٩٢ واشترط عليه عدم ممارسة السياسة .. ومرت الأيام وتعرف على مصطفى كامل الطالب المثقف الوطنى فاهتم به ووجهه ثم أصدر مجلة «الأستاذ»، ولكن جاء ترخيصها باسم أخيه عبد الفتاح وكانت اجتماعية ونافست عدة صحف وقتها مثل

«المقطم» التى هاجمته ثم كتب النديم فى السياسة وناصر الخديوى عباس ضد الإنجليز وهاجم اللورد كرومر المندوب البريطانى فنفاه إلى الإستانة، وهناك وجد جمال الدين الأفغانى، بل وعمل مفتشاً للمطبوعات العثمانية من قبل السلطان عبد الحميد الذى كان يحاول إرضاء الثائرين والمعارضين.. لكنهم كانوا يضعونه تحت المراقبة هو والأفغانى .. وأصيب بالسل هناك ومات وعمره ٥٤ عاماً فى ١٨٩٦ وقد ضاعت معظم مؤلفاته، ووصفه أحمد تيمور باشا بقوله: «كان شهى الحديث، حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المتحدث أنه لم يوجز، لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر، فرأيت رجلاً فى ذكاء إياس، وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ، أما شعره فكان أقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا».

مات الرجل الذى أسمته «التايمز» خطيب الشرق أما الديلى نيوز فقالت: إن النديم متعصب للدين ثورى .. مهيج .. يريد إحداث فتنة طائفية.

مات فقيراً مثلما عاش لأنه ابن بلد أو حسب قوله:

شرم برم حالى غلبان

أهل البنوك والأطيان

صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان

ما معاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان



الذين أضحكوا طوب الأرض

جحا .. فهلوى هذا الزمان..!!

هل كان جحا راويا للأحاديث النبوية؟!

من الأصل جحا المصرى

أم التركى أم الألمانى أم الصينى؟

❑ ❑ ❑

هل جحا شخصية حقيقية؟!

هل كان أحمق ومغفلاً وغبياً كما رأى العديد من الناس وكيف كانت علاقته بالحكام (المهدى الخليفة العباسى وأبو مسلم الخراسانى وهارون الرشيد وتيمور لنك) .. وهل جحا راوى الأحاديث النبوية هو نفسه جحا الساخر .. ومن الذى أخذ مِنْ مَنْ .. هل جحا التركى أم جحا العربى؟

أسئلة عديدة طافت فى ذهنى لكن ما أضحكنى أنى وجدت أن هناك جحا الصينى وجحا الألمانى .. وقد بحثت كثيراً عن تلاميذ جحا .. ولم أتوقع أن أجدهم بهذا القدر من الكثافة ومنهم عبد الله النديم وكامل الشناوى ومحمود السعدنى وعبد العزيز البشرى وعبد الحميد الديب وعبد الحميد قطامش؛ وغيرهم .. اعتبرهم كلهم - تتلمذوا على هذا الساخر الذى لم يحقق ساخر مثله شهرة فى تاريخ العالم كله حتى إننا نجد مترجمات عنه فى معظم دول العالم .. والباحث فى تاريخ جحا يكتشف أنه شخصية حقيقية عاشت بين الناس وسخرت منهم وسخروا منها لكنها كانت سخرية ممتلئة بالحكمة وتعلم فن الحياة .. وجحا ينتمى إلى قبيلة فزارة العربية حيث ولد فى العقد السادس من القرن الأول الهجرى وعاش فى الكوفة واسمه الحقيقى أبو الغصن دجين بن ثابت الفزارى وتوفى عام ١٦٠ هجرية ولكن كتاب نثر الدرر للآبى الذى توفى عام ٤٢٣ نجد قوله عن جحا: حكى الجاحظ أن اسمه نوح، وكنيته أبو الغصن، وأنه أربى على المائة، وفيه يقول عمر بن أبى ربيعة:

دلَّهتِ عقلى، وتَلَعَّبْتِ بى .·. حتى كأنى من جنونى جحا

ثم أدرك جحا أبا جعفر، ونزل الكوفة. ولكن للأسف جحا فى نظر الآبى ليس إلا واحداً من الحمقى والمغفلين، وقد كثر الحمقى والمجانين فى هذه الفترة التى يتحدث عنها الآبى وهى فترة التحول من الحكم الأموى إلى الحكم العباس وما مر بها من فتن وحروب حتى إن الآبى ذكر لجحا ٤٥ نادرة.

ومن هذه النوادر قصة لقاء جحا بأبى مسلم الخراسانى الذى كان قائداً عسكرياً له باع طويل فى القتال وقد قضى على الدولة الأموية وكان يهابه الجميع حيث يقول الآبى «لما قدم أبو مسلم العراق، قال ليقطين بن موسى: أحب أن أرى جحا، فتوجه يقطين إليه فدعاه وقال له: تهيأ حتى تدخل على أبى مسلم، وإياك أن تتعلق بشىء دون أن تستأذن فإنى أخشاه عليك، قال: نعم. فلما كان من الغد جلس أبو مسلم وهو فى صدر المجلس، ويقطين إلى جنبه، وليس معهما أحد، فسلم (جحا) ثم قال: يا يقطين أيكما أبو مسلم، فضحك أبو مسلم، ووضع يده على فمه، ولم يكن قبل ذلك ضاحكاً ثم أجازه».

وقد ارتبط تاريخ جحا بالحكام حيث ذكرت عديد من الكتاب والمؤلفين والمؤرخين أن أول لقاء بين تيمور لنك على بلاد الأناضول، وجاء بعلماء البلدة وسألهم: أعادل أنا أم ظالم؟ ولو قال أحدهم أنت عادل يذبحه على الفور، ولو قال له أنت ظالم أيضاً يذبحه.. فذهبوا إلى جحا وقالوا له لن ينقذنا من هذا الحاكم سواك .. وذهب جحا إلى قصر تيمور لنك فقال لهم أبلغوه أننى أستطيع أن أجيب على سؤاله .. وحضر أمامه فسأله أعادل أنا أم ظالم، فقال له جحا: أنت لست عادلاً ولا ظالماً، فالظالمون نحن وأنت سيف العدل الذى سلطه الواحد القهار على الظالمين، وسر كثيراً بهذا الجواب وأخذ تيمور لنك من جحا نديماً له.

ولكن يروى محمد فهمى عبد اللطيف فى مذكرات جحا قصة عجيبة بين تيمور لنك وجحا، فبعد أن حقق انتصاره وعاش ببلاد الروم ترك الفيلة التى كانت تتقدم جيشه تسرع فى أرض مملكته على هواها، وكانت بلدة جحا ضمن هذه المملكة فهبط إليها فيل كبير الحجم وأتلف زرع الأهالى وأكل رزقهم ولم يستطع أحد أن يمنعه خشية القتل، مما دعا الأهالى إلى اللجوء لجحا لأنهم يعلمون علاقته بتيمور لنك، فقال لهم جحا: إذا كنتم تريدون منى الذهاب إلى تيمور لنك فليذهب أربعة منكم معى، حتى نقف بين يدىّ السلطان صفاً واحداً؟ ويقول كل منا كلمة ثم يكملها الآخر، فيقول الأول: فيلكم يا مولانا السلطان، ثم يسكت، فيتلوه الثانى: نزل ببلدتنا منذ أمدٍ طويل، ويرد الثالث: وقد أفسد مزارعنا وأتلف أرزاقنا، ثم يقول الرابع: نرجو أن ترحمنا منه فتأمر

بنقله من بلدنا، ثم يدعو الخامس: أن يمد الله فى عمر مولانا السلطان وأن يديم عزه ونصره، فنرد جميعاً مُؤَمِّنين على الدعاء .. وقد سأل الأهالى جحا عن الحكمة فى ذلك فقال لهم: إننى أعرف أن سلطانكم أحمق، وليس هناك ما يرضى أولئك الملوك الجبارين مثل التذلل وإظهار الخضوع، فإذا ما وقفنا بين يديه جميعاً ورآنا من وجوه القوم فى رعيته دب فى نفسه دبيب الرحمة والعطف، ثم هو لا يستطيع أن يحاسب واحداً منا لأننا جميعاً سنشترك فى رفع المظلمة، وبهذا ننجو من غضبه وبطشه.

يكمل جحا: واستحسن القوم الفكرة ومدحونى بحصافة الرأى ورجاحة العقل، وقصدنا من فورنا السلطان، وبعد أن أبدينا مظاهر الخضوع والخشوع تكلم الأول فقال: فيلكم يا مولانا السلطان، قال السلطان غاضباً: ما باله..؟ فرد الثانى قائلاً: لقد نزل بلدتنا منذ أمد طويل. فقال السلطان: وما فى ذاك ..؟ وجاء دورى فى الكلام ونظر إلىّ السلطان، فرأيت عينيه تقدحان بالشر ووجهه يتميز من الغيظ فأسرعت قائلاً: أجل يا مولانا، إن فيلكم قد طال عليه الأمد فى بلدتنا وقد شرفنا بذلك، وهو على الرحب والسعة فى ضيافتنا، ولكنه قد اشتاق إلى فيلة تؤانسه، فنلتمس أمركم بإرسال فيلة إليه. فهدأت ثائرة السلطان فجأة، وانفرجت أساريره، ثم أمر بإرسال فيلة إلى الفيل وبِمنحى جبة وقاووقاً دلالة التكريم، وخرجت فأقبل علىّ أصحابى يلوموننى ويقولون: لقد كنا فى مصيبة فجئتنا باثنتين. قلت: يا قوم، هذا شأنكم، أما شأنى فأنا أدرى به، ومن يستطيع أيها الحمقى أن يقول للسلطان فيلكم..؟ وهل كان من الخير لى أن أتملق السلطان وأحظى بهذه الكسوة العظيمة، أو أقول الحق ويعلق رأسى على سور المدينة».

إذن كان جحا يبحث عن منجاة لنفسه من السلاطين وهو يدعى الحمق والجنون والغفلة لأجل أن يعيش حياته كما يريد، وهو يحس فى داخله أنه الأذكى والأكثر قدرة على الفهم لمحيط عصره وسلاطينه وكان يداهن الحكام مع أن هناك العديد من النوادر التى تثبت أن جحا كان الوقود الذى يشعل الثورات ضد ظلم الحكام وبطشهم بالناس، بل إن الدكتور محمد رجب النجار فى كتابه جحا العربى - وهو أفضل كتاب صدر عن جحا منذ رحيله وحتى الآن - يرى أن شخصية جحا ارتبطت من حيث الواقع التاريخى

بالعصور التى يشتد فيها الصراع بين قوميتين أو أكثر أو التى تتحول فيها نظم الحكم من دولة أخذت فى الأفول إلى دولة أخرى تستكمل مقومات السلطات والمكانة، حيث تبرز فى مثل هذه الظروف التناقضات فى النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية والمواقف النفسية.. وفى ضوء هذه المتغيرات، وما تفرزه من متناقضات وما تفرضه من معطيات جديدة ـ خاصة فى عصور الكبت السياسى والقهر العسكرى والقمع الفكرى – ينمو الباعث الآخر والأهم، على انتخاب الرمز الجحوى وهو محاولة الشعب التغلب على تلك التناقضات من ناحية أو مقاومة الانحداف والتسلط من ناحية أخرى، والحرص فى الوقت نفسه على عدم الذويان فى الظروف، ومن ثم لا غرو أن تتخذ هذه الشخصية موقفاً من اثنين:

الأول: عدم الاكتراث بالظاهر من الأمور والاعتصام بنزعة صوفية تجعل الفرد ومضة فى كون لا أول له ولا آخر، ولذلك غلبت نزعة عدم الاكتراث بالعادات والتقاليد المتناقضة على شخصية جحا.

الثانى: الاندفاع نحو المجون، باعتباره نزعه من نزعات التمرد على الواقع، والهرب منه بالاستعلاء عليه، وعدم الاكتراث بالقواعد المرعية فى السلوك الاجتماعى، فى محاولة للتغلب على التقاليد المقيدة لإرادة الإنسان، والمعوقة لتحول الحياة الطبيعية حسب وصف الدكتور عبد الحميد يونس.

ولكن جحا التركى أكثر ميلاً إلى السياسة من جحا العربى، وجحا التركى هو نصر الدين خوجه، وقد تعددت الروايات التاريخية بخصوصة فهناك من وفون هامر وغيرهم، لقصة أكسيليا شلبى أن تنتشر وتستمر بأوروبا إلى أن اعترف محمد توفيق – كاتب تركى. بهذه القصة فى كتاباته سنة ١٨٨٣ عن فكاهات نصر الدين فى كتابه «بوآدم» أى «هذا الرجل» ويعنى به نصر الدين خوجه، وهى الفكاهات التى ترجمت فيما بعد إلى الألمانية سنة ١٨٩٠م، حيث تجددت فى هذه القصة الحياة، وأصبحت منذ ذلك الوقت الرأى السائد فى أوروبا.

أما المجموعة الثانية فترى أن نصر الدين قد عاش فى القرن الثالث عشر وتعتمد فى رأيها على الأدلة التالية:

أولاً: القصيدة التى أوردها الشاعر لمعى (المتوفى حوالى سنة ١٥٣٢-١٥٣٣م) فى ديوان اللطائف والتى أكد فيها أن نصر الدين كان معاصراً لشاهياد حمزة الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى.

ثانياً: فى المخطوطات القديمة جاء ذكر الخوجة مقروناً بالسلطان علاء الدين، مما جعل قوبريلى زاده أستاذ الأدب التركى فى جامعة استانبول يميل إلى فكرة أنه كان معاصراً لعلاء الدين السلجوقى الذى عاش فى القرن الثالث عشر.

أما س. سامى بيك وكذلك ب. هورن فقد قررا أنه كان معاصراً للسلاجقة، بينما يؤكد الأخير - هورن - أنه كان فى عصر علاء الدين السلجوقى، أما قوبريلى زاده فقد عضد وجهة نظره بأدلة جديدة نوعاً ما، تتلخص فى:

١- أن النقش الموجود على مقبرة نصر الدين فى «آق شهر» يحمل تاريخ ٣٨٦هـ، وعلى افتراض أن الكتابة معكوسة - كما يقول - فإن هذا يدل على أن - الخوجة قد توفى فى سنة ٦٨٣ هـ أى سنة ١٢٨٤ - ١٢٨٥م.

٢- ذكر اسمه فى وقتين رسميين فى سنة ٦٥٥هـ أى (١٢٥٧م) ما يؤكد وقوف نصر الدين خوجه شاهداً أمام القاضى.

٣- ما ذكره حسن أفندى مفتى «سيورى حصار» السابق منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاماً فى «مجموع المعارف» عن نصر الدين، وقد اتفق ما قاله فيها عنه مع هذا الرأى .. حيث ذكر حسن أفندى أن نصر الدين ولد فى قرية «خورتو» بجوار سيوى حصار فى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٨٠-١٢٠٩م) وعاش فيها حيث نجح فى خلافة أبيه فى وظيفة الإمامة ثم انتقل فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧-١٢٣٩م) إلى مدينة (آق شهر) حيث توفى بها سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤-١٢٨٥م).

وعلى الرغم من أن هذه الأدلة ليست مقنعة تماماً إلا أنه لا يمكن إهمالها تماماً. وعلى كل حال لم يكن مما يثير العجب إزاء هذا التضارب فى الروايات والآراء أن نجد بعض الباحثين أمثال رينيه باسيه، وم. هارتمان وأ. فيسيلسكى كانوا يشكون فى تاريخ الخوجة، وفى وجوده نفسه وهذه الشكوك ترتبط - إلى حد ما - بأصول فكاهات نصر

الدين .. بل إن باسيه يرى أنه: «ليس من المستبعد أن تكون عامة الشعب فى تركيا – قد حرفوا اسما ذكر أنه عاش فى عصر هارون الرشيد، وهناك من أكد أنه عاش فى عصر خوارزم شاه علاء الدين طاليش فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى لكن المؤكد أن هناك الكثير من النوادر والدعابات الخاصة بنصر الدين خوجة يعود تاريخها إلى عصر الخلفاء.

ويقول محمد رجب النجار فى هذا الأمر: إن «دائرة المعارف الإسلامية تجمل الآراء التى توصل إليها الدارسون ولاسيما المستشرقون فى تاريخهم لهذه الشخصية واعتقادهم بوجودها وإن اختلفوا فى زمانها ومكانها، ويمكن أن نصف تلك الآراء فى مجموعتين:

المجموعة الأولى تضعه فى القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين أي زمن بيازيد الأول وتيمور وقرمنيد الثانى علاء الدين).

على حين تضعه المجموعة الأخرى: فى القرن الثالث عشر (فى زمن سلجوق علاء الدين).

ويبدو أن الرأى الأول قد استمد أدلته مما جاء فى قصص رحلات إكسيليا شلبى حيث ذكر على سبيل المثال قصة ذلك اللقاء بين تيمور والخوجة فى الحمامات حينما أعلن الخوجة عن استعداده لشراء قميص تيمور لنك فى مقابل أربعين فداناً – هى قيمة القميص فقط – أما تيمور نفسه فلا يساوى شيئاً (على الرغم من أننا نشارك كاتب مادة نصر الدين الشك فى حدوث هذه النادرة لاستحالة التلفظ بمثل هذا القول فى حضرة تيمور إلا إذا تقبلها الأخير من باب التفكه، إعجاباً منه بشخصية نصر الدين، وعلى كل حال فقد أتاح كانتيمير وديز (جحا) الذى يبدو غريباً عليهم إلى (خوجة)، وهذا الرأي ينادى به باسيه ويصر عليه).

إذن جحا العربى هو الأسبق وهوالأساس وهو الذى ألصقت أشياء من تأليفه بنصر الدين خوجه جحا الأتراك، أما جحا راوى الأحاديث النبوية وأحد التابعين، فالغريب أنه توفى فى نفس العام الذى مات فيه جحا عام ١٦٠ هـ حيث يقول ابن شاكر الكتبى

المتوفى عام ٧٦٤هـ: وفى سنة ١٦٠هـ «وفيها توفى دجين أبو الغصن بن ثابت اليربوعى البصرى المعروف بجحا، رأى أنس بن مالك، وروى عن أسلم مولى عمر بن الخطاب، وهشام بن عروة، وروى عنه ابن المبارك، ومسلم بن إبراهيم والأصمعى، وآخرين، قال النسائى: ليس بثقة. قال الشيرازى فى الألقاب: إنه جحا، والذى يقال فيه مكذوب عليه، وكان فتى ظريفاً، وله جيران مخنثون يمازحونه ويزيدون عليه، وقال ابن حبان: والدجين، يتوهم أحداث أصحابنا أنه جحا، وليس كذلك، ولكن وفاتهما فى سنة ستين ومائة، وأما جحا فاسمه نوح، قال الحافظ ابن عساكر: عاش أكثر من مائة سنة...».

يقول رجب النجار يبدو أن المتأخرين من العلماء قد وجدوا حرجاً فى نسبة نوادر الحمق إلى هذا «التابعى» جحا، فزعموا أنه غيره .. أو على أحسن الفروض هو نفسه.. والمتأمل لهذه الآراء يرجح أن جحا المحدث هو نفسه جحا صاحب النوادر فالكنية واللقب كلاهما متشابهان وسنة الوفاة واحدة، وكلاهما كَيِّسٌ فطن، وكلاهما له باع مشهور فى دنيا المزاح، وتذوق النوادر وإبداعها».

بل إن الشيخ الدميرى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ يؤكد أنه شخصية واحدة ويذكر حديثاً شريفاً رواه جحا .. إذن جحا الساخر هو نفسه جحا راوى الأحاديث النبوية.

أما جحا تيمور لنك هو الشيخ نصر الدين خوجة التركى وبلدته التى نزل بها الفيل هى (آق شهر) وله هنا قبر به كرامات تحدث عنه عباس محمود العقاد فى كتابه أنه من يمر أمام قبر جحا هذا ولا يضحك يصاب بمكروه، وإن كان جحا العربى أو التركى أو حتى الألمانى الذى كان يعيش فى العصور الوسطى أو جحا الصينى إلا أن كلهم يتميزون بالذكاء والحيلة على السلطان وادعاء الحمق ووضع المقالب فى الناس – ويتواجدون فى الحكايات دائماً مع زوجاتهم وأولادهم وحميرهم .. إذن فحمار جحا واحد وزوجته وابنه كذلك ويؤكد هذا أيضاً الدكتور عبد الحميد يونس بقوله: «لم يكن جحا مخبولاً أو ناقص العقل، ولكنه كان يتناول الأمور من أقرب الزوايا إلى الحق والواقع، فيبدو مناقضاً لصنيع الآخرين الذين لا يتصورون الحق قريباً، ويمدون أبصارهم وبصائرهم إلى بعيد، كما أنه كان صريحاً غاية الصراحة فى التعبير عن نفسه، لا يشغل باله بأن الإطار الاجتماعى كثيراً ما يفرض على الناس أن يسكتوا أو

يرمزوا، وهذه الصفة تنطبق على أمثاله، فهو يستسلم دائماً لرغباته فى لحظاتها، وهذه الفلسفة الخاصة به تجعله دائماً بريئاً من الخوف والكبت وتبرزه أقوى من غيره، ولعلها هى التى جعلت شخصيته أقرب ما تكون إلى من يسقط عنه التكليف الاجتماعى».

وينطبق هذا على جحا المصرى الذى صنعه الخيال الشعبى وأضاف إليه وترعرع أكثر فى القرى بين الفلاحين والبسطاء وصار أمثولة وأضحوكة وحكمة فى آنٍ واحد.

وهناك العديد من نوادر جحانا نحن ومنها أن جحانا كان قاضياً وجاءه رجل وقال له: هناك كلب بال على حائط فكيف نطهره، فقال له جحا: تهد الحائط وتبنيه سبع مرات، فقال الرجل: ولكنه الحائط الذى بينى وبينك. فقال جحا: أما هذا الحائط فقليل من الماء يطهره.

وقف فقير أمام مطعم كباب وكفتة وكان جائعاً فاشترى رغيفاً ووقف أمام المطعم وأكل الرغيف على رائحة شواء اللحم فرآه صاحب المطعم فأمسك به وطلب منه ثمن رائحة الشواء، ولم يكن مع الفقير شىء، فأخذه صاحب المطعم إلى القاضى جحا وقال له: يا سيدى القاضى، إن هذا الرجل أكل رغيفاً على رائحة شواء اللحم بمطعمى، ورفض أن يدفع لى ثمن رائحة الشواء. وفكر جحا ثم قال للرجل: كم قرشاً تطلب ثمناً لرائحة شوائك ..؟ فقال الشوّاء: أطلب خمسة قروش، فأخرج جحا خمسة قروش فضية، ورنها على رخامة أمامه ثم قال لصاحب المطعم: هل سمعت رنين النقود، فقال: نعم يا سيدى القاضى. فقال له جحا: خذ الرنين فهو ثمن رائحة شوائك.

وجحا هنا هو الفهلوى الذى يصلح لزماننا هذا والذى يستطيع بذكائه ودهائه أن يعيد الحق لأصحابه، فقد دخل لص دكان جزار وطلب شيئاً من اللحم، وبينما انشغل الجزار بتقطيع اللحم فتح اللص الدرج وأخذ منه نقودا من الفضة فأمسك به الجزار وأخذه إلى القاضى جحا وقص عليه القصة لكن اللص ادعى أن النقود له، وبعد تفكير أحضر جحا سلطانية بها ماء ساخن ووضع فيها النقود فظهر على وجه الماء دهن قليل، فعرف أنها للجزار فسلمها له وأمر بحبس اللص..

وخلاف القاضى هناك جحا اللص: سرق جحا حماراً، ومضى ليبيعه فى السوق، فسرق منه، فسأله أحدهم: بكم بعت الحمار، فقال: برأسماله.

أخذ جحا جوالاً ودخل بستاناً وأخذ يقطع جزراً ولفتاً وملأ الجوال، فإذا بصاحب البستان يمسك به ويقول له: من أتى بك إلى هنا وما الذى فى هذا الجوال؟

قال جحا: هبت ريح عاصفة فحملتنى حتى رمتنى فى هذا البستان. فقال له الرجل: هب أنى وافقتك على أن الريح رمتك هنا، فمن الذى قطع الجزر واللفت؟

فقال جحا: إن الريح لما رمتنى صارت تدحرجنى من جنب إلى جنب فكلما أمسكت جزرة أو لفتة طلعت فى يدى. فقال الرجل: ماشى .. موافق، إذن ما الذى عبأ اللفت والجزر فى الجوال، فقال جحا: والله يا أخى كنت أفكر فى ذلك حتى جئت أنت..!!

أغمى على رجل فى بلدة جحا فظن الناس أنه مات فغسلوه وكفنوه وحملوه على النعش وساروا به إلى المقابر، وفى الطريق أفاق الرجل فجلس فى النعش، وصرخ: أنا حى لم أمت خلصنى يا جحا، فقال جحا: عجباً أأصدقك وأكذب كل هؤلاء المشيعين؟!

كان جحا ينسى نفسه ويبالغ فى كلامه، فقال له أحد أصدقائه: إذا لاحظت فى كلامك مبالغة، فسأجعل العلامة بينى وبينك أن أقول «إحم» وذات يوم جلس جحا مع بعض الناس وبدأ يفشر عليهم فقال: لقد بنيت مسجداً فى البلد طوله ألف متر، فقال صديقه: «إحم» فسكت جحا، لكن أحدهم سأله: وكم عرضه..؟ فقال جحا: عرضه متر واحد، تعجب الجالسون، وقالوا له: لماذا جعلته ضيقاً هكذا؟ فنظر إلى صديقه وقال: وماذا نفعل..؟ الله يضيقها على من ضيقها علينا..

وهنا نادرة وجدتها قد حدثت مع عبد العزيز البشرى ولا أدرى إن كانت حدثت مع البشرى بالفعل أم أنه ادعاها أم أن أحداً ألصقها به، وقد ذكرناها فى حلقة عبد العزيز البشرى وتقول النادرة إن أحد الأميين جاءه خطاب باللغة الفارسية وصادف جحا فى الطريق فطلب منه أن يقرأه له ولما لم يكن جحا يجيد الفارسية قال للرجل: ليقرأه لك أحد غيرى ولكن الأمى أصر، فقال له جحا إن الخطاب مكتوب بالفارسية ولا أستطيع قراءته، فقال له الرجل: إذا كنت لا تعرف القراءة فلماذا تضع على رأسك هذه العمامة الكبيرة، وتلبس هذه الجبة وعامل فيها شيخ؟

غضب جحا وأعطاه العمامة والجبة وقال له: إذا كانت القراءة بالعمة والجبة فالبسهما واقرأ لنا سطرين منه!

ومن أروع طرائف جحا: «كان جحا ماشياً فى بادية، وكان جائعاً، فرأى أعرابياً ومعه طعام يشرع فى أكله، فتقدم إليه، وكان طامعاً أن يدعوه للأكل، ولكن الأعرابى قال له:

- من أين أقبلت يا ابن العم؟

- من الثنية.

- هل أتيت منها بخير؟

- سل عما بدا لك.

- كيف عِلْمُك بحينا؟

- أحسن العلم.

- هل لك علمٌ بكلبى نفاع؟

- حارس الحى لا يستطيع أحد أن يقربه من قوته وشدته.

- فكيف علمك بزوجتى أم عثمان؟

- بخ بخٍ. ومَن مثل أم عثمان؟ لا تدخل الباب إلا متبخترة بالثياب المعصفرات مثل الطاووس.

- وكيف ابنى عثمان؟

- إنه شبل الأسد، ويلعب مع الصبيان.

- وكيف جملنا السقاء؟

- إن سنامه ليخرج من الغبيط.

- وكيف دارنا الآن؟

- إنها لخصيبة الجناب، عامرة الفناء، كأنها دار النعمان.

– فقام الأعرابى عنه وانتحى ناحية يأكل طعامه وحده مطمئناً بما سمعه دون أن يدعو جحا للأكل معه، فمر كلب فصاح به الأعرابى وقال:

– ياه ابن عم، أين هذا الكلب من نفاع؟

– يا أسفى على نفاع، لقد مات فكثر السارق فى الحى بعد موته!

– وما سبب موته؟

– أكل من لحم الجمل السقاء فاغتص بعظمة منه فمات.

– إنا لله أو قد مات الجمل؟ فما أماته؟

– عثر بقبر أم عثمان فانكسرت رجله!

– ويل أمك، أماتت أم عثمان؟

– أى وعهد الله، سقطت الدار عليها!

– وهل هدمت الدار؟

– نعم، ونهبوا جميع ما فيها حتى الطوب والخشب!

– فرمى الأعرابى بطعامه ونثره، وأقبل ينتف لحيته، ويقول: إلى أين أذهب؟

– فرد جحا مسرعاً: إلى النار.

– وأقبل جحا يلتقط الطعام ويأكله، ويهزأ به ويضحك؟ وهو يقول: لا أرغم الله إلا أنف اللئام».

أيضاً: وقف جحا على قرية سمع عن أهلها أنهم بخلاء فأراد أن يجرب ذلك بنفسه، فذهب إلى أحدهم وطلب منه أن يسقيه، فأحضر له إناء فيه لبن، ولما شربه شكر للرجل صنيعه ثم قال له: سمعت يا أخى أنكم بخلاء ولكننى وجدتكم كرماء، وقد أحضرت لى بدلاً من الماء لبناً، فقال الرجل: لو لم يكنْ هذا اللبن سقط فيه فأر لما جئت به، فغضب جحا، وألقى الإناء على الأرض، فصاح الرجل: لا تكسر الإناء الذى تتبول فيه ابنتى..

ويحكى أنه طبخ طعاماً وجلس يأكل وزوجته ثم قال: ما أطيب هذا الطعام لولا الزحام. فقالت زوجته: أى زحام؟ إنما هو أنا وأنت؟ فقال: كنت أود أن أكون أنا والقدر لا غير!

بعد أن ماتت زوجة جحا تزوج امرأة أخرى مات عنها زوجها، فكانت كثيراً ما تذكر محاسن زوجها المتوفى، وكان هو يقابلها بالمثل، فيذكر محاسن زوجته المتوفاة ليغيظها ولكنه ضاق ذرعاً بذلك. وفى إحدى الليالى وهى نائمة دفعها برجله فسقطت على الأرض فغضبت وشكته لأبيها، فقال له جحا: أرجو أن تنصفنى، فنحن أربعة أشخاص ننام على سرير واحد، أنا والمرحومة زوجتى، وابنتك والمرحوم زوجها والسرير لا يسع أربعة أشخاص، لذلك تدحرجت ابنتك من فوقه، فما ذنبى أنا؟!

قال له أحد جيرانه: لقد سمعت فى داركم ضوضاء وجلبة، وخيل إلىّ أنه حدثت مشاجرة وصوت شىء يتدحرج على السلالم، فقال جحا: لقد وقع بينى وبين امرأتى نزاع وخصام، فلطمت جبتى فوقعت الجبة على الأرض، وتدحرجت على السلم، فأحدثت جلبة وضوضاء..؟ فقال جاره: ولكن هل تحدث الجبة كل هذه الضوضاء..؟ فقال جحا: يا أخى لا تتشدد فى الأمر، فقد كنت أنا فى داخل الجبة؟!

قيل لجحا: أتحب أن تموت امرأتك؟ فقال: لا، فقيل له: ولم؟ قال: أخاف أن أموت أنا من الفرح!

مرت بجحا - يوماً - جنازه ومعه ابنه، وفى الجنازة امرأة تبكى وتقول مخاطبة زوجها الميت: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء، فقال ابنه: يا أبى إلى بيتنا والله ذاهبون!

ضاع حماره، فجعل يبحث عنه ويقول: الحمد لله، فسألوه: ولماذا تقول ذلك؟ فقال: أحمد الله لأنى لم أكن راكباً الحمار وإلا كنت ضعت معه!

مر به رئيس الحرس فى منتصف الليل، وهو يدور فى الشارع كمن يبحث عن شىء فسأله: عم تبحث؟ فقال جحا: هرب منى نومى، وأنا أبحث عنه!

- كامل الشناوى ..

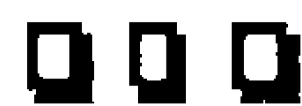
أضحك الدنيا .. وخانته حبيباته!!

- ابن أخيه يفجر المفاجآت فى حواره معنا:

- نجاة ليست بطلة «لا تكذبى»

- سعاد حسنى هى التى خانته

- ظل يخدع الأطباء فى شيخوخته كما خدعهم فى طفولته!



حضر جحا مائدة بعض الأغنياء، فقدم له جدياً مشوياً فجعل جحا يسرع فى الأكل منه، فقال له صاحب الوليمة - وكان لئيماً - أراك تأكل منه أكل انتقام وكأن أمه نطحتك، فقال جحا وأراك تشفق عليه وكأن أمه أرضعتك!

جاء إلى بلدة جحا عالم كبير وسأل أهل البلدة: من أعلم العلماء عندكم؟

فقالوا له: جحا ودلوه عليه؟ فلما جلس أمامه قال له: عندى أربعون سؤالاً فهل يمكنك أن تجيبنى عنها كلها فى جواب واحد؟ فقال جحا: نعم هات أسئلتك فسرد العالم أسئلته الأربعين. فقال له جحا: وهل تريد جواباً واحداً عنها؟

فقال العالم: نعم، هذا شرطى الأساسى، فقال جحا: الأمر سهل، أنا لا أدرى بها كلها!

ونختم نوادر جحا بهذه النادرة :

ادعى جحا أنه يفهم لغة الطيور، فاصطحبه الملك إلى الصيد، وفى الطريق شاهد الملك بومة تنعق بين الخرائب، فسأل جحا متهكماً: هل تعرف ماذا تقول البومة؟ قال جحا بثبات: نعم يا مولاى .. تقول: إذا استمر الملك فى ظلمه للرعية، فسوف يجلس إلى جوارى بلا عرش!!

ما بين دمعة وابتسامة .. وليال ساهرة وخوف دائم من المجهول كانت تمضى حياة الساحر الكبير كامل الشناوى الرجل الذى أضحك طوب الأرض من مقالبه ونكاته وقفشاته حتى إن جمال عبد الناصر كان يبدأ يومه بتقرير نكت كامل الشناوى الذى يكتبه الأمن رغم أن كامل هو أول صحفى يجرى حديثاً مع الرئيس عبد الناصر بعد توليه الحكم، تمضي أيامه حزينة تولد الحب وتولد الأنين .. فالحب هو سر حزنه .. والحزن هو سر حبه .. علاقة تحكم أكثر خلق الله سخرية مصطفى كامل الشناوى .. الذى ظل يعانى من القلق الدائم والحب الدائم والضحك الدائم.

يحاول الحزن أن يهزمه فيرفع يديه ويشرع جسده الثقيل - ١١٧ كيلو - فى مواجهة

هذا الحـزن لكنه لا يستطيع حين يجد نفسه بمفـرده، لذا كـان يصـر على البقـاء بين الناس.

تلهب الكآبة حياته ببساطها فيتحول إلى حائر كبير، يدفع ثمن الحياة من كل شىء يمتلكه «ما من ابتسامة ارتسمت على شفتى إلا دفعت ثمنها مؤخراً دمعاً وأنيناً».

كان يعتقد أن حب المرأة سيمنحه الثقة بالنفس والطمأنينة والراحة، فإذا به يجد التعاسة لا تجد بيتاً لتستقر فيه مثل الحب إن الإنسان الذى يكره يبدو هادئاً مطمئناً صحيحاً معافاً من الأمراض والأسقام والتبعات .. بينما الإنسان الذى يحب ولا يكره يبدو قلقاً حائراً مريضاً، مثقل الرأس بالهموم والأفكار .. فلماذا فضلنا الحب وقدسناه، لماذا لم نكره حتى نستطيع أن نحيا .. لقد أهبت بأخى فى الإنسانية أن يكره وقلت له: فتكلم وتألم وتعلم كيف تكره. فلعله يتعلم .. حتى لا يعانى ما عانيت أما أنا فلم أتعلم وأكبر الظن أنى لن أتعلم».

خمسة وخمسون عاماً عاشها كامل الشناوى بين العذاب والحب والعطف على الناس وتقديم المواهب الجديدة ودفعها إلى الأمام بل والدفع إليها بالأكل والشراب والمواصلات وتقديمها إلى مشاهير المجتمع حتى إن محمود السعدنى قال لى ذات يوم «كامل بك هو الذى عرفنى على عبد الوهاب وعلى مشاهير المجتمع، وكان يقول عنى فى التعريف بى الأستاذ والصحفى الكبير رغم أنى كنت شاباً صغيرا وكنت أصاب بالدهشة من تعريفه لى بهذه الطريقة».

ولم ينس كامل لحظة واحدة من طفولته وشبابه، منذ ولد فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٠ فى قرية نوسا البحر مركز أجا محافظة الدقهلية وهى الوطن الأصلى للوالدة حيث جاءوا لقضاء الإجازة فجاء كامل إلى الحياة لأب يعمل نائباً للمحكمة الشرعية العليا، فى بيئة دينية حيث كان عمه محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الأسبق، وأخوه الشيخ المعتز بالله من علماء الأزهر.

وكان كامل سميناً لدرجة أن والده ووالدته كانوا يخفونه عن عيون الجيران الذين جاءوا لشرب «المغات» خوفاً على ابنهم من الحسد .. كما كان بكرى والدته حيث كان لوالده أولاد من زوجته السابقة المتوفاة.

وكان كامل يتعلم فى البيت، وجاءوا إلى القاهرة وعمره نحو ١٥ سنة فألحقه أبوه

بالأزهر وظل به خمس سنوات.

والمرة الأولى التى شاهده فيها محمد التابعى - وكان ابن قريته واحد أقاربه - كانت فى إجازه ذهب والده لقضائها فى قرية نوسا البحر .. يقول التابعى «أول مرة رأيته فيها كان فى الساحة الواسعة والواقعة أمام منزل خالتى رحمها الله وكان زوجها عم والدة كامل الشناوى رحمهما الله .. وكان كامل يرتدى يومئذ جلباباً وكان بادىء الشقاوة يجرى وراء أطفال يلعبون معه ويوقعهم على الأرض ويضربهم.

وناديته - وكنت أكبر سناً منه بنحو ثمانى سنوات - ناديته فأقبل على بدون تردد وسألنى: إنت اسمك كذا.

- قلت له: نعم

- قال: عاوز إيه

- قلت: لماذا تضرب أصدقاءك الأطفال؟!

- قال: كيفى كدة!

وسكت أنا .. وكأنما أدرك هو أن رده علىّ غير مقنع فقال بعد لحظات:

- باضربهم علشان بيعاكسونى ويقولوا لى ياتخين!»

ولعل إحساس كامل الشناوى بأنه تخين وغير وسيم ظل معه لفترة طويلة من حياته حتى استطاع أن يعوض هذا بالاقتراب من الجميلات وأثرهن بحبه وتحقيق مجد صحفى وشهرة ومكانة عالية نادراً ما يرقى إليها أحد.

وعاد الشيخ سيد الشناوى وأسرته إلى القاهرة و إلى أحد أكثر أحيائها روحانية - السيدة زينب - واستقروا هناك .. وكان له أخ غير شقيق أكبر منه وهو المعتز بالله الشناوى تخرج محامياً فكتبوا له يوم التخرج على لافتة ضخمة: «المعتز بالله الشناوى المحامى أمام المحاكم الشرعية» ولما ترك الجميع اللافتة لتجف تسلل إليها كامل الشناوى وكشط كلمة «أمام» وكتب بدلاً منها «وراء» وظلت اللافتة عدة أيام حتى اكتشفها المعتز فاشتكى لأبيه، ففسر كامل الأمر بأنهم فعلاً يسكنون خلف المحكمة الشرعية، وزعم أن هذا هو المعنى الذى يقصده ونجا من العقاب.

ورغم حبكه للمقالب ضد إخوته إلا أنه كان حزيناً من داخله بسبب ضخامة جسده

«كنت فى طفولتى عندما أمشى فى حى السيدة زينب يلتف حولى العيال ويزفوننى: «التخين أهو .. التخين أهو»

وكنت دائماً: أتجنب الزحام .. عندما أفكر فى شراء أى شىء، كنت أختار الدكان الذى لا يشترى منه أحد وأشترى منه .. وكان لى فى طفولتى أصدقاء منهم فتحى رمضان وأحمد حسين وشرير الشاشة محمود المليجى».

حفظ الفتى القرآن كاملاً والتهم مكتبة أبيه التى تعج بكتب الدين ثم مكتبة عمه شيخ الأزهر الأسبق .. كان يبحث عن شىء يأخذه من عالم الصغار ويميزه عنهم.

ولم يستمر كامل فى الدراسة الأزهرية .. بل ولم ينتظم فيها بل انتظم فى دار الكتب لدراسة الكتب التى تشبع رغبته هو لا المفروضة عليه فدرس الأدب العربى والتاريخ وقرأ عشرات من كتب الفلسفة القديمة والحديثة والإسلامية وعلم النفس. ومن الطبيعى إزاء هذا أن يتمرد على تعليمه الدينى وذهب لتلقى دروساً فى اللغة الفرنسية استعداداً للسفر إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك، وحدثت ظروف لم تحقق رغبته.

وكان لابد لقلب هذا الفتى الرقيق أن يحقق المعجزة فقد هضم دواوين الشعر القديمة وأحب أبا العلاء المعرى بشكل لازمه طوال حياته .. ولعل سفره إلى فرنسا كان وراء هذا الحب فقد ذهب إلى مدرس فرنساوى ليتعلم على يديه دروس اللغة الفرنسية، ووقع كامل فى غرام ابنة أخت المدرس، وكانت تعيش فى ضاحية المعادى، وهى التى عرفته بالحياة وبجمالها وروعتها «ووجدت نفسى أنا الأزهرى الذى نشأ فى بيئة دينية أعيش بين أسرة عصرية تتعامل بعبارات ومفاهيم مختلفة .. كنت أعرف أن الرجل عادة إذا خلا بالمرأة فلابد أن يكون ثالثهما الشيطان .. لكننى بحفظ الله خلوت بمعبودتى ساكنة المعادى مراراً فلم أر فيها شيطاناً .. إنما لوحة رائعة أتذوق جمالها وأصونها وأحفظها .. وقد استطاعت هذه الفتاة أن تحولنى من شيخ إلى فتى عصرى (سبور) خلع عن قلبه العمامة كما عن رأسه».

حولته إلى عاشق كبير يجلس ساعات يتأمل الشمس أثناء الشروق متتبعاً أشعتها المرسلة على الناس والأرض والحياة.

ومرت الأيام وانتهت هذه القصة الجميلة لأنه كان لايزال فى بداية حياته ولا يعمل، ولكنه وجد نفسه الرقيقة تنساب شعراً .. ولكن لم يصدق زملاؤه فى الحى أنه شاعراً.. بل قالوا إن هذا الشعر يسرقه من شعراء كبار.

ولكن عديدين من المشرفين على الصفحات الأدبية لم يستسيغوا شعره، ويروى كامل أن المشرف على الصحيفة الأدبية بالأهرام كان ممن يطربون للألفاظ العربية المتينة مثل كجلمود صخر حطه السيل من عل .. ولم يكن يستسيغ المعانى الجديدة، ولما رفض المشرف على الصفحة الأدبية نشر شعره حبك له كامل - كعادته - مقلباً وكتب له قصيدة تقول كلماتها:

سلاماً صباحاً لا يعم ولا يجرى ❖❖❖ ولا ألمّ بها نفسى ولا تدرى

ووقع كامل القصيدة باسم أشهر الشعراء فى وقتها ونشر صاحبنا القصيدة وكانت فضيحة مدوية.

وفى عام ١٩٣٠ فوجئ بنشر قصيدة له فى مكان بارز من صحيفة «البلاغ» حسب رواية يوسف الشريف - ولم تسعه الدنيا فرحاً ومرحاً وثقة بالنفس، لقد نال الشهادة الصحفية على شاعريته، وذهب لمقابلة الأستاذ إبراهيم المصرى المشرف على الملحق الأدبى للبلاغ وقدم له نفسه وشكره، وإذا به يستقبله بالحفاوة والتقدير ويطلب له كوباً من الشاى، وقال له: شوقى بك أمير الشعراء كان فى زيارتى بالأمس، وأبلغنى أنه قرأ قصيدتك وأعجب بها كثيراً وطلب منى أن أعرفه بصاحبها، ولم أكن أعرفك أو أعرف عنوانك.

خشى كامل رهبة اللقاء فاصطحب معه الشاعر محمد الأسمر الذى كان يعرف كامل وكان صديقاً لشوقى إلى مسرح الأزبكية فى اليوم التالى حيث كانت تعرض مسرحيته «مجنون ليلى» هناك، والتقى بزكى طليمات الذى كان يعرف كامل منذ عام ١٩٢٥ حين كون كامل وأصدقاؤه جمعية المسرح وقدموا مسرحية على مسرح «بزنتانيا» وحضر زكى طليمات المسرحية بدعوة منهم .. وقام كامل بدور القاضى فى المسرحية بعد أن تغيب الممثل الذى يلعب دور القاضى.

ولما تعرف كامل على شوقى قال له شوقى: عندما قرأت قصيدتك اعتقدت أنك شاعر نحل العشق جسده، ولكنك ما شاء الله ضخم جداً فى حجم الفيل وارتاح شوقى كثيراً لكامل فجعله يحضر صالونه الأدبى فى كرمة ابن هانئ.

فى ذلك الوقت جمع كامل عدة أصدقاء حوله ومنهم عبد الحميد الديب والشيخ محمد الترزى وفتحى رضوان ويوسف حلمى ورياض السنباطى ومحمود الشريف ومحمد على غريب وحافظ محمود ومحمود المليجى.

أما بداياته مع صاحبة الجلالة فقد جاءت عن طريق الشعر بعد أن كتب قصيدة وطنية حين انضم إلى الحزب الوطنى حباً فى الزعيم مصطفى كامل - الذى سماه أبوه على اسمه - وذهب بالقصيدة إلى جريدة كوكب الشرق والتقى بصاحبها أحمد حافظ عوض الذى أعجبته القصيدة فأمر بنشرها .. وكان كامل فى الثامنة عشرة من عمره فسأله حافظ عوض عن عمله وكان ذلك عام ١٩٣٢ وكان كامل مفصولاً بسبب انتمائه إلى الحزب الوطنى حيث كانت جميع الأحزاب وقتئذ ضد حكومة إسماعيل صدقى وفى نفس اليوم دخل كامل غرفة مجاورة لصاحب الجريدة ليعمل مصححاً مقابل عشرة جنيهات فى الشهر .. وأخذ يصحح بروفات الجريدة.

ومن خلال «كوكب الشرق» كون علاقات بقمم المجتمع ومشاهير السياسة والفن والحياة، فمثلاً «صادق محمد محمود» باشا زعيم الدستوريين ومكرم عبيد باشا وتعرف إلى أنطون الجميل وأحمد الصاوى محمد وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ومحمد عبد الوهاب .. كان ذكياً لماحاً .. قادراً على جمع الناس حوله بحديثه العذب وقدرته على لفت الأنظار والآذان .. وكان الظرف وخفة الدم وصياغة النكتة وإلقاؤها هى السر فى جذب هؤلاء .. بل وكانت لديه مقدرة خارقة على تقليد الأشخاص والأصوات بشكل رهيب ورائع .. وكان إيمانه بالنكتة قوياً لدرجة أنه يفلسفها حيث يقول عنها: «النكتة فى أصلها تقوم على المفارقة، وهى فى الغالب إلهام يولده ذكاء قائلها وغباء الذى تقال فيه وأحياناً تصدر النكتة عن غبى بغير قصد بالطبع..

بل ويقول: من لوازم النكتة الأساسية البديهة الحاضرة والثقافة العامة وهذه الثقافة قد تجدها بخصوبة فى الطبقة غير المتعلمة التى ساقت إليها ظروف حياتها فيضاً من تجارب الدنيا .. وقد كان هناك كثيرون من الأميين فى العصر الماضى يقولون النكتة على مستوى باهر .. والمثل المعلم دبشة الجزار الذى قفش أم كلثوم ذات مرة، وكان يسمعها فى إحدى الحفلات وكوكب الشرق تغنى على التخت ومن خلفها يجلس والدها وقد نام فى «تعسيلة» وهزت أم كلثوم المعلم دبشة بآهه من آهاتها يا وأراد المعلم دبشة أن يستعيدها، فصرخ: هو الله .. تانى وحياة أبوكى فى نومته.

ومرة أخرى ذهب المعلم دبشة لزيارة إحدى سيدات المجتمع، وكن يعجبن به وبخفة دمه، ووجد عندها قفصاً من الرمان .. فسألها «منفلوطى الرمان ده؟ فأجابت: أيوه منفلوطى .. أفرط لك شوية يا دبشة، ولم يفت دبشة القفشة، فقال: آه وحياتك فرطى لى .. فى عرضك..

وفى الحقيقة لم يلجأ كامل للنكتة ليكون مهرج الملك أو لقضاء وقت ممتع وخلاص وليس أدل من ذلك قوله بأن النكتة تعبير قوى عن المشاعر وهى أقوى من الكلمة الصريحة، لأنها تحمى صاحبها من المسؤلية. وفى عهود الظلم والاضطهاد والغزو والاحتلال كانت النكتة تعبر عن سخط الشعب وكانت وحدها تستطيع أن تصل إلى آذان الظالمين والمحتلين دون أن تصيب أصحابها بالمسؤلية.. إن النكتة أشبه بالموسيقى، وقد ظلت الموسيقى هى اللغة الوحيدة التى عبر بها الروس عن ثورتهم المكبوتة فى عهود القياصرة، دون أن تتعرض للرقابة، والشعب لا يهرج بالنكتة.. إن غرامه بها إنما يدل على أنه اختار سلام الأذكياء يقاوم به كل ما قد يعترض حياته من ألوان الاضطهاد، وليسخر من مضطهديه».

ورغم أن كامل لم يدرس الصحافة ولا كانت فى باله إلا أنه ضرب أروع الأمثلة للصحفى الذى يستطيع أن يكون له مبادئ يقدسها ولا يحيد عنها مهما كان ما فى الجريدة التى كان يعمل فيها حينما سارع أصحابها بالتهليل لمعاهدة صدقى – بيفن، وأيدت محاولة إسماعيل صدقى فرض المعاهدة على مصر، فانبرى كامل الشناوى معارضاً لهذه المعاهدة داعياً الشعب لرفضها على صفحات جريدتهم وقد نجح وكتب مقاله الشهير «ألعنها .. ولا أوقعها».

وهنا كان على الشيخ كامل أن يغير زيه الأزهرى ويتجه إلى لبس البدل وأن يرتدى ملابسه حسب الموضة.

وفى «كوكب الشرق» اقترب كامل الشناوى من الدكتور طه حسين الذين عين مديراً للتحرير بها بعد عام من عمل كامل بالجريدة وقرب كاملا منه وأحب فيه خفة دمه ونشرت لكامل بعدها المقالات الساخرة بأسماء مستعارة فى ذلك الوقت.

ولأن «وقوف الماء يفسده» فقد اختلف الدكتور طه حسين مع أحمد حافظ عوض صاحب كوكب الشرق فتركها ليصدر جريدة «الوادى» فأخذ كاملا معه ودأبت «الوادى»

على مهاجمة إسماعيل صدقى وحكومته، وأخذت الكثير من جهد ومال الدكتور طه حسين ولما نفد المال أغلقت الجريدة فانضم كامل إلى جريدة روزاليوسف اليومية والمجلة الأسبوعية حيث دعت السيدة فاطمة اليوسف العقاد للكتابة فى مجلتها ككاتب أول فاشترط وجود كامل الشناوى معه، وفرح كامل كثيراً بهذا النجاح، فها هو العقاد «الجبل» يشترط على روزاليوسف أن يعمل معه هذا الصحفى الصغير فى مجلتها فأفنى الكثير من جهده فى العمل فيها .. وكان محمود عزمى - الرائد - رئيساً لتحرير جريدة **روزاليوسف اليومية** وكان لكامل مقال يومى يعبر فيه عن رأيه فى سياسة البلاد وحققت **المجلة نجاحاً كبيراً** لكنها بدأت تعارض سياسة النحاس باشا بعنف .. وهنا أخرج الوفد بياناً أعلن فيه أنه لا علاقة للجريدة بالحزب وأنها لا تعبر عن رأيه، فهبط توزيعها وأغلقت جريدة **روزاليوسف اليومية** فاستدعى أنطون الجميل كامل للعمل فى «الأهرام» حيث عمل مندوباً للأهرام فى البرلمان ونشر كامل فى الأهرام عدة أحاديث صحفية أثارت ضجة وقتها منها حديثه مع أحمد لطفى السيد الذى قال فيه لطفى السيد إنه فى الساعات الأخيرة من حياته سوف يزرع شجرة.

وبعد ذلك انتقل للعمل مع مصطفى أمين حين عين مصطفى رئيساً لتحرير آخر ساعة عام ١٩٣٨ ..

وحين رأس مصطفى أمين مجلة «الاثنين». فى عام ١٩٤٢ جعل كامل الشناوى يكتب عامودا أسبوعيا هو «سمعتهم يقولون» وفى عام ١٩٤٤ عين كامل رئيساً لتحرير آخر ساعة .. وفى عام ١٩٤٩ تم تعيينه رئيساً لتحرير الجريدة المسائية الصادرة عن حزب الوفد، ولما أغلقت عاد للعمل بالأهرام رئيساً لقسم الأخبار ثم تركها عام ١٩٥٢ وعمل رئيساً لتحرير جريدة الجمهورية، وفى ديسمبر عام ١٩٦٢ عين رئيساً لتحرير جريدة الأخبار وظل بها حتى رحيله.

ورغم تفرد موهبته الشعرية على موهبته الصحفية إلا أنه كان كاتباً له مكانته وله قراؤه، وكانت له خبطات صحفية تهز الوسط السياسى، وكانت أحاديثه الصحفية والسياسية هى علامات من الموقف قبل الثورة كما أن الرئيس جمال عبد الناصر استجاب لمطلبه وخصه بأول حديث له فى الصحافة العربية والأجنبية على مدى أربع ساعات وكان الحوار شاملاً تحدث فيه الزعيم الراحل عن كل شىء من الاتحاد القومى إلى الوضع الاجتماعى بمصر والمتقلين السياسيين.

لقد عايش عصر الملك فاروق واقترب من الملك .. وكان الملك يعرف كامل الشناوى ابن جيل ثورة ١٩ الذى أحب سعد وشوقى وحافظ، بل إن الملك أمر بأن يرشح كامل نفسه فى مجلس النواب فى دائرة «الزعفران»، التى تتبع أوقاف الخاصة الملكية، وحقق كامل الشناوى نجاحاً ساحقاً فيها ووقع عليه الاختيار مع عشرين صحفياً للحصول على رتبة البكوية .. لكنه لا يشترى بمال أو ببكوية .. فخلال أزمة الرأى العام مع القصر الملكى عام ١٩٥٠ بسبب تشريعات الصحافة التى حاول الملك تمريرها تصدى كامل للاعتداء على حرية الصحافة والرأي .. حيث تقدم وقتها أحد النواب بطلب لمنع نشر أنباء القصر الملكى وتقييد حرية الصحافة فقاد كامل حملة صحفية شرسة انتصرت فيها الحرية فى النهاية.

وكان دوماً يردد «أن الصحفى ليس من يثير الرأى العام، ولكن الصحفى هو من يستطيع خلق رأي عام لفكرة أو مذهب أو اتجاه».

وقدم كامل الشناوى عدة مواهب صارت نجوماً لامعة مثل صلاح حافظ ومحمود السعدنى وكمال عبد الحليم وفتحى غانم ويوسف إدريس وغيرهم. ولم يتوان عن مساعدة أحد ويذكر يوسف الشريف: «بالطبع هناك كثير من الكتاب والصحفيين يتعهدون بعض المواهب فى وقت أو آخر .. وتلك سنة الحياة، لكن كامل الشناوى كان مختلفاً عن الجميع فى فهم معنى «رعاية المواهب» .. كان يفهم هذه الرعاية فهماً علمياً عميقاً خالصاً.

الأديب الناشئ مثلاً يحتاج إلى كتب إذن فليمنحه عشرات الكتب هدية لا ترد.

ثيابه ليست كما يجب ، يصحبه إذن إلى الترزى، ويكسوه كما يجب.

ليس له مسكن .. تخصص له غرفة فى بيته يعيش فيها إلى أن يجد له مسكناً.

لا أحد ينشر إنتاجه، ينشره كامل نفسه وإذا رفضت الصحيفة أن تدفع دفع هو من جيبه وأخفى السر عن الأديب الناشئ.

وهذا ما حدث لصلاح حافظ فى أول لقاء له مع كامل الشناوى لما أعجب بالقصة التى قدمها له، وأمر بنشرها فى صفحة كاملة من «الجريدة المسائية» على حساب صفحة الأدب، ودفع له الأجر من جيبه الخاص وجعله يعتقد أنها من خزينة الجريدة.. وكان موقف كامل منه أنه صاحب موهبة، ولا يهم بعد ذلك اختلافهما الفكرى أو الموقف السياسى المتباين، وكان حال صلاح مع كامل الشناوى هو حال الشاعر اليسارى

جمال عبد الحليم الذى طالب بعض أعضاء مجلس الشيوخ بإعدامه بعد صدور ديوانه «إصرار» .. اشترى مئة نسخة من الديوان وسجل قصائده بصوته على خلفية موسيقية لبيتهوفن فكان يدير جهاز التسجيل كلما دخل الزوار إلى مكتبه، فيسمعونها وكانوا يعجبون بالقصائد ويمتدحونها ويعتقدون أنها لكامل الشناوى .. فإذا به يفاجئهم باسم الشاعر المغمور ويوزع عليهم نسخاً من ديوانه، ويظل يردد أشعاره واسمه فى كل مكان يذهب إليه وفى كل سهرة من سهراته .. حتى ينشر اسمه ويشق له طريقاً إلى الشهرة.

هذا الفنان العظيم اتهموه بالحصول على مصاريف سرية قبل الثورة وكان شريف اليد عفيف لم يمد يده إلى أحد وكتب مقاله الشهير «حاسبونى .. وحاسبوهم» وتوجه لوزير العدل ولم يصمت حتى استطاع أن يحصل على حقوقه كاملة وحتى ثبتت براءته ولعل منحه رئاسة تحرير جريدة الثورة - الجمهورية - ولقاء الرئيس خير دليل على براءته .. لقد كان همه الشعب وكيف يعيش ويحقق آماله وانتصاراته .. كان يبحث دوماً عن الحرية مؤمناً بها إلى أقصى حد.

ورغم عشقه لعبد الناصر وحبه لثورة يوليو، ورغم قوله فى عبد الناصر أثناء إعادة انتخابه رئيساً للجمهورية «أقسم بها .. أقسم لها .. يا ضوءها وظلها، أقسم بمصر أنها .. قد أقسمت بك كلها» إلا أنه لزم بيته وهو صاحب الليالى الساهرة حتى الصباح، لأن الرئيس عبد الناصر روى فى أحد اجتماعات رؤساء تحرير الصحف المصرية بعضاً مما وصل أسماعه عن تلك الجلسات وسخريات ونكات كامل التى يتندر فيها من أوضاع لا تروقه والتى كانت تنتشر فى الصباح بين أوساط الصحفيين والأدباء والفنانين أسرع من بعض الصحف السيارة.

وكان لعبد الناصر جهاز مخابرات قوى بزغ فيه صلاح نصر لدرجة أنه كان يرصد النكات التى أطلقها كامل الشناوى وغيره من رواد كافيتريا الهيلتون.

وكان كامل الشناوى هو مصدر النكت .. بل كانت هناك نكت عديدة تنسب إليه هو ليس قائلها .. وعرف كامل أن عبد الناصر كان يبدأ برنامجه اليومى بقراءة تقرير «النكت» .. ولم تكن النكات تروى كما هى أو كما قيلت ولكن كان يضاف إليها مبالغات لم تحدث.

وجلس كامل فى بيته وهو الذى توسط لأحمد رشدى صالح ليخرج من السجن بعد ثلاثة أيام من اعتقاله وساعد الكثيرين .. كامل الشناوى صاحب النشيد الإذاعى

الشهير «كنت فى صمتك مرغم .. كنت فى حبك مكره .. فتكلم .. وتألم .. وتعلم كيف تكره» الذى شدت به أم كلثوم والتى غنت له أيضاً «أنا الشعب لا أعرف المستحيل، ولا أرتضى بالخلود بديلاً».

لكن هناك من أحس بالأمر وذهب إليه يخبره بأن الرئيس ناصر يبلغه تحياته ليعرف كامل أن لاحظر على سهراته فيعود إليها مرة أخرى.

أما عن الحب فى حياة كامل الشناوى فلنجعل مدخلنا كلمات مصطفى أمين عنه « ... برغم بدانته سريع التنقل، وخصوصاً فى حبه وهواه».

وقلبه مثل برامج السينما التى تتغير كل أسبوع! وكل رواية تعرض على شاشة قلبه هى «تحفة الموسم» وهى «آخر صيحة» وهى «أقوى ما عرض حتى الآن» فإذا انتهى عرض الفيلم ارتدى نفس الثوب وتحلى بنفس الأوسمة والنياشين! وفى الفترة التى يحب فيها كامل الشناوى يصف المحبوبة بكل الأوصاف الحلوة والنعوت الجميلة. وهكذا نرى أن قلب كامل الشناوى مثل جمهوريات أمريكا الجنوبية، مليئة بالانقلابات والثورات والتغيرات والتبديلات!».

أحب كامل فتاة تسكن المعادى ثم أحب ابنة أخت محمد التابعى، وتقدم لخطبتها فأبرق أهلها لمحمد التابعى يسألونه الرأي، فأبرق لهم بالرفض وصدم كامل فى صديقه الكاتب الشهير .. ولما عادوا وجمعتهما عشة التابعى فى مصيف رأس البر ذات عام وأحس التابعى بأن كامل يريد أن يستفسر عن سر رفضه فقال له التابعى: أنت يا كامل تسهر طوال الليل ولا تعود إلا فى الصباح .. وهى فتاة عمرها ١٨ عاماً فماذا ستفعل فى وحدتها ومللها .. إنها تحتاج لبيت وأسرة وحب وصداقة وحنان واقتنع كامل بكلام محمد التابعى».

ثم أحب فتاة أخرى وأحبته وفكر فى الزواج بها وسافر بضعة أيام وعاد ليجدها متزوجة واختزن آلامه حتى ظهرت فى شعره: «أنا لا أذكر كم يوم مضى منذ التقينا، وربما من ساعتين .. ربما من سنتين ، كل ما أذكره أنا انتهينا .. وتولانى الضياع حين أبصرت: الوداع!، لا تثر حولى ضجة فلقد أصبحت زوجة!».

وأحب فاتنة السينما كاميليا وذاب فيها ولهاً وعشقاً وكتب فى شفيتها: «تتعثر الأنفاس فى شفتيك ما سكرى من هنا وتفوح كالابتسام».

وبعد كاميليا أحب نور الهدى، لكن أعمق قصة حق فى حياته كانت مع «روز أزورى» التى تنافس عليها هو ومحمد التابعى، وكان التابعى ينفق عليها ببذخ وكامل لا يملك أن ينافسه .. يقول كامل: «إن أعمق قصة حب فى حياتى وأبعدها أثراً على نفسى كشاعر وأديب تلك التى كانت بطلتها غانية فى كباريه .. حدثت وقائع هذه القصة عام ١٩٣٧ كنت فى مطلع شبابى أملأ الدنيا شعرا وغناء عذباً حالماً، كان أول لقاء بينى وبين حبيبتى فى الكباريه الذى تعمل فيه .. ذهبت ذات مرة أستروح من عناء العمل الصحفى المجهد، فوجدتها تتهادى إلى منضدتى، ونظرت إلى وجهها الملىء بالآلام وإلى يدها التى حرقت أصابعها السجائر، وكانت هذه أول نظرة لها وشم رائحة الخمر تنبعث من فمها .. لا أدرى كيف بدأ الحب بعد ذلك».

هو لا يدرى كيف بدأ الحب لكنه يدرى كيف انتهت القصة فبعد أن أخذ يلهث وراءها من ملهى إلى ملهى استقر الوداع على ذات المنضدة التى التقى بها عليها أول مرة، وشرب معها نخب الحب المفقود الذى دفنته هى إلى الأبد، ذلك أنها لم تتفرغ إليه ولم تعطه الحب الذى أراد وأحب غيرها عديدات.

ويروى يوسف الشريف فى كتابه «كامل الشناوى» آخر ظرفاء ذلك الزمن قصة حب جديدة حين اصطحبه كامل الشناوى ذات يوم إلى امرأة لبنانية الأصل، أوروبية الاسم وترجمته بالعربية «زهور» حيث التقاها كامل فى بار أنيق فى أحد الممرات الجانبية عند تقاطع شارع شريف مع شارع ٢٦ يوليو، «كانت لاتزال تحمل مسحة من الجمال الغارب .. وبصمات السهر وأعمال الليل. شعرها الذهبى أصبح كالح الصفرة ووجهها مصبوغ بالمساحيق وقوامها رغم اكتنازه مازال يتقن فن التثنى ولكن عينيها ظلتا برغم الزمن شابة فى الثلاثينيات وتلمع فى الضوء الخافت بريقاً «وسحراً وذكاء ... و... و.

«إزيك يا كامل بك» و«إزيك يا زهور» وذكريات وضحكات كان صداها يصلنى فى المكان الذى جلست فيه بعيداً ولم أسأله عنها ولا عن ذكرياته معها. ولكن سهرة جمعتنا بالفنانة تحية كاريوكا فى شقته التى استأجرها بالإسكندرية صيف ١٩٦٣. فى الأزاريطة كشفت عن هوية «زهور» وعلاقتها العاطفية بكامل الشناوى.

وكان قد فرغ من حديثه المرح .. ومن لعب «البوكر» مع جلال معوض وليلى فوزى وصلاح ذو الفقار وحرمه والسيد بدير وشريفة فاضل .. كان سعيداً بالصحبة الحلوة ونسمات البحر تندى مجلسه عندما طلبت تحية كاريوكا منه أن يروى قصيدة العيون.

وكانت تحية كاريوكا تعرف الكثير عن غرامياته مع الغانيات الفنانات. وكان يحترمها ويخشى لسانها. وذاكرتها .. تململ وحاول أن يشدنا إلى حديث آخر .. وإذا بتحية تسأله: ما شفتش «زهور» يا كامل بك؟ مش فتحت بار .. وكأنه لم يسمع سؤالها .. وارتمى على الكنبة وفى نبرات متهدجة بالألم والذكرى بدأ يروى قصيدة العيون:

لا وعينيك يا حبيبة روحى، لم أعد فيك هائماً استريحى، ما سكنت ثورتى، فصار سواء ما أن تلينى أو تجنحى للجموح، واهتدت حيرتى، فسيان عندى، أن تبوحى بالحب أو لا تبوحى، وخيالى الذى سما بك يوماً ؟؟ من اليوم يا له من خيال كسيح! والحنان الذى غمرتك فيه ضاع منى .. وخاننى فى جروح. والفؤاد الذى سكنت الحنايا منه أودعته فى مهب الريح.

أما بطلة قصيدته الشهيرة «لا تكذبى» فقد فسرتها عدة روايات فهناك من قال انه وجدها تخونه مع صباح قبانى مدير تليفزيون دمشق، وهناك من قال إنه ضبطها مع شقيقه نزار قبانى .. وهناك من ردد بأنه عز الدين ذو الفقار، لكن أكثر الآراء استقرت على أنه من أقدر وأشهر وأهم من كتب القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى وأنه بطل حادثة الشرف هذه .. ولم يخبرنا كامل حتى رحيله عمن تكون هذه الخائنة، لكنه كتب عنها: «هل ألعنها أو ألعن الزمن كانت تتخاطفها الأعين، فصارت تتخاطفها الأيدى!».

«إنها كالدنيا .. لا تبقى ولا تتجدد إلا إذا خرج من حياتها ناس. ما أكثر الذين شاهدتهم وهم يغادرونها .. وما أكثر المواليد الذين رأيتهم وهم يطرقون بابها؟!».

وفى عام ١٩٦٢ وكان أحد أعياد ميلاد حبيبته «الميئون» القصيرة الرفيعة اشترى لها بما يزيد على المائة وخمسين جنيهاً من الجاتوه والتورتة من جروبى وذهب إلى شقتها وأثناء تقطيع التورتة وأمام الحضور أمسكت بيد كاتب القصة القصيرة ذو العينين الزرقاوين ليساعدها فى قطع التورتة.

ولم يستطع كامل أن يكمل الليلة، ارتسمت الأحزان على وجهه وحاول ألا يظهر ذلك فلم يستطع .. بكى قلبه بصوت مرتفع فخرج إلى الفضاء الرحب وذهب ليكمل السهرة مع أصدقائه عبد الرحمن الخميسى وزوجته فاتن الشوباشى وسعيد أبو بكر ويوسف الشريف، وبعد ساعة استأذن منهم حيث ذهب إلى منزل المطرية التى أحضر لها التورتة.. طرق الباب.. ففتحت الخادمة الباب ولم يستأذن كعادته ودخل فوجدها: «عيناك فى عينيه.. فى كفيه.. فى شفتيه.. ويداك ضارعتان تتلهفان فى شغف عليه..».

وكتب إحسان عبد القدوس قصة الشاعر والمطربة فى جريدة الأهرام تحت عنوان «وعاشت بين أصابعه» حيث كتب إحسان« إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها .. تكنسه - وتمسحه وتعيد ترتيب الأثاث .. وتقابل فيه كل الناس .. شخص واحد تهرب من لقائه .. صاحب البيت!!».

- الغريب أنها حين سمعت القصيدة منه طلبت أن تغنيها وكلما تذكر كامل الواقعة انتحب وكتب «كان من المفروض أن أكون معهم، أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها. فهى صديقة. وهم أصدقائى، ولكنهم نسوا أن يدعونى إلى الاحتفال وتداركوا نسيانهم فذكرونى فى سهرتهم وقدموا إليها هداياهم. وكانت سيرتى أبرز ما فى الهدايا. وضعوا أمامهم التورتة .. ومع التورتة مزقوها بالسكين ثم أكلوا .. أكلوا التورتة .. وأكلوا سيرتى!!».

- لكن كامل حاول التمرد على الألم ومواجهة الخائن فكتب «حبيبها لست وحدك حبيبها .. أنا قبلك!! وربما جئت بعدك، وربما كنت مثلك.

لكن مأمون الشناوى فى حوار صحفى أجرى معه عام ١٩٨٨ قال إن بطل الحكاية ليس كاتب القصة الشهير حيث قال «أحب واحدة ذات مرة من الوسط الفنى، وكانا يتزاوران باستمرار فى منزليهما، وكنت ذات مرة مدعوا إلى الغداء فى شيراتون ووجدت هذه المطربة مع مليونير من تجار السيارات، وهو صاحب توكيل لشركة معروفة، وعندما ذهبت إلى كامل وأخبرته أننى قابلتها مع هذا الرجل تغير وجهه من أثر الصدمة وأخذ يسألنى هل كانت يده فى يدها وحدثت مواقف أكدت لى آنذاك أنه يحبها فعلاً، وبعنف، ولن اذكر اسم هذه المرأة لأنها تزال حية وهى بطلة لا تكذبى، ولست أدرى لماذا تتكر هى أنه كان يحبها .. هل يكره أحد أن يكون محبوباً؟ أنا واثق أنها لم تكن تحبه لكنها كانت تقدره كفنان وإنسان وهو كان يعلم أنه لم يكن فتى أحلامها.

وكان لهذه الفنانة قريبة، لكنه لم يتعلق بها مثلما تعلق بالأولى، حاول أن ينساها لكنه لم يستطع»، لكن ناجى ابن مأمون الشناوى يفجر مفاجأة سنعرفها فى حوارنا معه.

أعجب كامل الشناوى أيضاً بمضيفة شابة فى كافيتريا الهيلتون كانت تعتز بنفسها وترفض البقشيش وقد كتب فيها «مرت بنا كالطيف تسألنا، ماذا تريد؟ فلذت بالصمت، ودنت لتسألنى على حدة، عما أريد فقلت لها: أنت!!

غضبت وألقت نظرة نزعت قلبى وشدته إلى فمها، ياليته يقوى يقبلها، يا ليته ينساب فى دمها».

ورغم تفرده فى الشعر الذى كان يكتبه إلا أنه لم يخلف سوى ديوانين لا تكذبى وحبيبها وكتيبات صغيرة رائعة القيمة مثل «اعترافات أبو نواس» و«رسائل حب» و«لقاء معهم» الذى تغير اسمه إلى «زعماء وفنانون وأدباء» و«ساعات» .. وتحس أنه كان جالساً مع أبى نواس وأبو نواس يعترف له وكامل يحاوره بذكاء ودقة ولا يخلو الكتاب من الفكاهة.

وقد ظل كامل ثلاثين عاماً يعمل بالصحافة دون أن يصدر كتاباً واحداً وكان يتعلل بأنه ما يزال ينقصه الكثير من المعرفة .. كما أن الليل كان يأخذ الكثير من حياته وكذلك المقالب التى كان يفعلها .. فقد كان نجما من نجوم الليل وأتمنى أن تصبح الحياة ليلاً متصلاً بلا نهار» فقد كان يخاف أن يأتيه الموت بالليل وهو وحيد .. وفى إحدى سهراته فى شقته أقفل النوافذ وأسدل عليها الستائر ولاحظ الدهشة على وجه أصدقائه وسألوه:

– لماذا والفجر على وشك أن يأتى بالضياء؟

– قال: دعونى استبقى الليل!

– وعن مقالبه يروى سعيد سنبل أن كامل الشناوى استثقل دم أحد الأطباء فراح يروى عنه الكثير من الحكايات ومنها أن زبائنه كانوا يدهشون لصورة كبيرة وجدوها معلقة فى عيادته لم تكن لهذا الطبيب ولا لوالده ولا لأحد أسرته، وعندما راحوا يتحرون عن صاحب الصورة تبين أنها للمريض الوحيد الذى نجح الطبيب فى علاجه!».

لكن التشنيعة الخالدة التى أطلقها كامل الشناوى تجعلك تنبطح أرضا من الضحك فهو يقول فى بساطة «تشنيعة أطلقتها على طبيب سنة ٣٩ وكان مشهور بأنه صاحب أكبر نسبة وفيات بين مرضاه! وتناقلتها الألسن ونقلتها إلى الخارج وجاء الطبيب المذكور إلى مكتبى بجريدة «الأهرام» وفى يده مسدس معبأ وطبعاً هربت!

ورغم كمية السخرية التى فى حياته والعدد الذى لا يحصى من المقالب التى عملها فى الناس أو التى عملت فيه إلاأن شعره يكتسى بالحزن والألم وكان يخاف الموت بشكل بشع أو حسب وصف صلاح حافظ – تلميذه النجيب – «ليس صدفة إن ما كتبه كامل

الشناوى عن الموت أكثر مما كتبه أي أديب عربى آخر!، وليس صدفة أن تكون الحرية أكثر ما قدسه فى حياته، ودافع عنه بكل قواه.

كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى لا يستطيع أن يلغيها بتجاهلها وكانت الحرية هى الهم الوحيد الذى لا يستطيع أن يعيشه بالتمنى لأنه لا حرية لإنسان يحب الناس إلى حد الالتزام يحمل نصف أعبائهم وحده، وبين هذين القطبين - الموت والحرية - كانت الأرض التى اصطدم فيها خيال كامل الشناوى بحقائق الوجود وكان المرض وتقدم السن يجعل هذه الأرض أكثر وعورة كل يوم ومع ذلك ظل كامل الشناوى يناضل بإصرار ظل يخدع الأطباء فى شيخوخته كما كان يخدعهم فى طفولته، وظل يأكل كل ما هو محرم عليه ويسهر كأنه ينصح بالاعتدال. فالاعتدال قيد وهو لا يعترف بالقيود. والاعتدال موت وهو لا يعترف بالموت.

حتى يوم ميلاده الذى كان يحتفل به فى بيت محمد حسنين هيكل بدعوة من هيكل كتب فيه» عدت يا يوم مولدى عدت أيها الشقى، الصبا ضاع من يدى، وغزا الشيب مفرقى، ليت - يا يوم مولدى - كنت يوماً بلا غد!!».

وهكذا عاش كامل الشناوى حياته ضاحكاً فى جلساته حزيناً فى كتاباته .. ممتلئ بالألم كما جسده البدين، ورغم الحزن الذى فى كلماته فقد ترنم بها أشهر المطربين مثل عبد الوهاب الذى غنى له «زعموا حبى يا قلبى خطايا» كما غنت له أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ الذى غنى أجمل كلماته «لست قلبى» و«حبيبها» وغنت له نجاة: أنا لا أشكو ففى الشكوى عناء، وأنا نبض عروقى كبرياء .. ولعل إصرار العمالقة عبد الوهاب وعبد الحليم ونجاة على غناء قصيدته «لا تكذبى» ليس إلا إصراراً على عبقرية كامل الشناوى وشعره.

ورغم إضرابه عن الزواج ومحاولاته الفاشلة فيه إلا أنه حزن كثيراً لفقدانه صحته وماله .. وأنه مر فى الحياة دون ولد أو امرأة تسأل عن تأخره آخر الليل، وفى ذات اليوم والمساء الذى مات فيه مات صديق عمره الكاتب الساخر أحمد الألفى عطية ونشر نعى الأسرتين فى الصحف فى يوم واحد وخرجت جنازة كل منهما من عمر مكرم وصُلى عليهما فى وقت واحد فى ذات الجامع الساعة الثانية عشرة ظهراً .. دنيا!.

مات وظلت جملته «أنا سوف أسبق الـ٢٤ ساعة الأخيرة من حياتى وأموت فهول الموقف يكفى ليوقف دقات قلبى!

وليس عندى التزامات اهتم بتصفيتها فى لحظاتى الأخيرة .. فأنا أعيش يوماً بيوم مثل البقال ما يفتح دفتر اليومية الصبح وتقفل حساباته آخر الليل والإشكال الحقيقى أن يتحقق سؤالك فى آخر الشهر، وأنا لا أملك رصيداً فى أى بنك ولا بوليصة تأمين، والرجل الوحيد الذى سيشرب المقلب هو صاحب البيت» تتردد أذن أصدقائه .. والغريب أنه مات فى الواحدة صباحاً يوم ١٩٦٥/١١/٣٠ وهو الوقت الذى كان يستعد فيه للسهر كل ليلة! رحل عن عمر يناهر الخامسة والخمسين عاماً .. وقبل موته بعام مات چان كوكتو أديب فرنسا الشهير.

وقبل أن يدخل الكاتب الساخر محمود السعدنى فى محارة من الصمت قال لى عن أستاذه كامل الشناوى: علمنى وأدبنى وقدمنى إلى الكبار .. هو الذى عرفنى بعبد الوهاب، فقد كان يتركنى فى الجمهورية ويعطينى رقم المكان الموجود فيه ويقول لى إذا جد جديد أبلغنى، ومع صدور العدد كنت آخذه وأذهب له به فى المكان الموجود فيه والذى قد يكون بيت رئيس وزراء أو وزير أو فنان أو شخصية لها وضعها فى المجتمع.

كامل بك حاجة ثانية خالص كانت فيه ميزة وهى أنه لم يتزوج وله الفضل على أشهر أبناء جيلى الذى يدعمه والذى يثبته والذى يدفعه إلى الأمام وأنا عن نفسى أول مرة دخلت لمحمد عبد الوهاب، كنت مع كامل الشناوى وكان يقدمنى على أننى كنت معه وفتحى غانم ويوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وحسن فؤاد وجمال كامل.

ويضحك السعدنى قبل أن يكمل: كنت عارف أن كامل الشناوى يتعامل فى مطاعم معينة فى أكل الكباب مثل أبو شقرة والخميس والدهان وعبد القوى والمحلات التى فى شارع الألفى، وكان يطلب الأكل جاهزاً بالتليفون، وكان عنده وزراء باشوات ونجوم يعشيهم دوماً، ؟؟ ضربت تليفون لهذه المحلات، وقلدت صوت كامل الشناوى وقلت بلهجته: هات الكباب، وكمان كتر الحمام وكتر المِوّز، وبعد ساعة جاءت المحلات التى طلبتها بهذه الطلبات فقال فى ضيق ولهفة وبسرعة فى الكلام (إيه ده .. أنا ماطلبتش حاجة من دى) ووزع الأكل على المطبعة وعلى المحررين.

بعد بضعة أيام عرف أننى أنا الذى كلمتهم فتضايق جداً، وزعل منى وبعد مرور أسبوعين قلت له: ما أنت بتضرب الناس مقالب كثيرة قوى يا عم كامل فأنا ماضربتش غير مقلب واحد بس وبعدين أنا بتعلم منك .. دا جزائى يعنى؟ فقال لى: وقلد السعدنى كامل الشناوى (ده مش مقلب يا بنى ده خراب بيوت!).

لم يكن كامل الشناوى للعبد لله رائداً فقط أو أديباً كبيراً فحسب أو صحفياً صاحب مدرسة ليس إلا .. كان كامل الشناوى بالنسبة لى أباً وعماً وخالاً وأخاً وصديقاً ليس مثله أحد بين الأصدقاء.

كنت مجرد شاب مفلس يحاول الكتابة والقراءة كان يصحبنى معه فى كل مكان ويقدمنى للناس على أننى الأستاذ والفنان!

وفى لحظات يأس كثيرة فقدت إيمانى نفسى ولكن كامل الشناوى لم يفقد إيمانه بى، وخطر لى فى تلك الأحيان أن كامل يخصنى بحبه ولذلك يخصنى بعنايته .. ولكن اكتشفت بعد ذلك أننى مجرد فرد فى طابور طويل كامل الشناوى أب لكل أفراده وصديقاً للجميع .. حكمة إلهية أن كامل الشناوى كان يشم رائحة المواهب على بعد ألف ميل وإذا كنت صاحب موهبة فإن كل خطاياك مغفورة عند كامل الشناوى.

وفى حوار لنا مع ابن أخيه المهندس ناجى مأمون الشناوى – مهندس معمارى له مجموعة قصصية «لو رأى البحر» اكتشاف الشناوى بالنسبة لى كطفل كان حديثاً فى حد ذاته، كنا نذهب إليه والأسرة كلها .. وكنت فى أوقات كثيرة أحمل الأغانى التى يكتبها أبى أو بعض كتاباته ليعرضها على عمى كامل فأذهب فى السابعة صباحاً إليه فى شقته فى جاردن سيتى وهو يفطر أعرض عليه أعمال أبى وأفطر معه وكان عمرى وقتها ١٤ سنة كان يأكل كثيراً فمثلاً تجد أمامه سلطانية عدس وسمك بلطى مشوى من الأمس وكمية رهيبة من الجرجير والبقدونس هذا فى الإفطار الذى يصر أن نأكله معه .. وكان يعانى من الوحدة الشديدة ويحتاج دوماً لأحد بجواره وكان أحياناً يسأل أسئلة غريبة فمثلاً يسألنى عن «لا تكذبى» وقد حققت نجاحاً كبيراً وقتها فى فيلم «الشموع السوداء» فهو يظل يسألك عنها وعن سر نجاحها وأنت طفل صغير لا تستطيع أن تجيبه.

حيث يقول:

قصيدة لا تكذبى قيل عنها كلام كثير جداً وعدة قصص لكن مأمون الشناوى – شخصياً – قال لى إن قصيدة «لا تكذبى» كتبت فى عام ١٩٤٧ وكان عمر نجاة الصغيرة سبع سنوات، ومن المؤكد أن القصص التى أشيعت حول أن نجاة هى بطلة القصة الواقعية كلام غير صحيح ومصطفى أمين له دور كبير فى ترويج هذه الإشاعة وجعل

الناس تصدقها .. وقد بحثت عن هذه السيدة لكنى وجدت أن كل من عرفهم كامل من النساء كن قصيرات القامة .. نحيفات «منيون» حتى سكرتيرته ولم أصل إليها لكنها ليست نجاة .. وجيل كامل الشناوى كان يتبادل المقالب مع بعضه البعض ويؤلف قصصاً لا علاقة لها بالواقع، وعن سر إجماع الكل على أنها نجاة يضيف ناجى مأمون الشناوى: من دقة حبكتها وصياغتها تأكدت .. لقد كان مؤلف المقلب عبقرياً.

ولما سألته من تكون بطلة لا تكذبى إذن قال أعتقد أنها سعاد حسنى!!!!

وعن المواقف التى مر بها كامل قال: فى بداية الثورة جمال سالم وصلاح سالم قالا: إن كامل الشناوى كان صديقاً للملك، فكتب مقالته الشهيرة فى أخبار اليوم حين ادعوا أنه حصل على المصاريف السرية «حاكموهم .. أو حاكمونى» وقدم بلاغا إلى وزير العدل ليحقق معه باعتباره من أعداء الثورة، ثم إن كامل الشناوى لم يدع أن هناك صلة بينه وبين الملك فاروق فيها شىء يخجل منه ولكنها كانت صلة مشرفة، فهم بحثوا عن شخص يعلم الملك فاروق اللغة العربية التى لم يكن يعرفها فاختاروا كامل الشناوى فشرف له أن يعلم حاكم مصر اللغة العربية، أيضاً الشناوى كان من أشد مؤيدى الثورة قبل أن تقوم، منذ حرب ١٩٤٨ تحديداً وارجع إلى مقالاته تجد معظمها يتنبأ بها.

وعن دوره فى تطوير الصحافة المصرية قال: كانت هناك مدرستان مهمتان جداً وهما مدرسة محمد التابعى ومدرسة الصاوى محمد ... واستطاع كامل أن يجمع بين الاثنين بأسلوبه وهى قطع أدبية حقيقية طورت كثيراً من شكل الكتابة الصحفية الإنسانية.

وكامل لم يره أحد متلبساً بالكآبة، كان دائم الابتسام والضحك ورغم ذلك أقول لك وهذه مفاجأة أخرى أنه لم يكن كاتباً ساخراً .. كانت جلساته ساخرة لكن كتاباته كانت ممتلئة بالألم والحزن.

أما عن مشروع سيرته الذاتية فيقول ناجى: مأمون الشناوى كان يستطيع أن يكتب هذا لأنه عرفه عن قرب وقد قام بجمع كتبه بعد أن مات .. أما أنا فلا أستطيع ذلك.

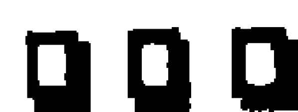
كان يفصل بيتنا عنه مائة متر وبعد أن رحل ذهبنا للإقامة فى شقته وقد أخذنا طريقة تفكيره وملامحه وحبه للناس وعلاقته بهم ولكنى اتجهت لفن الهندسة المعمارية لأننى لا أستطيع أن أكرر تجربة كامل أو مأمون الشناوى.

فكرى أباظة الضاحك الباكى...

- الذى اعتذر لعبد الناصر على صفحات الأهرام!!

- قال له سعد زغلول: (الحق على إللى دخلتك المدرسة)!!

- أحرق مذكراته بعد أن كتبها رغم إلحاح أحمد بهاء الدين!



فكرى أباظة كاتب من طراز فريد يشبه الملوك فى القصور والفقراء فى الشوارع .. يسخر من طوب الأرض وترابها ويحكى فلا تملك إلا أن تسلم أذنيك له تماماً .. ورغم كل مناصبه ومكانته التى وصل إليها إلا أنه ظل أشهر عازب فى الوسط الصحفى والاجتماعى الذى عاش فيه .. وهو يدلى بمبرراته الساخرة لعدم زواجه حين يقول تحت عنوان «اعترافات» وتخيلات»!:

- أما «الاعترافات» فاعترافات شاب «عازب» وأما «التخيلات» فتخيلات رجل «متزوج» .. ثم يصدر الحكم بعد استعراض الحالتين!!

- ها قد دقت ساعة العودة إلى منزلى بعد تعب اليوم وعنائه، شريكى فى الحياة قادم «بريرى» طوله متر، وعرضه متر، ومساحته متر مربع!.

- لونه حالك، وصوته أجش!

- أشعر بالوحشة وأشعر بأنى فى عالم القبور!

- أين الثغر الباسم الذى ينسينى الدنيا العابسة؟

- أين العينان الساحرتان اللتان تتبدد بفعلهما غيوم النهار وعواصفه؟ أين الأنامل الرقيقة التى تمسح عن ذهنى أكدار الحوادث والطوارئ؟

- أين الصوت العذب الذى يشجعنى ويسلينى؟

- أين مديرة المنزل ومدبرته؟ أين الحب .. أين العواطف .. أين الأنس العائلى؟!!

- أشعر أنى شريد هائم .. وأشعر بنزق الشباب وطيش الصبا يدفعاننى إلى هوة سحيقة فيها كل الأخطار وفيها الدمار: إذن هل أتزوج؟! نعم، نعم .. تلك هى «اعترافاتى» وإليك «تخيلاتى».

ها قد تزوجت فقبضت علىَّ «الزوجية» وزوجتى فى السكن طوال الحياة .. هأنذا أعود رغم أنفى الساعة التاسعة مساءً؟

- هأنذا أتشاجر فى اليوم ثلاث مرات قبل الأكل وثلاث مرات بعد الأكل

- هأنذا لا أشعر يوماً من الأيام بحرية التنقل والسياحة وهأنذا أشهر بالجبن الوطنى وأتقهقر عندما تذكرى الضحية.

- هأنذا مدين بدين ثقيل لـ«شيكوريل» و«البون مارشيه»؟!

- هأنذا قد اختلفت مع زوجتى فى السياسة فهى «سعدية» متحمسة وأنا من طلاب الملحقات.

- هانذا قد أصبحت «أبا» لخمسة أولاد.

- ها قد أصبح المنزل عبارة عن «مولد» فحرمت أبدياً من نعمة الهدوء والسكون ها قد بدأت مسؤلياتى تزيد وهمومى تكثر.

- ابنى نمرة «١» سقط ٣ مرات فى «البكالوريا» وهو مع هذه «النجابة» عاشق ولهن من أنصار «الكوكايين»؟!

- ابنى نمرة «٢» اتهمته السلطة العسكرية وقضى عليه بالأشغال الشاقة عشر سنوات.

كريمتى نمرة «٣» خطبها أحد الأشقياء، فأعددنا الجهاز ولكنه عدل وبدأنا نطرق باب القضايا الشرعية؟!

- ابنى نمرة «٤» سقط من «السلم» فانكسرت ساقه.

- بنتى نمره «٥» عضها كلب مسعور فأخذوها من أحضان والدتها إلى مستشفى الكلب؟!

- هذه «تخيلاتى، فإذن .. هل أتزوج!!

- لا .. لا ..!

- استعرضوا معى هذه الاعترافات والتخيلات وترددوا معى بين الإقدام والإحجام!..»

- وفى النهاية يقول فكرى أباظة: «إذن أنا لا أسلم بنعمة الزواج، هو على الأقل «لوتريا» .. وقد يكون الشاب العصرى محقاً فى النفور منه..

- ولكن اذكروا يا زملائي «غير المتزوجين» أن هناك وطناً، وأن هناك شرعاً، وأن الشرع جعل الزواج أساس العمران.

- وأن الوطن اعتماده على كثرة النسل .. فاعتبروا الزواج على الأقل - حكمة شرعية - أو تضحية وطنية».

فاقدموا عليه وتقبلوا حكم «القضاء والقدر» وأطلب لكم ولى الرحمة.

- وقد كتب فكرى أباظة هذا المقال فى المصور فى ٢٦ ديسمبر ١٩٢٤ وهو من مواليد ١٨٩٧ أي كان عمره ٢٧ عاماً .. وقد مر بعدة قصص للخطوبة والزواج فشلت ١٣ مرة، بسبب المركز الاجتماعى أو الحسب والنسب، لعدم التكافؤ عموماً .. وتجد له فى نهاية كتابه الرائع «الضاحك الباكى»، وهو أول كتبه بالمناسبة نصيحة إلى الشباب بألا يتزوجوا بعد الخامسة والعشرين وألا يشتغلوا بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين..

ولكن هذا الضاحك الباكى أحب كثيراً وتحرق شوقاً وذاب وجداً فى العديد من قصص حبه، وهناك قصص لاهية وقصص جادة يقول عن إحداها:

«أحببت سيدة حبا جما، ولم أكن أعلم أنها طموح تحب المظاهر والسلطة والسلطان. ففضلت علىّ ضابطاً، ورغم فشلى فقد ألفت هذا الزجل بتلك الواقعة ويحتاج إلى إمعان إذا قرأته على لسانها ولسانى وخصوصاً بالاستعارات اللفظية وهذا هو الزجل:

قالت لى: صديت وخلصت يا فكرى

وخليتنى أنسى وانمسح فكرى من فكرى

قلت لها لا .. إنما الزمن جار على ماركتى وعصرى

قـــل الطلـــب فـى الســـوق فانبـخـس سعـــرى

أنـــا مــا اشتــريتــه بسمـتى يـا ضنـاحـالــى

وانـــت بعـــت بالثـمـــن، وكـــان الثمــن غــالـــى

لمـــا الـزمـــن جــار، وجـــم غيــرنـــا وداســونـــا

صـــالـوا وجـــالـوا واحتـلـوا وأجلـــونـــــا

وإن عــــاد الـــزمـــن ولمنـــا يمـكـــن تحبـــونـــا

أيضاً له قصة حب شهيرة تشبه الحكاية التى وراء «لا تكذبى» لكامل الشناوى، ففى عام ١٩٣٤ أحب فكرى أباظة مطربة معروفة وكانت جميلة وكان هو محامياً ونائباً وكتب فيها أشعاراً وأزجالاً ووقف بجوارها ودفع عنها ديونها وجعلها تتجاوز كل أزماتها المالية، وترافع فى القضايا التى رفعتها ضد مليونير شاب كان زوجاً لها لكنها ردت له الجميل بالخيانة .. نعم خانته وقد شاهد الموقف كله أمام عينيه فلم يستطع تحمله وكانت صدمة أليمة لم ينسها حتى رحل رغم لقاءاته بأرقى سيدات المجتمع وبالصفوة من نجمات الفن والعائلات الأرستقراطية لكنه لم ينس أبداً تلك الفنانة التى ذبحته من الوريد إلى الوريد، وغرست خنجر خيانتها في صدره الذى كان يحميها.

وقد سخر محمد فكرى حسين أباظة ولادته ووفاته حيث ولد فى كفر أبو شحاتة إحدى قرى محافظة الشرقية .. ولذلك تجده يقول عن يوم ولادته:

كان ذلك فى نهاية القرن ١٩ وفى قرية صغيرة اسمها كفر أبو شحاته حيث تمت بسلام .. ولادة سيدة القرية .. ولكن بعد عناء عنيف بواسطة الداية أم خضرة.

وحين التقطت الطفل الوليد من بطن أمه صاحت مستغيثة «يا لهوى!! يا مصيبتى!! الحقونى!! الولد مش بنى آدم .. الولد عفريت»!!

كانت الداية أم خضرة معذورة!! الشعر الكثيف يملأ وجه الطفل الوليد!!

حاجبان غزيران وعينان مفعومتان غابة فى وجه .. أو وجه فى غابة!!

أدغال ذات اليمين وذات الشمال، على أن هذه كلها لم تكن« المصيبة» .. ولكن «المصيبة» أن الطفل الوليد لا «ينونو» ولا يصرخ .. ولا يبكى. واندلع الجزع والخوف فى «الدوار» وتوافدت من القرى وفود «المعزين» لا «المهنئين».

فاطمة أم خليل «تلدغ الطفل» بدبوس أو بابرة فلا يتوجع ولا يبكى .. وسليمة أم درويش تقرصه وتنشب فى جسمه أظافرها الطويلة فلا يتوجع ولا يبكى .. فرحانة أم سلامة تغرس فى فخذه سلاية من جريد النخل ولا يتوجع ولا يبكى .. يهرول «الأطباء» من منيا القمح والزقازيق والقاهرة ويغرسون فى جسمه الحقن فلا يتوجع ولا يبكى.

وتصيح الداية أم خضرة قائلة:

-«ألم أقل لكم ده مش بنى آدم ده عفريت»؟!

والدة فكرى تنتمى لعائلة كبيرة وثرية من «ههيا» وحين رأت ابنها يستطيع الحركة فى الشارع بمفرده ألحقته ووالده بكتاب الشيخ «جاد» الذى كان يدرس فيه وزوجته الشيخة «صابحة» .. وبعد ذلك انتقل مع والده للإقامة بحى شبرا بالقاهرة ثم دخل الأزهر بعد ذلك انتقل إلى مدرسة النحاسين ثم مدرسة عابدين الابتدائية ثم إلى مدرسة الجيزة الابتدائية حيث انتقل والده من شبرا إلى حى مصر القديمة ثم التحق المدرسة السعيدية الثانوية فى أكتوبر ١٩٠٩، وقد زامل وصادق محمد التابعى فى هذه المدرسة وشارك فى السعيدية فى فريق التمثيل وفى فريق كرة القدم، وفى جماعة الخطابة.

فى أكتوبر ١٩١٣ درس بمدرسة الحقوق التى تخرج فيها عام ١٩١٧ .

بدأ حياته العملية محامياً تحت التمرين فى مكتب أحد أقطاب الحزب الوطنى «محمد زكى على»، وانضم فكرى إلى الحزب الوطنى حين ذهب إلى أسيوط ضمن إحدى مباريات فريقه فى كرة القدم - النادى الأهلى - وعرف بالثورة الكبرى وهاجم الإنجليز البسطاء فى أسيوط وضربوا المستشفيات فخرج الأهالى فى مظاهرات عنيفة، فكتب فكرى أباظة نشيداً لهذه الثورة وألقاه فى كنيسة أسيوط فأقام البلد ولم

يقعدها فاستولى الأهالى على أسلحة الذخيرة الخاصة بالبوليس وكانت ثورة ضد الإنجليز والحكومة فى وقت واحد.

وكانت بدايته الصحفية من خلال جريدة المؤيد سنة ١٩١٩ وكتب تحت اسم «عابر سبيل»!!

أما بدايته مع صحيفة الأهرام وآل تقلا فكانت من خلال مكتب المحاماة الذى كان يعمل فيه فى الزقازيق، وكان قد نشر مجموعة مقالات فى الأهرام تحت اسم «كتيب حقير» مهاجماً الاحتلال البريطانى والمندوب السامى ومن هذه المقالات على سبيل المثال: «بينما أنا جالس وراء مكتبى فى أحد أيام يناير سنة ١٩١٩ أتصفح إحدى القضايا وإذا بنظرى يقع على إحدى الصحف السيارة وبها نبأ ارتحال المعتمد البريطانى عن مصر وشاءت الأقدار أن تكون هذه اللحظة هى لحظة التغيير فى حياتى فقد وجدت نفسى أسرع مفكراً فى هذا الخبر الصغير وما يترتب عليه من ذيول ولواحق وما هى إلا هنيهة إلا وأخذت أناملى تجرى دون وعى منى على الأوراق الخاصة بمذكرات الدفاع وسرعان ما اتسعت أسطر المقال الغريب فوجدت أنى أشيع المعتمد».

أما أول مقال باسمه فى الأهرام فقد كتبه فى نفس مكتب المحاماة بالزقازيق تحت عنوان «عبث أطفال» وحين انتهى منه تساءل أين سأنشره ثم راح فى نوبة ضحك هستيرى حتى دخلت عليه سكرتيرة المكتب على صوت الضحك فقال لها لقد تذكرت أشياء من طفولتى فضحكت تركته وخرجت فألقى بالذى كتبه على المكتب وانصرف .. جلست السكرتيرة بعد خروجه على مكتبه وبعد أن قرأت راحت فى نفس نوبة ضحكه فدخل عليها الخادم يسألها عن السبب فقالت له تذكرت أشياء من طفولتى، وقررت السكرتيرة بعد تفكير عميق أن ترسل المقال إلى الأهرام، ليجده فكرى أباظة وهو يقرأ الأهرام منشوراً فيصاب بالذهول، وحاول أن يعرف كيف وصل إلى الأهرام وهو يقرأها عدة مرات دون فائدة، وكان عنوان المكتب فى المقال الذى راح الأهرام ليفاجأ بعدة رسائل تهنئة على مقاله الساخر الذى مسح فيه بكرامة المندوب السامى البريطانى الأرض، ثم جاءت بعد أيام سكرتيرته تعترف له وطلبت منه السماح فأعطاها مقالاً

آخـر.. فقـالت له ماذا أفعل به فقـال لهـا: مثلمـا فعلت بالأول .. وهكذا راحت مقـالاته تنشـر فى الأهـرام الواحـد يلو الآخـر، وحـاول أصـحـاب الأهرام اسـتـقطابه لموهبتـه السـاخرة فى كتاباته، فبعثوا إليه وذهب إلى القاهـرة والتقى بجبرائيل تقـلا الذى طلب منه أن يحدد يوماً لنشر مقالته فيه، وطلب منه أن يحدد أجراً لمقالاته، وهنا ثار فكرى أباظة ونهض ليخرج من مكتب جبرائيل تقلاً لأنه أحس بالإهانة «إن معنى ذلك أن تدفع لى أجراً عن مبدئى وعقيدتى وحريتى وهذا مـالا أقبله بتاتاً، وهو عكس بعض الإخوة الآن الذين يكون هدفـهم الأول «هاتعطينى كم» حتى لو لم يكن مـا يكتبـه يسـاوى أى كم..!!

واستغرب جبرائيل موقفه لكنه وافق على استمراره فى الكتابة فحققت مقالاته دوياً شديداً، بل رفعت عليه القضايا ومنها حسبما وصف صبرى أبو المجد فى كتابه «فكرى أباظة» مقاله «وداع اللورد اللمبى» وكان المقال عنيفاً ضد اللورد ودولته وحوكم فكرى بتـهـمـة سب بـريطانيـا وملكهـا لأن اللورد هو ممثل صـاحب الجـلالة ملك بريطـانيـا وإمبراطور الهند .. ودرس سعد زغلول القضية - سنة ١٩٢٤ - وأمد فكرى بتوجيهاته القـانونية والفقـهيـة فى مجال الدفـاع عن نفسه .. وقبل البدء فى القضيـة رحل اللورد عـائداً إلى بلاده .. وجـاء اللورد لويد خليفـة للورد اللينى إلى مصـر واسـتـقبله فكرى أباظة بمقال أشد عنفاً ووصفه فيه بأنه جلاد بومباى، فحاكموه ثانية .. وبذكاء تخلص فكرى أباظة مـن القضيتين، وأسس دفـاعـه على أن اللورد اللمبـى كان قـد اسـتقـال من منصبه قبل أن يهاجمه .. وإذن فقد زالت عنه صفـة التمثيل السيـاسى لجـلالة ملك إنجلترا .. أما اللورد لويد فقد هاجمه قبل أن يكون قد قدم أوراق اعتماده لجلالة ملك مصـر.. وبالتالى لم يكن قد اكتسب حصـانة التمـثيل بالشكل القـانونى .. وبالفعل حفظ التحقيق أمام وجاهة حججه القانونية.

فى عـام ١٩٢٩ كان فكرى أباظة قد حقق نجومية كبيرة فى بلاط صاحبة الجـلالة لذلك تولى رئاسة تحـرير مجلة المصور أثناء تأسيسهـا وحقق لها طفـرة هائلة لدرجة أن باعة الصحف لأجل أن يبيعوا المصور كانوا ينـادون «فكرى أباظة - المصـور» لأن الناس كـانت تشـترى لأجل اسم فكرى أباظة ورفض فى البداية أن يتقـاضى أجراً من المصور

حتى قال له إميل زيدان أنه طالما المجلة تكسب بسببه فلا مانع من أن يأخذ راتبه، ثم عين رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال عام ١٩٤٧ وهو الذى أسس هذه المبنى الموجود الآن وجاء بتخفيض للأرض التى بنى عليها.

ولم يعتزل المحاماة إلا عام ١٩٤٤، لكنه ظل فى الحزب الوطنى حتى طولب منه أن يكون رئيساً له لكنه رفض وقال هناك أساتذة لى وأكبر منى مثل حافظ رمضان باشا وعبد الرحمن الرافعى.

فى عام ١٩٥٥ أصدر عبد الناصر قراراً برفع الرقابة عن الصحف بعد ستة أشهر حيث تكون فترة الانتقال قد انتهت، وتبدأ من يناير ١٩٥٦

ويروى صبرى أبو المجد أنه اقترح على أسرة تحرير المصور أن تقوم باستفتاء لاستطلاع جماهير الشعب عن مستقبل الحكم، وتم إعداد استمارات الاستفتاء .. واشترك فى الاستمارات عشرة آلاف مواطن، ونشرت الحلقة الأول فى المصور فأقامت الدنيا وصودر المصور واعتقل صبرى أبو المجد واتبهدل وشاف الذى لم يره أحد وبعد اتصالات مكثفة أفرج عنه، وكان السبب فى الاعتقال أن أحد المواطنين وقع على الاستفتاء بقوله: «جبان لا يريد أن يذكر اسمه» ومعنى ذلك كما فهمت القيادة الإيحاء بأن الثورة حولت المواطنين إلى جبناء .. وقال عبد الناصر لفكرى أباظة وإميل زيدان بعدما توسط لهما صلاح سالم لمقابلته، وكان غاضبًا رغم أنه قدم لهما القهوة والسجائر بيده «أمن المعقول أن ألغى الأحزاب ثم يجرى الأستاذ صبرى أبو المجد استفتاءً واسعاً نتيجته أن ٩١٪ مع عودة الأحزاب.

الذى زاد الهم أن التحقيق الصحفى ذكر أن «البعض ممن توجهنا إليهم بهذا الاستفتاء رفض مجرد النظر إليه قائلاً يا عم خلينا ناكل عيش.

وطلب فكرى أباظة أن يتحمل المسؤلية بالكامل لأنه هو الذى سمح بنشر هذا التحقيق والقيام بهذا الاستفتاء.

فى عام ١٩٦١ كتب فكرى أباظة فى «المصور» مقالاً عنوانه «الحالة ج»، مستعرضاً فيه ما يمر به العالم من أزمات وقدم عدة مقترحات كان أحدها: «تقرر الدول بالاتفاق

حياد منطقة الشرق الأدنى وجميع الدول المنضمة للجامعة العربية وينشأ بعد هذا الاتفاق اتحاد فيدرالى بين الدول العربية يكون اختصاصه مقصوراً على توحيد الجيوش الحيادية العربية وسياستها الخارجية على أن تدمج فلسطين بأسرها فى هذه الدول وتشمل إسرائيل بعد أن تزول صفتها الدينية ويصبح الإسرائيليون من رعايا هذا الاتحاد الذى يكفل لكل الأقليات حقوقها كاملة حسب التقاليد الدولية المتبعة».

وفى نفس العدد كتب فكرى فى بابه الثابت «كلمة الحق» تحت عنوان «من محب وسهير إلى والدهما فكرى أباظة» حيث كتب: «بالرغم من أن فرانكو أنقذ أسبانيا من مجازر الشيوعية والحرب الأهلية وقام بعدة إصلاحات فى الصميم .. وبالرغم من ذلك فهو لا يظفر بالحب الذى يستحقه ولا بعرفان الجميل الذى هو به جدير من بعض خصومه .. وتحليلنا على قدر إدراكنا .. أن هؤلاء الخصوم يؤثرون الحرية الشخصية على كل مجد وكل إصلاح .. حرية الكلام وحرية الأكل والترحال وحرية الاجتماع .. إلخ، تلك غريزة الآدمية .. أى الحرية .. ولا حيلة للمنطق فيها ولا حيلة للإقناع بها».

واعتبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أنه المقصود بفرانكو .. وهنا حدث ما كسر الشاعر الرومانسى والكاتب المبدع والساخر الكبير عمنا فكرى أباظة حيث صدرت الأهرام فى ١٨ اغسطس عام ١٩٦١ وفى صدر صفحتها الأولى خبر يقول «أصدر أمس الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعفاء السيد محمد فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة مؤسسة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور». وعقب مصدر مسؤل على المقال الذى نشره السيد فكرى أباظة فى مجلة المصور أمس وطالب فيه الدول الكبرى بإنشاء اتحاد فيدرالى بين الدول العربية على أن تندمج فلسطين بأسرها فى هذه المجموعة وتشمل إسرائيل .. إن هذا الاتجاه يحمل معانى عديدة لا يمكن السكوت عليها، فهو ينطوى على دعوة بأن تتجمع الدول الكبرى وتفرض على الدول العربية اتحاداً بينها، كما ينطوى على دعوة الدول الكبرى بأن تفرض دمج إسرائيل فى اتحاد عربى. كما ينطوى على معنى التشكيك فى الموقف العربى تجاه إسرائيل الذى هو موقف عربى اجتمعت عليه الأمة العربية، ولا يملك أن يخرج عليه أى فرد من أفرادها.

هذا ما جعل الرئيس يقرر فصله من مناصبه الصحفية»..!

وهكذا فصل الرجل فى ١٩٦١/٨/١٧ وجلس الرجل فى بيته ولم يقبل أى مكان أن يجعله يكتب، فكيف يكتب وعبد الناصر عليه غاضب فراح يكتب زجل محزنًا يقول فيه:

قالت لى: اشتغل صحفى وبطل المحاماه

خلعت الروب وشفت الغلب أقصاه وأدناه

الأسود يبقى أبيض، والحق باطل والله

والنفاق هو اللى جارى والزور لمنتهاه

كنت فين يا «لأ» لما قلت أنا «آه».

وكان هناك انكسار آخر يواجه الرجل حتى يقبل الحاكم الأعظم اعتذاره عليه أن ينشر فى صدر الصفحة الأولى فى الأهرام .. وكتب يعتذر عما نشره قبل ذلك فى المصور، وقد لامه كثيرون على أن يتراجع كاتب فى مكانته عن موقفه وآرائه ولم يعد للكتابة إلا بعدها بستة شهور.

فى ١٩٦٢/٢/٢٢ عين عضواً بالمجلس الأعلى لدار الكتب لمدة ٥ سنوات كما عين رئيساً فخرياً للمصور حين أصر أحمد بهاء الدين عند توليه لتحريرها أن يسبقه اسم فكري أباظة فى الترويسة تقديراً لقيمته ومكانته ..

وحين مات عبد الناصر كسرت السكاكين المسماة أقلام وحاول عديدون إغراء فكرى أباظة بأن يكتب ضد الرجل الذى فصله ولكن الرجل رفض .. وحاولوا إغراءه بالمال لكنه رفض أيضاً .. ذلك لأن الإنسان ذا القيم والأخلاقيات يظل عليها مهما تبدلت الأمور. ثم ليست هذه هى أول مرة ينتقد فيها فكرى أباظة رئيسا أو ملكا فقد انتقد. قبل ذلك الملك فاروق ودعاه فى مقال له بتشكيل حكومة ائتلافية من جميع الأحزاب تتولى تعديل الدستور فغضب الملك واعتبر ذلك عيباً فى الذات الملكية .. ومعلوم أن فكرى أباظة رفض قبول الوزارة ثلاث مرات فى ١٩٢٨-١٩٣٠-١٩٤٤ .. وهو أول صحفى من غير ملاك الصحف يحصل على رتبة الباشوية وعارض سعد زغلول ومصطفى النحاس.

وله مع سعد باشا زغلول قصة شهيرة أوردها صبرى أبو المجد فى كتابه عنه فقد كان فكرى أباظة نائباً؛ البرلمان الذى كان رئيسه سعد زغلول بعد أن تخلى عن رئاسة أول وزارة ألفها بعد مصرع السردار والأحداث التى تلت ذلك .. وفى يوم ١٠ فبراير عام ١٩٢٦ قرر الحزب الوطنى - وكان فكرى أباظة من رجاله - أن يحتفل بذكرى زعمائه، وفى هذا الاحتفال ألقى فكرى أباظة خطبة نارية ملتهبة حمل فيها على ساسة العهد وطعن فى مجلس النواب القائم والزعيم سعد زغلول، وعندما ذهب لحضور الجلسة فى مجلس النواب فى اليوم التالى وجد الجو مكهرباً والوجوه الوفدية مكفهرة فى وجهه ومتجهمة .. حتى إن أصدقاءه منهم وجيرانه فى المقاعد رفضوا أن يتناولوا منه قطع الشيكولاتة التى كان قد دأب على توزيعها عليهم من الباكو الذى حمله معه فى كل جلسة .. ثم وضح له الأمر عندما طلب النائب حسن نافع الكلمة وأذن له سعد زغلول فانبرى يقول: بالأمس وفى حفل عام خطب زميلنا الأستاذ فكرى أباظة خطبة جامعة طعن فيها طعناً مراً على زعيمنا وزعيم الأمة ورئيس المجلس سعد زغلول .. إن الزميل فكرى أباظة يطعننا ويطعن زعيمنا ورئيسه فى المجلس بخنجر مسموم فى الظهر، وهذه خيانة لواجبه ولعضويته فى المجلس ولرئيسه أيها النواب المحترمون، وقبل أن يكمل قاطعه سعد زغلول قائلاً: أين كانت هذه الخطبة، وأجاب حسن نافع: إنها كانت خارج المجلس فى سرادق بجوار دار الكتب، وهنا قال سعد بلهجة حازمة: إذن فاذهب وأقم سرادقاً خارج المجلس واطعن فيه ورد عليه ما شاء لك الطعن والرد .. أما هنا فى المجلس فلا أسمح بالكلام فى موضوع لم يطرح هنا.

حاول عديدون أن يتكلموا فى الأمر لكن سعد رفض تماماً وكان هؤلاء الأعضاء يبيتون قراراً لفصله من عضوية المجلس.

وبالتأكيد غضب سعد فذهب له فكري بعد أن توسط له مكرم عبيد وعلى الشمسى وقال له سعد: (الحق علىّ إللى دخلتك المدرسة) وكان يقول له هذه الجملة كلما اشتد فكرى فى نقده فى الصحف، والقصة تعود لعام ١٩١٠ عندما كان فكرى فى المدرسة السعيدية وفصل لأنه من سواقط القيد وليس لديه شهادة ميلاد فتوسط له عمه إسماعيل أباظة باشا عند سعد وكان ناظراً للمعارف وأمر بقبوله.

وكان لفكرى باشا أباظة علاقات لا تنتهى فقد كان نقيباً للصحفيين فى ١٩٤٥ و١٩٤٨ و١٩٥٢ وعضوا دائما فى النادى الأهلى لما كان «ضرورة اجتماعية» للصحافة حسب وصف شيخ الصحفيين حافظ محمود فهو لا يتأخر دقيقة واحدة عن موعده ورجل رياضى ومثقف وكاتب من طراز فريد كما كان آية فى الوفاء والإخلاص لقيمه ومبادئه، كما كان روح مجلس نقابة الصحفيين «إذن كان لابد للمجتمع من كاتب تنفرج الشفاه المذمومة من قرائه، وشاء القدر أن يكون هذا الكاتب هو فكرى أباظة».

أيضاً كان لأحاديثه الإذاعية وقع السحر والتى حققت جذبا لآلاف المستمعين إلى الراديو، وكلما تذكروه وأذاعوها حتى الآن فإنها تجد صدى لأسلوبه البسيط الفصيح السلس ورغم أنه كاتب ساخر إلا أنه كاتب مهموم كعادة الكتاب الساخرين «الحقيقيين» لذا قرر أن يحرق مذكراته بعد أن كتبها «نعم، مع الأسف الشديد، قررت أن أحرق مذكراتى وكنت وأنا أقرر هذا القرار أشعر بحزن عميق لأنها كانت تسجيلاً يومياً منذ عدة سنين لمشاعرى وعواطفى وأدائى فى مراحل الصبا والنضج والكهولة وربما الشيخوخة. أنا حزين كل الحزن على أنى سأفقد هذا التاريخ المسجل كله .. والذى كان يؤنسنى ويواسينى ويخفف آلامى، ويعيدنى إلى أزهى وأزهر مراحل العمر، ويبعث فى قلبى وفى ذهنى حرارة وحماسة وأملاً جديداً ولكن أسفاً .. كل هذا ضاع!

حين قرأت ما رأى الناشر نشره من مذكرات المرحوم الوطنى الكبير محمد فريد بك، جزعت له أشد الجزع، وسألت نفسى لماذا الإبقاء على هذه المذكرات؟ فقررت أن أحكم عليها بالإعدام وأن أحرقها.

أعتقد أن مدون المذكرات إنما يدونها لنفسه أولاً وقبل أى شىء لا لغيره من الناس. وخاطر النشر ليس هو الخاطر الأول الذى يخطر على بال مدون المذكرات والمذكرات التى تتكلم عن تاريخ طويل قد يتجاوز أربعين أو خمسين عاماً لا يمكن أن تكون متناسقة أو غير متناقضة أو صحيحة فى الحكم على الأشخاص إذا تناولتهم بالرأى أو التحليل وخصوصاً بالنسبة للشخصيات العامة والسياسية.

هذه الشخصيات العامة السياسية قد تكون فى بداية أمرها منحرفة أو مستهدفة للنقد ثم يمر الزمن عليها وتتطور مبادئها وتصرفاتها فتصبح نموذجية ترمز إلى

البطولة، أو فدائية أو جهاد عام فى سبيل البلد يعتبر مفخرة ومجداً للبلد، ومدون المذكرات اليومية عن هذه الشخصيات لا يمكن أن تكون أحكامه الأولى هى الأحكام والآراء العادلة المنصفة الصحيحة فى نهاية المطاف، بعد عشرين أو ثلاثين عاماً.

ثم من الذى يقدر سلامة نشر هذه المذكرات أو عدم سلامتها؟ وفائدتها أو عدم فائدتها وصحة أحكامها؟ إن صاحب المذكرات حينما تفاجئه الوفاة يخلفها وراءه وهو لا يعرف إلى أي يد تصل مذكراته وهو لا يدرى مدى أمانة هذه اليد أو مدى صحة تقديرها فى النشر وعدم النشر، والنشر الذى يجوز فى عهد من العهود قد لا يجوز فى عهد آخر فمن الذى يختار الظرف المناسب والعهد المناسب؟ إن المسألة دقيقة جداً، وتتضاعف وتتعقد إذا وقعت هذه المذكرات فى أيدى ورثة مختلفين، أو فى يد أصدقاء وأعوان أو فى يد أية جهة أخرى لا تمت إلى صاحب المذكرات بصلة ومن يضمن صحة التقدير فى النشر وعدم النشر بالنسبة لهؤلاء جميعاً؟

حدث أكثر من مرة أننى طعنت طعناً مراً من شخصيات عظيمة أثناء ثورة ١٩١٩، وقبل ذلك أثناء الحرب الأولى ثم غيرت رأيى بعد ذلك بسنين، بعد أن غير هؤلاء الأشخاص خططهم ومبادئهم ودورهم الوطنى فكفروا عن ماضيهم واستحقوا تقدير الوطن.

لم أفكر وأنا أدون رأيى أن أحذف من مذكراتى رأيى الأول، فمن هو الناشر الأمين المدقق الذى يتعقب كل هذا حين ينشر المذكرات، ويحلل الظرف الذى دونت فيه والملابسات التى حاقت بصاحب هذه المذكرات..».

ورغم كل ما قاله إلا أن الصواب جانبه فى حرق هذه المذكرات لأنها جزء من مذكرات وطن، وقد ألح عليه أحمد بهاء الدين كثيراً فى أن يعيد كتابتها لكنه رفض فجعل المقربون منه يلحون عليه لكنه رفض أيضاً.

وقد كتب فكرى أباظة وصيته وهو شاب فى الثلاثين من عمره وتمنى أن تكون ذكراه ذكرى مرحة تشترك فيها الحسان وتنشر فيها العطور .. ولكنه الضاحك الباكى رحل فى ١٩٧٩/٢/١٤ عن عمر يناهز الـ٨٢ عاماً .. رحمه الله.

- محمود السعدنى:

- أخذت ما أستحق من تكريم فى سجون القلعة والفيوم والواحات..!!

- عندما يصطدم المواطن بالسلطة فمصيره مثل كلب صدمته سيارة!! نقل على الطريق السريع!!

- لأجل ابنتى بكيت فى لندن مثل متسول على باب السيدة!!

□□□

حين كانت توصد القاهرة أبوابها في وجهي كنت ألجأ إليه طالباً منه المشورة والرأي، ويشهد الله أنني لم أكن أهاتفه قبل الذهاب إليه حين كنت أذهب دون أخذ موعد مسبق، وهو أهم كاتب ساخر فى وطننا العربى، وهناك صغار الناس لا تستطيع أن تقابلهم دون موعد لأن الكرسى «علاّهم» .. وهو تاريخ صحفى يمشى على قدمين .. وقطعة من تراب مصر العتيد.

حين كانت القاهرة تظلم ليلها – ونهارها أيضاً – فى وجهى – وكثيراً ما فعلت – كنت أذهب إلى محمود السعدنى وكانت نظرة عينيه تفضحنى دون أن أهمس ببنت شفة «وراك إيه؟» .. هكذا كان يسألنى وحين لا أرد «يشخط» بصوته الذى وضحت فيه غربة الزمن «إيه اللى حصل .. انطق؟».

حين صمت السعدنى فى ليل القاهرة صَمَتُّ .. كُسِرْتُ .. أحسست أن العصا التى تسندنى قد انشطرت نصفين .. ورحت أتحسس قدمىّ لأتأكد بأنى مازلت أستطيع المشى وقد أصبت ذات يوم بآلام مبرحة فى قدمى، وكان السبب محمود السعدنى، فقد كنت أسأله عن صحته وهو يستند علىّ – فى بعض الأحيان – فيقول لىّ: قدماى تتعبانى كلما صعدت الرصيف أحس بألم. وكأنى توحدت معه فى الألم.

كان محمود السعدنى يملأ الدنيا صراخاً وخناقاً وضحكات، لكنه الآن يجلس فى بيته بضاحية الهرم يواجه فى صمت الحكماء شيخوخة نبيلة.

ولعل محمود السعدنى كان أكثر الناس تحفيزاً لى حين طرحت هذه الفكرة – «الذين أضحكوا طوب الأرض» – أمامه.

وأذكر أنه ذات ليلة والسعدنى يطمئن على انتقالى للسكن فى شقة جديدة ويحاول التعرف على هوية المكان والجيران إذ بى أتذكر الفكرة فأقول له فجأة:

– عم محمود .. ما الذى قدمته الكتابة الساخرة للمجتمع .. هل أفاد الأدب الساخر والصحافة الساخرة مجتمعهما؟

كان السؤال «مفاجأة» وكان السعدنى فى موال آخر، وصمت كعادته قبل أن يتحدث فى موضوع يطول الكلام فيه ثم قال: لولا السخرية ولولا الضحك لمات الناس ..

السخرية استطاعت أن تنسى الناس كثيراً من همومهم وتقدم لهم المعلومة دون تعقيد .. بل الكتابة الساخرة هى الأقرب إلى الناس لأن جملتها بسيطة وأسلوبها سلس وطريقة الإقناع بها أقوى .. كما أن الشعب العربى يعشق النكتة ويميل إليها .. كما أن الكتاب الساخرين هم الأشهر على مستوى العالم ولكتاباتهم مكانة عالية وقامة لا يطاولها أحد وليس أدل على ذلك من أدب برنارد شو.

السخرية تعطيك الحكمة وأنت تضحك ولا تتساها وانظر لشخصية جحا ومواقفه الساخرة وهو أبو الظرفاء.

بعض الساخرين قاد الجماهير وأشعل نار الثورة مثل الزعيم الساخر عبد الله النديم .. حين كان عبد الله النديم يذهب إلى المقاهى الحقيرة فى أحياء الإسكندرية ويجلس مع النشالين والحمالين الساخرين مما تفعله بهم الحياة ويحاربونها بالنكتة، والنديم قرر تزعم هؤلاء الناس بالسخرية أيضاً ودفعهم نحو ثورة عرابى .. وأسألك أنا هل أفيد المجتمع والتاريخ من الكتابة الساخرة؟!

يعتدل الولد الشقى ويميل إلى الخلف على كرسيه ناظراً إلىّ وكأنه يغيظنى فقلت له: ولكن العديد من الحكام على مر العصور يرون الساخر كمهرج للملك أو يرونه القرداتى أو المضحك؟

- آلمه السؤال فقال لى: وهل كان جحا مهرجاً للملك؟

لم يحدث أبداً .. كذلك عبد الله النديم الذى لم يجد ما يا زكله لكنه لم ينافق ملكاً ولا حاكماً .. بل لقد شاءت له الأقدار أن يعين النديم فى سراى «والدة باشا» عامل تلغراف وكان سيد القصر هو «آغا باشا» وكان منظره يدعو إلى الضحك حين كان كرشه كبيراً وكان بديناً وحبكت القافية مع النديم فأنشد فى الرجل زجلاً فى غاية السخرية:

شوف الآغا فى النغنغا .٠. زى التيران فى المزرعه

لو كنت أنا صاحب الآغا .٠. كنت اشتريت له بردعه

وعندما علم الآغا بهذا الزجل أمر بطرد النديم من القصر، وأمر قبل طرده أن يضرب بالقباقيب حتى أغمى عليه!

أليس عبد الله النديم ساخراً قولاً وكتابة وهو الذى كان يخطب فى الناس لإيقاد روح الثورة داخلهم حتى يشاركوا فيها جميعاً لا عرابى ومن حوله فقط: «أيها المصريون لا حياكم الله ولا نجاكم، ما دمتم تعيشون كالسائمة تأكلون من حشائش الأرض وتقبلون أياديكم المشققة ظهراً وبطناً.

«أيها المصريون، شموا رائحة أجسامكم، إنها نتنة قذرة والنيل يجرى بينكم، استمعوا إلى صرخات أمعائكم وواديكم يملؤه الخير، انصتوا إلى صوت الله يلعنكم مع أنكم حفظة كتابه وحملة رسالته».

وهل كان حافظ إبراهيم أو عبد العزيز البشرى أو عبد الحميد الديب أو كامل الشناوى من مهرجى الملك .. أو أنا هل كنت كذلك؟!

لم يحدث إطلاقاً أن ذهبت للجلوس إلى حاكم للتنكيت معه وإضحاكه .. إن الكاتب الساخر جمهورية بمفرده ولها شعوب وليس شعب واحد.

ولأن السعدنى يحب حياته حتى الثمالة بكل ما فيها مثل مسرحية أروين شو «الموتى يرفضون الدفن» حيث رفض البطل - الجندى - أن يدفن بعدما أصابته رصاصة قاتلة وصرخ فى وجه المشيعين: إننى أرفض أن أدفن، فصرخ فيه أحد المعزين: لقد كانت حياتك سلسلة من العذاب، ولم يكن لك مستقبل ولا أمل، وكنت تأكل أردأ أنواع الطعام وتدخن أحقر أصناف السجائر وكانت جيوبك مثقوبة وبيتك خالياً من الأثاث والرياش والآن ترفض الدفن أيها المعتوه وتريد العودة إلى نفس الحياة، ورد عليه الجندى الذى يرفض الدفن: لقد كانت حياتى وأنا أحبها!

لذا قررت التوغل فى حياة السعدنى القاسية الجميلة وأيت عن أسئلتى السابقة فقلت له: لعل مقالب الطفولة فى حياة محمود السعدنى محفورة فى الذاكرة .. فما أكثرها إضحاكاً حين نتذكرها؟

ذات مرة قذفت أحد المارة بطوبة، وجريت أسرع من المجرى، لكن الرجل الطويل الذى قذفته بالطوب جرى ورائى، وتخبطت رجلاى فى بعضهما فأيقنت أنى هالك فعضلاته مثل شواريزنجر وكف يده كالمرزبة، ودخلت دكان خياط بلدى، وكان معروفاً عن صاحبه الشهامة والجدعنة وإغاثة الملهوف، وأغاثنى هذا الرجل، ولأن الذى قذفته

بالطوبة كان غاضباً جداً منى، انهال بالضرب على صاحب الدكان، وأخذ يضربه ذات اليمين وذات الشمال، ولما شبع وشفى غليله منه انسحب فى هدوء ولم يبحث عنى، وبدون مقدمات استدار صاحب الدكان إلىّ وانهال علىّ ضرباً وركلاً، وشاطنى فى الأرض كالكرة .. وندمت لأنى لم أترك الرجل الذى قذفته بالطوبة يضربنى لأن انتقامه سيكون أخف من انتقام الخياط الذى ضُرب دون ذنب سواى!!

- هل كنت أيام دراستك تلجأ أيضاً إلى السخرية؟

يقول الولد الشقى: كنا فى المدرسة وجاء المفتش وسألنى أمام المدرس عن أحب الفواكه إلى قلبى؟ فقلت له: الجوافة .. وأخذت علقة بسبب الجوافة بعد انصراف المفتش؟ فقد رأى المدرس أن ما قلته إهانة للمدرسة وكان يجب أن أقول التفاح .. وأنا قلت الصراحة فالجوافة أحب إلىّ من أى فاكهة أخرى .. بل وهى التى دمرتنى لأن عندى المصران الغليظ ولم أستطع الكف عن تناولها.

وأخذت السعدنى للحديث عن السخرية والصحافة وله فيها عدة انفرادات فهو أول من أجرى حواراً مع الملك محمد الخامس ملك المغرب عقب توليه الحكم .. وأول من قابل الحبيب بورقيبة بعد خلع الباى .. وهو من أوائل الذين قاموا بتغطية أحداث الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤ كما أنه أول صحفى يدخل قاعدة هويلس الأمريكية فى ليبيا ويكتب عن أحوالها فقال: لقد أرسلت عدة مقالات لأحمد قاسم جودة رئيس تحرير جريدة الكتلة ونشرت المقالات وراء بعضها «موقع عليها» بقلم محمود السعدنى ومرت الأيام وذهبت للقاء أحمد قاسم جودة، ولما رآنى لم يصدق أنى محمود السعدنى الذى يراسله .. ولما تأكد قال لى: لن أستطيع أن أنشر لك مرة أخرى لأنه لو علم أحد من قراء الجريدة بأن الذى يكتب شخصاً فى مثل سنك فلن يشترى الجريدة مرة أخرى .. وطلب منى أن أتعلم الصحافة أولاً، وأرسلنى لمصلحة العمل - ووزارة الشؤون الاجتماعية - لآتى بأخبارهما لجريدة «الكتلة» ثم انتقلت بعد ذلك مع أحمد قاسم جودة للعمل جريدة «النداء» التى كان يمتلكها ياسين سراج الدين ثم ذهبت لجريدة «صوت الأمة» مع أحمد قاسم جودة أيضاً» .. وفى عام ١٩٤٨ ذهبت للعمل بجريدة «مسامرات الجيب» وكتبت فيها عن الضباط الشهداء فى حرب فلسطين حيث كنت

أذهب إلى لقاء أسرهم وآخذ صورا للشهداء سواء صور بورتريه أو مع أسرهم .. وبعد أن أوصدت مسامرات الجيب أبوابها ذهبت إلى مجلة«الاثنين» مع مجدى فهمى ويوسف جبرة وفؤاد نخلة وفقوميل لبيب ثم أنشأ مأمون الشناوى جريدة «كلمة ونص» وعملت معه فيها وأيضاً عملت معه فى «الستار» التى أسسها شفيق مرشاق وتعرفت عن طريق مأمون على أخيه كمال الذى عملت معه فى جريدة «الجمهورية» بعد أن عملت فى عدة جرائد ومجلات مثل المصور والقاهرة والتحرير ورعانى كامل الشناوى وكان يتركنى طوال الليل فى الجريدة أقوم بدوره وأحل محله وكان يترك لى تليفون المكان الموجود فيه فأطلبه ليقول لى: ماذا أفعل، ثم أذهب إليه حين تصدر الجريدة ليرى العدد، وكان كامل يسهر عند مشاهير المجتمع مثل عبد الوهاب وأحمد فؤاد حسن وغيرهما وكان عمرى وقتها تسعة وعشرين عاماً وفى عام ١٩٥٨ التحقت للعمل بروزاليوسف وفى سنة ١٩٦٠ عملت بمجلة صباح الخير وترأست تحريرها عام ١٩٧١ ثم عدت للعمل بروزاليوسف بعد ذلك.

- ولكن ما أظرف موقف مر بك أثناء عملك بصاحبة الجلالة؟

آلاف المواقف وآلاف الحكايات .. فحين عملت فى روزاليوسف فى البداية تركتها لأنهم كانوا يحاسبوننى بالقطعة والقطعة بخمسين قرشا والحساب على النشر ولم أحتك بإحسان عبد القدوس لأنه كان ابن صاحبة الجورنال وابن ذوات وكاتب معروف وناجح، فقلت إنه بالتأكيد مغرور وخلينى بعيد عنه وذهبت للعمل فى جريدة النداء وكان مدير تحريرها زكى الجوهرى الذى لم يكن يفهم فى شىء وكلما قابلنى كان يسألنى «معاك مناشط يا سعدنى» والمناشط يقصد جمع مانشيت، وتعبت من هذا الرجل الذى لم يكن يفهم شيئاً، فى الصحافة لذا قررت أن أعطيه مانشيتات فكتبت له مانشيت يقول: «القوات البريطانية جهزت قنبلة ذرية فى القناة «ونشر زكى الجوهرى المانشيت بالبنط الكبير وأنا أصلاً لم أر القناة ولا سافرت إليها..

بعد ذلك تعرف على إحسان عن طريق كامل الشناوى وتصادقنا حتى رحيله فبعد فصلى من الجمهورية استقبلنى إحسان وجعلنى أعمل معه سكرتيراً للتحرير فى روزاليوسف.

حين سافرت إلى بيروت وأسست هناك جريدة الجمهورية التى كان لها كتاب عديدون ولكن كانت بلا محررين!!

وقررت أن أحقق عدة انفرادات للجريدة كان آخرها هو سبب إغلاقها حين فبركت حديثًا مع الرئيس ماوتسى تونج وكانت المناوين «نصف مليون متطوع صينى فى طريقهم إلى القاهرة!! جبهة جديدة فى الشرق الأقصى إذا لم يخرج المعتدون من مصر!! وانقلبت الدوائر السياسية فى بيروت.. وجاءت مراسل البرافدا فى الشرق الأوسط إلى إدارة الجريدة ليسأل عن اسم المحرر الذى أجرى الحوار مع ماوتسى تونج فقلت لع إسمه «شوانج شانكو» وهو مراسلنا فى الصين !! وصدر الأمر بعد ذلك بإغلاق جمهورية بيروت.

ويروى السعدنى قصة أخرى لبداياته الصحفية فى كتابه مسافر بلا متاع حيث يقول: «فى بداية حياتى الصحفية أكرمنى المولى العزيز بالجلوس فى حجرة واحدة مع العبقرى الخالد بيرم التونسى وكان بيرم التونسى فى نظر جيلنا أسطورة من الأساطير. كان كاتباً ساخراً وشاخراً أيضاً، أصدر أكثر من عشرين جريدة وصحيفة، ولكن سلطات الاحتلال وقفت له بالمرصاد فطاردته على طول الخط وصادرت جميع المجلات والجرائد التى أصدرها، وكان القانون وقتئذ يحتم على كل صاحب جريدة أو مجلة الحصول على ترخيص قبل الصدور.

وقد حاول بيرم عدة مرات الحصول على هذا الترخيص دون جدوى، ولكن هذا الموقف الرسمى لم يصرفه عن تحقيق هدفه فأصدر مطبوعة باسم المسلة وكتب تحتها عبارة .. لا جريدة ولا مجلة .. ولما كانت لا جريدة ولا مجلة فهى لا تحتاج إلى أى ترخيص من أى نوع ولأن عمنا بيرم كان شعبياً وبسيطاً فقد توطدت الصلة بينى وبينه، وكان فى لحظات صفوه يحكى للعبد لله عن معاناته فى المنفى وعن دوخة بنى التى تعرض لها فى الغربة. والنصيحة الوحيدة التى أسداها للعبد لله .. أنى أهجر الأسلوب الساخر الذى أكتب به وأوصانى باتباع الأسلوب الحنجورى بحيث تحمل المقالة عدة أوجه .. تقرؤها فتتصور أنها هجاء ويقرؤها غيرك فيتصور أنها مديح، كلام من نوع الشواشى العليا للبرجوازية والشفق المذهق على قفا الأفق، كما كان يكتب السادة

الحناجرة، أو كلام على طريقة السادة السناكحة نسبة إلى سنكوح بن مزاحم الذى كان والياً على ديوان الإنشاء للقائد أبرهة وكان عليه أن يكتب الرسائل والفرمانات بلغة يفهمها جميع البشر من روم وعرب وعجم وفرس وزنوج، فكان يكتب فى رسالته شيئاً من شندبار يلوح فى السواهيلى ويكشف عن رجل ملم نشطل مكارف مظروف على خوشى أمديد زغتى..

وقال لى عمنا بيرم التونسي: إذا التزمت بهذا الأسلوب الساخر خلال حياتك الصحفية، فتكون حياتك فى مهب الريح وأيامك أسود من الزيتون المدهون بالورنيش، ولياليك يا صاحبى أزرق من الهدوم المصبوغة بالنيلة..

لأنه لا يغيظ المسؤل إلا أن تتناوله بأسلوب ساخر يهتك ستره ويكشف حقيقته ويمزق الثوب الكاذب الذى يحرص على أن يظهر به أمام رؤسائه، لأن المسؤل عادة ما يكون مثلنا .. غلبان وتعبان ومهزوم فى داخله، ولكنه يحرص دائماً على الظهور وهو فى مكتبه العاجى سواء كان محافظاً أو وزيرا أو رئيس مجلس إدارة، صورة تخالف حقيقته فيتعمد أن يعوج رقبته أو أن ينفخ أوداجه، فإذا سخرت منه فقد نكأت جراحه، واللعب في الجروح يستفز ويهيج صاحبها ويجعل منه وحشاً يتصرف كالنمر الجريح..

ولكن العبد لله لم يستمع – لسوء الحظ – إلى نصيحة عمنا بيرم التونسى، وأشهد أننى كتبت سطوراً ساخرة تجرح وتدمى فى الوقت نفسه ولم يعترض طريقى أحد وتناولت شخصيات رسمية كبيرة فى حجم وقامة زعماء ورؤساء وزارات ونشرت سطورى على صفحات مجلة – كلمة ونص – التى كان يرأس تحريرها الفنان مأمون الشناوى، ولم يتحرك ضدى أحد، ربما لأننى كنت صغير السن ومجهول الاسم، وربما اعتبروا سطورى لعب عيال أو شيطنة صبيان، ولكنى أخطأت الحساب مرة فتناولت رجلاً عظيماً بكلمات ساخرة. وكان هذا الرجل هو الشيخ مصطفى إسماعيل وكانت هذه أول دعوى تنظرها المحاكم ضد العبد لله. وهى مسألة غريبة لأننى كنت أعشق مصطفى إسماعيل وأتبعه فى كل مكان يذهب إليه. ولكن النكتة حبكت مع العبد لله فكتبت فى نهاية المقال .. أقول والشيخ مصطفى إسماعيل يدخن السجاير .. ويشرب الكازوزة و... هل أقول...؟ فأنت من عشاق الشيخ مصطفى إسماعيل. ثم علمت بعد

ذلك .. أن الشيخ لا علاقة له بالدعوى المرفوعة أمام المحاكم ولكنه اجتهاد أحد المحامين النشيطين وقد تم سحب الدعوى بإشارة من الشيخ نفسه!

أما عن السخرية من المسؤلين فيقول السعدني: «وسخرت جداً من وزراء فى عهد عبد الناصر، أشهرهم أنور سلامة وزير العمل بخصوص البدلة الشعبية والمهندس عبد الخالق الشناوى وزير الرى بخصوص الحفل الذى أقامه بخصوص الانتهاء من مشروع مهم.. وجاء فى بطاقة الدعوى التى وزعها على المدعوين وأنا منهم .. ضرورة الحضور بالملابس الرسمية.

بالنسبة للوزير أنور سلامة انتقدت مسلكه عندما ظهر يرتدى بدلة موهير وقميص نيتو وكرافتة أرجانس وشراب بحرية ولا حرية مقاتل فى أحراش كاتنجا.

وبالنسبة لحفل المهندس وزير الرى تساءلت على صفحات مجلة صباح الخير .. ما هى الملابس الرسمية فى نظر الوزير المهندس؟ هل نحضر بالجلابية السكروتة؟ أم بالبيجامة والجاكتة الصوف؟ أم يمكننا الحضور بالفانلة واللباس؟

والحق أقول أن وزير العمل ووزير الرى وهو مهندس عالمى بكل تأكيد تحملا سخرية العبد لله واعتبراها من باب الدعابة والنقد المباح.

ويتساءل السعدنى: «ولكن .. وبالرغم من القهر الأزلى والعذاب الأبدى .. هل أفضل للكاتب الصحفى أن يعيش عيشة موظف الأرشيف؟ أم يعيش على سن القلم كما يعيش المقاتل على حد السيف؟ هل أفضل للكاتب الصحفى أن يكون مثل بيرم التونسى؟ أم الأفضل أن يعيش عيشة خيرم التونسى؟ العبد لله يتمنى أن يعيش عيشة بيرم التونسى وأن أحظى بشرف خدمته فى كل مكان ولو كان فى تخشيبة قسم الخليفة»!

- هل تذكر «العلقة» التى أخذتها من الشاويش محمود الصيفى بسبب هيكل؟

-لا أستطيع أن أنسى هذا اليوم .. كنا فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٩ فى معتقل سجن المحاريق بالواحات الخارجة.

وكنت أعمل بالسخرة ضمن فريق أربعجى فرقة رقم ٤ حيث كنا مائة معتقل يسارى بينهم السياسى وأستاذ الجامعة والصحفى والشاعر .. وكنا نزرع الصحراء المحيطة

بواحة المحاريق الممتلئة بالثعابين والعقارب ووقعت عينى على الصفحة الثالثة من جريدة الأهرام وبها مقال لمحمد حسنين هيكل ونصفها مطمور فى الرمال ، وأحسست أنى وجدت كنزا فقد مضى عام لم نقرأ خلاله أى جريدة، واندمجت فى المقال وأفقت على كف الشاويش محمود الصيفى على قفاى فوقعت على الأرض وامتلأ فمى بالرمال وأخذ الصيفى ورقة الأهرام ومزقها وقال لى بعد علقة ساخنة «التفت لمستقبلك وحاول تتعلم مهنة الحفر فى الرمال علشان تجد لك سبوبة تأكل منها عيش بعد فخروجك من السجن»..

ورغم كل العذاب الذى عشته فى سجون عبد الناصر إلا أنك.

مازلت مادحاً له حتى الآن؟

لأن الذى فعل فينا ذلك هو نظامه وليس عبد الناصر فعبد الناصر هو الذى أطلق شرارة الثورة هو ورفاقه من الضباط الأحرار وغيروا وجه الحياة فى مصر فأعادوا الحقوق التى سلبها القهر والاستعمار .. عبد الناصر بطل عظيم وأسطورة لا تتكرر والذين يهاجمونه إما باشوات قضى على ضياعهم وإقطاعياتهم وإما سياسيون قضى على نفوذهم الذى استمدوه من السراى الملكية لكن الغريب أن يهاجمه الذين أثروا من ورائه والذين لولا ثورة يوليو ما كانوا شئا.

- هل استفدت من السجن؟

-ترددت على السجون ثلاث مرات، ولم أندم على دخولى السجن، ولم يعد فى ذاكرتى إلا الأشياء الجميلة منه ونسيت كل الإهانات التى تعرضت لها ولكنى لم أستفد شيئاً من السجن، فالسجن لم يفدنى بشىء لأنه بلا حياة وبلا إيقاع .. وبلا حركة ، أما الحياة فيها حياة «ودوشة» وتجارب وكل يوم تحمل جديداً عكس السجن الذى إذا قضيت فيه عشر سنوات فإن أيامها كلها متشابهة ومملة وكئيبة، ممكن تستفيد من السجن لو دخلته مرة واحدة وحبست شهرا واحدا فقط مثلاً تعرف التجربة وتترك أثراً داخلك أم أنك تفضل رايح جاى على السجن فهذا هو العذاب بعينه.

- حين عدت إلى مصر فى الثمانينيات قمت برفع دعوى ضد النبوى إسماعيل وزير الداخلية الأسبق؟

لأنه سبنى علناً وأنا فى الغربة والمنفى بألفاظ خارجة تحت قبة مجلس الشعب إبان توليه منصبه كوزير للداخلية حيث وصفنى بأننى صاحب مدرسة الدعارة الصحفية وأننى أتسول بالخارج .. وقد طالبت بتعويض نصف مليون جنيه بسبب هذا التشهير الذى تم فى الجلسة الـ٥٠ لمجلس الشعب والتى عقدت علناً يوم ٥ إبريل ١٩٨٠ وقد حكمت لى محكمة جنوب القاهرة بإلزامه بدفع ثلاثة آلاف جنيه وألزمته المحكمة بنشر منطوق هذا الحكم فى الجرائد القومية الثلاث.

ولعل السعدنى محق فى قضيته هذا ويكفى قصة واحدة من قصص العذاب التى تعرض لها وهى قصة ابنته هالة حين ذهب ليعالجها من الشلل الذى أصيبت به بسبب الإهمال ونتيجة دخوله المعتقل حين يقول: «فى لندن فى شارع اسمه هارلى كل ما فيه دكاترة وكبار الدكاترة هناك يلقبونهم بمستر ولا يخلعون عليهم لقب دكتور.

المستر الذى كنت ذاهبا إليه اسمه مستر أوسمان كلارك، وتقابل سبحانه جل جلاله ولا تقابل مستر أو سمان كلارك، ولكن عشمى فيه كان كبيراً ووالله الله .. فبينى وبينه صلات دم وقرابة .. فالرجل المستر اسمه أوسمان وأنا اسمى محمود عثمان السعدنى، أوسمان لابد أنها كلمة عثمان بالإنجليزى، أو عثمان لابد وأنها كلمة أو سمان بالعربى .. ولابد أن عيلتى وعيلته من أصل واحد .. ولابد أن جدى رحمه الله جاء مع الغزو الإنجليزى الذى حدث أيام المماليك ثم أعجبه الأهرام وأبو الهول فاستقر به المقام فى المنوفية، أو ربما - من بدرى - جدى يرحمه الله ربطوه فى الحبال وجرجروه على السلطة .. ثم هرب إلى لندن وتبرطن أى أصبح - بريطانيا وغير اسم عثمان إلى أوسمان المهم أننا قرايب وأولاد عمومة وسيأخذنى بالحضن وسآخذه بالرأس.

ولفعت هالة على أم رأسى وذهبت إلى شارع هارلى ودخلت على سكرتيرة أوسمان كلارك، ولم تكن سكرتيرة واحدة .. كانوا عشر سكرتيرات جميلات مهندمات ولهن رئيسة عجوزه شعرها شايب ولها شارب لولا الملامة لوقف عليها الأسد البريطانى .. إذ ليس فى بريطانيا صقور!!

ووقفت ملطوعاً أمام الست العجوزة حتى تكرمت وخاطبتنى، فقلت لها على الفور كأنى مدفع رشاش انطلق فجأة: أنا يا سيدتى محمود أوسمان السعدنى حضرت خصيصاً من منوف لزيارة ابن عمنا عميد عائلتنا المستر أوسمان.

ولكن المرأة العجوز الأرشانة نظرت إلى الهيئة فلم تعجبها إن مستر أوسمان أبيض على أحمر .. وله لغد اللهم صلى على النبى (ص) .. ومن عائلة لابد كانت تأكل وتشرب منذ مائة عام .. والهيئة التى أنا عليها لا تدل على أننى من عائلة إطلاقاً، وإذا كان الأمر ولابد فلابد أننى من عائلة لم تأكل ولم تشرب منذ مائة عام .. وهزت المرأة رأسها أسفاً وقالت: ليس هنا المكان الذى تبحث عنه .. لابد أنك أخطأت العنوان.

والإنجليز ناس ساخرون للغاية ولكنهم مأدبون يجرحونك دون إسالة دم، ويهبشوك دون أن يتركوا فى اللحم أثراً وأدركت أن المرأة المهروشة تلمح لى أننى ربما أبحث عن مستشفى الكلب. فقررت أن أفحمها وألجمها فكشفت لها عن وجه هالة..

وابتسمت السكرتيرة وقالت: من أجل ذلك سأجه لك تراه فى شهر نوفمبر!!

تصور .. فى شهر نوفمبر! ونحن فى أغسطس، والعبد لله أنظف من الصينى بعد غسيله! وتوسلت إلى الست المهبوشة أن ترحم غلبوبتى وتسمح لى بالدخول على مستر أوسمان كلارك .. ولكن أبداً رأسها وألف سيف لا أدخل عليه ولا أراه إلا فى نوفمبر .. ولم أجد بداً من البكاء فبكيت! وما أغرب منظرى وأنا أبكى كمتسول على باب السيدة.. وأخيراً رق قلب الست .. رضيت علينا وقالت: إذن ستدخل عليه بعد عشرة أيام .. وعصلجت هنا فلم أتزحزح .. ولما اكتشفت أنه لا جدوى من البكاء توقفت دموعى عن الجريان وحملت هالة وانصرفت..».

بعد ذلك عاد السعدنى إلى مستر أوسمان الذى قال له: «هذه عملية دقيقة يمكن أن يجريها أى جراح متخصص بجراحة شلل الأطفال وأنا أرشح لك المستر بروكس، سأتصل به حالاً».

المستر بروكس يا بنى هو أقدر من يجرى هذه العملية .. فهو طبيب مختص .. وهو سيجريها لأننى طلبت إليه ذلك .. ولو أنك ذهبت إليه وحدك لما سمح لك بالدخول عليه قبل عشرة أسابيع .. ثم هناك سبب آخر يجعله أقدر منى على إجراء العملية لسبب وجيه هو أن مستر بروكس مشلول هو الآخر مثل هالة! «عصرت الكلمة الأخيرة قلبى وشدت أذنى».

مواقف أخرى تدل على عذاب السعدنى فى غرى وهو عكس ما قاله السيد الدموى إسماعيل منها ما حدث مع ابنته التى ظلت تسعة أشهر فى أحد مستشفيات لندن ولا

يستطيع والدها دفع مليم من نفقات علاجها.. وتركت العيادة وأنا أكثر حيرة.. مما دخلتها، فأجر الطبيب ليس هو المشكلة فلن يتعدى أجره ألفاً وخمسمائة جنيه استرليني بأى حال من الأحوال وهو مبلغ تافه يمكن جمعه حتى لو اضطرتنى الظروف إلى الوقوف على ناصية شارع أوكسفورد أسأل الخواجات حسنة لكاتب على باب الله ينتسب لأمة من أغنى أمم الأرض. ولكن المشكلة فى فاتورة المستشفى وسيقترب المبلغ من أربعين ألف جنيه استرليني، وهى مشكلة لا أعرف لها حلاً! لو كانت أسواق العبيد قائمة كما كان العهد بها فى سمرقند وبغداد والقاهرة لذهبت وعرضت نفسى فى هذه الأسواق على السادة المماليك وقادة الألف والمائة والعشرة وأصحاب الطبلخانات والبيراقدارات مهرجاً فى قصر مضحكاً فى حاشية، كداب زفة فَى غزوة، أى فاتورة وأى مهنة مقابل دفع فاتورة المستشفى ولكن هذه الأسواق للأسف الشديد اندثرت مع غيرها من معالم العصر القديم - ما العمل إذن؟ وأين المفر؟»

لقد وعده العقيد معمر القذافى وظل الوعد معلقاً تسعة أشهر حتى تكفل أحمد السويدى وزير خارجية الإمارات بعدما عرض الأمر على الشيخ رايد رئيس إمارة أبو ظبى - وقتها - بعلاج هالة على نفقة الشيخ زايد.

أيضاً قول السعدنى قبل عودته إلى مصر «وبينما أنا شديد السعادة لانتهاء الحرب بينى وبين النظام المصرى، أكاد أطير فرحاً بقرب عودتى إلى القاهرة، وإذا بخبر مفجع يصدمنى بشدة ويبدد فرحتى تماماً.

ففى صباح أحد الأيام اتصل بن أحد الصحفيين العرب .. فاجأنى قائلاً: البقية فى حياتك وظننت أن أحداً من أصدقائى قد توفى، وشكرته على تعزيته الرقيقة، ولكنى اكتشفت خلال حديثه أن أمى هى التى ماتت، واكتشفت أيضاً أنها ماتت من سنوات دون أن أدرى، واعتذرت للصديق عن عدم استطاعتى الاستمرار فى الحديث ورجوته أن يضع سماعة التليفون لكى أنفرد بعض الوقت بنفسى.

يا لها من ضريبة ثقيلة يدفعها الإنسان إذا أجبرته الظروف على الاصطدام يوماً ما بالسلطة، فى بلادنا بالذات!

عندما يصطدم المواطن بالسلطة فمصيره مصير كلب يصطدم بسيارة نقل على الطريق السريع ، تتناثر جثته ألف قطعة ولا يسرع أحد لنجدته ولا يهتم أحد بدفنه!

ها أنذا وبعد أن دخت دوخة يني، ها هى أمى تموت وأنا بعيد، لم أحضر وفاتها، ولم أمش فى جنازتها، ولم أنزل خلفها فى غياهب القبر ماتت المسكينة بعد مرض عضال لم يمهلها إلا قليلاً».

«... وفى الليل البهيم وأنا جالس وحدى اكتشفت أن رغبتى فى العودة قد فترت وأن نصفى قد مات بالنسبة للعبد لله. فلم تكن أماً عادية ولكنها كانت عنيدة وشديدة البأس ومقاتلة شرسة لا تكف حتى تصل إلى كل الأهداف.

وعندما جاءت لزيارتى أول مرة فى السجن، لم تبك ولم تضعف وقالت لى فى نهاية الزيارة انتبه لصحتك ولا تشغل بالك ، فأنت هنا أسعد حظاً من الذين خارج الأسوار!

اقرأ كتابه الولد الشقى فى المنفى لتعرف ما حدث لهذا المسكين الذى مزقه النظام الذى تنتمى إليه يا وزير داخليتنا الهمام نبوى بك إسماعيل.

- لماذا لم يعجب الناس رأيك فى «الحشيش»؟

أرى أن أى إنسان متيسر مادياً ومعيشته جيدة وصحته جيدة ويأكل فى بيت جيد فلا خطر عليه من الحشيش وأذكر أيام عبد الناصر أن الدكتور أنور المفتى، وكان أعظم طبيب فى مصر جاء فى التليفزيون المصرى وقال: الحشيش غير ضار بالصحة نهائياً والخوف فى مسألة الحشيش على العمال الغلابة فالحشيش ليس عيباً ولا حراماً!!!

- وهل صحيح - كما ذكرت - أن سيد درويش مات من الهيروين والكوكايين؟

بالطبع فقد حكى لى الشيخ محمد الصيفى أن الشيخ سيد درويش ذهب ونام فى بيت الشيخ على محمود فى باب الخلق وظل نائماً لفترة طويلة، وأوصد الباب على نفسه بعد ذلك ثلاثة أيام ولما كسروا عليه الباب وجدوا على الأرض ٣٠ تذكرة هيروين فغضبوا جداً.

- ما الفرق بين الحارة التى عشت فيها والحارة التى سطرها نجيب محفوظ فى رواياته؟

نجيب محفوظ فى كتبه، حارة شعبية مصرية فى حى الفاطميين فى سيدنا الحسين والجمالية، وهذه الحارة مختلفة تماماً عن حوارى الجيزة.

- كيف ترى السينما الآن؟

سمعت عن رداءة المعروض ولكن آخر مرة ودخلت فيها سينما كانت عام ١٩٧٤ وشاهدت فيلم أجنبى والواقع أننى كنت أهاجم السينما زمان رغم كل روعتها فلم أتصور أن يصل الحال إلى ما نحن فيه الآن، زمان كانت هناك أعلام غريبة مثل امرأة على الكوبرى، وامرأة على النخلة وامرأة لها ماضى، وامرأة لها اثنين، وامرأة بين امرأتين، ولكن الحال الآن صار أسوأ بكثير عما كانت عليه السينما قبل ذلك.

وإذا انتقل الحديث معك عن المسرح وقد قدمت عدة مسرحيات قبل ذلك مثل فيضان النبع وعزبة بنايوتى والنصابين، ودعنى أذكرك بكلمات كتبها إحسان عبد القدوس فى الكواكب فى ٣١ مايو ١٥٦٦ حيث كتب «كان الزميل محمود السعدنى فناناً جريئاً عندما اختار شخصيات مسرحية «النصابين» ورسمها فى خطوط صريحة واضحة .. ولكنه بدأ يفقد جرأته وهو يحرك هذه الشخصيات ويستغلها .. بل إنه بدأ يفقد محمود السعدنى نفسه ويحاول أن يبدو فى شخصية أكثر جدية ووقاراً .. كأنه لم يؤمن أن محمود السعدنى أكثر جدية من محمود السعدنى الوقور .. وخيل إلىّ فى بعض المشاهد أن السعدنى الساخر ترك شخصياته وقال لها: «اتكلموا على كيفكم» .. ورغم ذلك فهذه اللمعة الفنية التي يمتاز بها السعدنى نشدك إلى المسرحية من أولها إلى آخرها وتجعلك تحب شخصياته حتى لو كانت تتحرك بأسرع من المنطق»!

مقاطعاً: عمنا إحسان يقول ما يشاء وهذا حقه وأنا أحبه ويسعدنى كلامه عنى لأن إحسان فنان جميل لا يتكرر.

- إذن كيف ترى المسرح الآن بعدما لم تعجبك السينما؟

فى الستينيات كنت تجد على خشبة المسرح فى مسرحية واحدة مثلاً سميحة أيوب وسعيد ابو بكر وأحمد الجزيزى وعبد المنعم إبراهيم وتوفيق الدقن وحسين رياض ورجاء حسين وفؤاد شفيق وحسن البارودى.. الآن الممثلين لا طعم لهم ولا لون ولا وزن.. ولا يقدمون مسرحاً وإنما هتافان المعذبين!!

- هل تذكر موقف أضحك أثناء عرض مسرحية لك؟

نعم كنت أعرض إحدى مسرحياتى وقد أقنعت جدى خليل معوض بأن يأتى لمشاهدة أحد أعمال هينة، وقلت له أنها ليست رجساً لأن لا يوجد بها ممثلة واحدة، وجاء حبى بالفعل وجلس سعيداً وفرح أكثر حين شاهد محمد رضا على المسرح وحين ظهرت عقيلة راتب على المسرح هب مفزوعاً كمن لدغه عقرب وسبنى وسب زمنى اللعين بعد أن أخفى وجهه فى يديه وخرج صارخاً لاعناً لى ولمسرحى ولأيامى الهباب.

- كان موقفك غريباً من حرب الخليج الثانية فقد كنت فى خندق الكويت ثم دافعت عن صدام حسين بشراسة؟

لهذا الموضوع وقفة طويلة فقد استغرب العديدون موقفى من العراق ووقوفى مع الكويت مع أنى طردت من الكويت قبل ذلك وكتب على جواز سفرى «يغادر المذكور الكويت خلال سبعة أيام» ولما سألت وزير الإعلام الكويتى وقتها الشيخ جابر قال لى إن السبب هو السادات ولم يكن السادات ولكن السبب أنى كتبت عدة مقالات نقدية لم ترق للحكومة الكويتية فطردونى، وطردت فى هذه المرة بالذوق واللطافة وطردت مرة أخرى بالقهر فانتقلت وعائلتى إلى العراق استضافنى حزب السحل وعينت موظفاً بوزارة الإعلام براتب شهرى ٢٢٥ ديناراً والتحق أولادى بمدارس العراق ثم بجامعاتها .. وأنا أكره حزب السحل العراقى لكنى أكره الأمريكان وما فعلوه ببغداد التى ضربوها بالصواريخ وهى العروس الجميلة ذات الحضارة والتاريخ التى عاش بها المتنبى وأبو نواس القبانجى وشفيق الكمالي وناظم الغزالى.

وبغداد استقريت فيها عام ١٩٧٦ وشعرت فهيا أنى فى بلدى ولم أشعر بغربه عكس شعورى فى كل الدول التى أقمت فيها قبل ذلك ومرت السنون فى بغداد وتخرجت ابنتى هالة فى كلية السياسة والقانون وأكرم وأمل فى كلية الإدارة والاقتصاد .. وصدام حسين كان رجلاً بكل معنى الكلمة معى، وقد شكوت له ذات مرة من الذين ظنوا أنى لا

لاجئ سياسى لذا سأكون أسيراً فى قبضتهم فقال لى صدام حسين: «يا محمود ما عليك منهم فهؤلاء الصغار موجودون فى كل مكان على الأرض العربية وعلينا أن نقاومهم لكى نشق الطريق إلى المستقبل الذى نحلم به وعليك يا محمود دور فى أن تقاومهم بقلمك أنت هنا فى العراق فهى بلدك مثلما بلدى ومثلما مصر وسوريا وفلسطين والأردن هى بلادنا جميعاً».

فأنا ضد أن يحتل العراق دول غربية كما أننى ضد أن تحتل أمريكا دولاً عربية.

- عم محمود .. هل أخذت ما تستحق من تكريم؟

نعم فبعد أن أسست وسامى جوهر جريدة الجمهورية طبعة بيروت لسان حال جمال عبد الناصر وبعد عودتى إلى مصر بعامين وفى رمضان أخذنى ضابط من بيتى وكانت زوجتى حاملاً فى إبنى أكرم وكان عمر انتى هالة عامين ولم أعد إلى بيتى إلا بعد عام ونصف وكانت زوجتى وابنتى قد تركوا الشقة لعدم قدرتهم على دفع إيجارها ووجدت والدى وقد أصيب بانفجار فى المخ وهالة أصيبت بشلل الأطفال..

أيضاً كرمت حين نزلت فى سجون القلعة والفيوم والواحات ثم سجن القناطر بتهمة الخيانة العظمى ثم هجرت مصر بهدف عدم العودة مرة أخرى حتى جاء حسنى مبارك وعصره وكرمنى ولكنه تكريم يختلف عن التكريمات السابقة الحمد لله!!

– اتهمت بإنك نافقت كل الرؤساء؟

– من قال ها الكلام لم يقرأ حرفاً مما كتبته، فإذا كنت نافقت عبد الناصر فلماذا استقزيت فى السجون فى عصره.. وإذا كنت نافقت السادات فلماذا زرت السجون وخرجت مقهوراً من بلدى وعشت عشرات السنوات فى الغربة .. ان الواقع يقول غير ذلك وحياتى تقول غير ذلك .

– هل كنت تضرب أولادك أطفال؟

– من كان يستحق الضرب فينضرب ومن يستحق المكافأة يكافأ..

- الساخر.. الحكيم

محمد عفيفي ينجب بنتا بعد رحيله

بعشر سنوات!!

- زوجته:

أرسل نعيه خطأ إلى الأخبار فنشر

قبل وفاته

شعر بخجل شديد حين عرف أن الكرة

الأرضية لا يحملها ثور

□ □ □

نعم لدى الكاتب الساخر الكبير محمد عفيفى بنت أنجبها بعد عشر سنوات من رحيله، أنا أدعى، وزوجته اعتدال هانم -التى أخذت منه روحه الساخرة- تنفى وتقول لى: كان نفسى فى بنت، وأصر على ادعائى أمام الكاتبة الكبيرة سناء البيسى لكنها تقول لى إن محمد عفيفى – الذى جاورته فى مكتب حجرة واحدة فى أخبار اليوم عشر سنوات كان يقول «أنا أبو الصبيان». وذلك لأن لديه ثلاثة أولاد عادل ونبيل وعلاء .. وقد ضحك ابنيه نبيل – مهندس مدنى – وعلاء – مدير الشؤن القانونية بالأخبار – على ادعائى وقال لأمهما: مبروك جاتلك بنت.

والحكاية يا سادة يا كرام – أنى ظللت سبعة شهور أبحث عن رقم تليفون أولاده، والتقيت أحد مديرى تحرير الأهرام وحكيت له بحثى الدائم عن محمد عفيفى هذا الساخر الذى جعلنى أهيم وراءه كدرويش من مريديه، فقال لى فلانة هى ابنته، فقلت له مندهشًا: أعرفها منذ سنوات ولم أتوقع هذا .. وذهبت إليها فرحاً – فى وجود زميل لنا – وحكيت لها قصى مع محمد عفيفى وانبهارى به، وقلت لها بالتأكيد أنت تحبين شجرة التمرحنة التى فى بيتكم بالهرم والحيوانات الأليفة والفسدق حسبما كتب والدك، وكانت ضاحكة معجبة بأبيها! طوال حديثى عنه..!!، وقلت لها فى النهاية إننى أريد إجراء حوار معك عنه، وأصرت على الرفض دون أن تبدى سبباً، فطلبت منها أرقام إخوتها لأجرى معهم الحديث فقالت وقد طفرت الدموع من عينيها الجميلتين: أرجوك كفاية كلام فى الموضوع ده .. دول بهدلونا على الميراث وفيه بيننا قضايا ومحاكم وخلافه..!!

الزميلة العزيزة ليست ابنة محمد عفيفى ولا تمت له بأية صلة وقد ضحك أولاد عفيفى كثيراً على موضوع الميراث هذا بل وقالت لى زوجته: ليست هذه أول مرة تدعى فيه ذلك فقد قال لى صحفى من مجلة نقد اسمه أحمد الشريف إنها قالت له أنها ابنة الكاتب الساخر محمد عفيفى وسألتنى عن عمرها فقلت لها حوالى ثلاثين سنة، فقالت زوجة محمد عفيفى: زوجى قضى آخر خمس سنوات من عمره راقداً فى

السرير مصاباً بالسرطان، ويمد شهر يمضى ٢٥ عاماً على رحيله .. وهذا يعنى أنه خلفها بعد أن مات .. يرحمه الله!!

الغريب أن هذا الأمر تكرر معى قبل ذلك حين بحثت عن أحفاد المقرئ المعجزة محمد رفعت، حيث ادعى أحدهم أنه حفيده .. والشيخ رفعت منه برئ .. وعذراً لهؤلاء المدعين الذين دخلوا علينا فى موضوعنا قبل الحديث عن الساخر العظيم محمد عفيفى الذين عاش باحثاً عما يبكيه ليضحك الناس ممرورا مع أن الناس يبحثون عمن يضحكهم.. إنه الكاتب الساخر محمد عفيفى، أحد أهم كتاب السخرية فى الوطن العربى، بل - إذا جاز لى القول - وأعتقد أنه يجوز غصباً عنى وعنك، وأنه «أهم» وليس أحد أهم - كاتب ساخر انجبته أمة محمد .. وقد ولد يوم السبت ٢٣ من جمادى الآخرة عام ١٣٤٠ هجرية الموافق ٢٥ فبراير ١٩٢٢ بقرية «الزوامل» القريبة من «أنشاص» مركز بلبيس - محافظة الشرقية، لكنه انتقل مع أسرته إلى القاهرة ليدخل مرحلة الدراسة الابتدائية وينتهى منها عام ١٩٣٣ بالقاهرة، وحصل على الشهادة الثانوية فى مدرسة «التوفيقية» بشبرا بالقاهرة عام ١٩٣٨، والتحق بكلية الحقوق وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٤٢ ثم أصر على الحصول على دبلوم الصحافة ١٩٤٤ .. وكان يريد أن يكون أديباً وصحفياً فأصدر مجلة «القصة» عام ١٩٤٤ والتى لم تعمر كثيراً ولم تحقق مكسبا. وكان محمد عفيفى يحلم بالكتابة ولكن بطريقة مختلفة وجديدة واستطاع هذا إلى حد كبير كما أنه بدأ رحلته الصحفية مع كاتب مثله يسعى إلى التميز وجمال الأسلوب ورشاقته وقوته وهو أستاذ الصحافة محمد التابعى، وذلك بمجلة «آخر ساعة» فى منتصف الأربعينيات، وذلك أن عفيفى قرأ إعلانات مكثفة عن تجديد آخر ساعة .. وكان محمد التابعى كشاف مواهب، وأدرك حجم موهبة محمد عفيفى فكلفه فى البداية بتقديم أفكار لصور الكاريكاتير التى كان يرسمها صاروخان، ونجح عفيفى فى خلق أفكار جديدة وساخرة، لكنها سخرية ممتلئة حكمة لكى تواجه الناس أعباء وتكاليف الحياة التى يعيشونها .. وتميزت «آخر ساعة» بباب يكتبه محمد عفيفى وهو «ابتسم من فضلك» ويوميات «آخر ساعة» منذ ١٩٤٥ وحقق باب «ابتسم من فضلك» مجداً وانتشاراً لا يحلم به أى كاتب، وكان يكتب هذا الباب فى صفحة كاملة بمشاركة ريشة مصطفى حسين .. وعام ١٩٦٢ حرر باب «هذا وذاك».

وهناك مرحلة مهمة لا يجب أن نتجاوزها لعفيفى رغم أن مدتها عام واحد حيث عمل فى مجلة «اضحك» التى تصدر عن دار مسامرات الجيب عام ١٩٤٥ التى انطلق فيها قلمه متجاوزاً كل الحدود، وكأنه فرس عربى وجد أمامه صحراء شاسعة بعد سجن طويل؛ وقبل ثورة يوليو بعامين تزوج فى نفس يوم عيد ميلاده وأنجب ثلاثة أولاد عادل عام ١٩٥١ ويعمل طبيبا - ونبيل عام ١٩٥٧ - ويعمل مهندسا مدنيا - وعلاء ١٩٦٠ - ويعمل مدير عام شؤون قانونية.

وعن الاتجاه إلى السخرية وأسبابها كتب محمد عفيفى: «كثيراً ما تساءلت، وسئلت عن السبب الذى من أجله أميل إلى السخرية، ولماذا لا أعيش مثل غيرى من الناس فى رضاء بما حولى من المسلمات، وادعاً هادئاً مطمئناً فى الظلال الوارفة لشجرة الإجابات الجاهزة. وبشىء من التفكير وجدت أن هذا المزاج الساخر القلق كان شيئاً لا مفر منه، وكان نوعاً من رد الفعل الطبيعى لسنوات طفولتى وشبابى، تلك السنوات التى قضيتها وأنا أكثر الناس هدوءاً واطمئناناً ورضاء بما حولى من المسلمات والإجابات الجاهزة.

ومع ذلك فيبدو أننى لم أخل فى ذلك العهد كل الخلو من رذيلة الشك، بدليل ذلك السؤال الذى أذكر أننى وجهته لأمى ذات يوم.

إذ قلت لها إنه إذا كان من الضرورى لهذا الثور لكى يحمل الأرض أن يكون واقفاً على الأرض فكيف يتاح له أن يحملها وتحمله فى وقت واحد، سؤال لابد أنه أربكها وأفحمها، لكننى لا أظنها عدمت رداً يسكت شكوكى ويردنى إلى حظيرة التسليم الصامت بذلك الثور الجليل.

هذا مثل بسيط لما كانت أتحلى به فى تلك السن البريئة من جدية تامة نحو مسلمات الآخرين، وعندك أيضاً حكاية لقمة العيش الساقطة على أرض الطريق. فوفقاً لمسلمة أخرى من مسلمات أمى قضيت سنوات طويلة وأنا أعرف ما ينبغى أن أفعله عندما التقى بتلك اللقمة، وهو أن انحنى بسرعة لالتقاطها قبل أن تطأها الأقدام، وبالتوقير المناسب للنعمة أحملها وأودعها بجانب أقرب حائط. ولقد كانت تغمرنى وأنا أمارس هذه العملية لذة صوفية كبرى، حتى لقد كنت أسير مطرق الرأس تصيدا للقم الساقطة، ويكون يوماً فاشلاً ذلك اليوم الذى لا تصادفنى فيه لقمة.

وفى هذه المسألة أيضاً ساورتنى بعض الشكوك، فالشيطان كما تعرف وحش. إذ رأيت الفلاحين يدوسون على القمح فى كافة الأجران فسألت نفسى لماذا لا يكون الوطء على القمح حراماً إلا وهو فى هيئة رغيف مخبوز، ولكننى بالطبع سارعت بطرد تلك الشكوك قائلاً لنفسى إنه من السخف البالغ أن أنتحل لنفسى علماً يتناقض مع مسلمات أمى.

ولذلك أذكر أن وجهى قد احمر بشدة فى الحصة الأولى من حصص الجغرافيا، عندما أكد لنا المدرس أنه بالفحص العلمى للكرة الأرضية تبين أنه لا يوجد تحتها أي نوع من الثيران وأنها – الثيران – موجودة فوق الأرض فحسب. فقد تبين لى مدى الغباء الذى جعلنى أصدق أمى لمجرد أنها أمى، وفى لحظة حرجة بدأت تتزلزل فى ذهنى كل ما تلقيت منها من مسلمات. وعلى أى حال فقد كان التحاقى بالمدرسة نقطة تحول فى حياتى، إذ صارت المدرسة هى مصدر ما أتلقى من مسلمات.

ومن أول المسلمات التى تلقيتها من المدرسة أننى يجب أن أحب الوطن والملك، مع ميل فى بعض الأحيان إلى ترجيح كفة الأخير على الأول. ولذلك كنت أنظر فى الصور إلى شوارب الملك فؤاد فأروى فيه جلالاً خاصاً يناسب جلالته، وكلام الجرائد أوهمنى بأنه لو جرحت يده الكريمة لسال منها دم أزرق اللون حقاً. بل إن كثرة الكلام عن «المليك المقدس» جعلتنى أتمنى أن تتاح لى فرصة أفديه فيها، تلك الفرصة التى أشكر جلالته على ما كان من طلوع روحه الكريمة قبل أن يتيحها لى.

وواحد من أساطين النفاق تفتق ذهنه عن شىء اسمه حروف التاج التى أرجو ألا تدعى أنك أصغر من أن تذكرها. وللصغار حقيقة أقول أنها علامات فى هيئة التاج يحلى بها الحرف الأول من السطر الأول من كل فصل فى كل شىء يكتب أو يقرأ، وذلك لكيلا يغفل الكاتب أو القارئ لحظة واحدة عن ذكر صاحب الجلالة. وحتى تلك البدعة المضحكة تقبلتها بالرضاء والتوقير، وقضيت زمناً طويلاً استخدم تلك الحروف لا فى كراسات المدرسة فحسب وإنما فى كتاباتى الخاصة أيضاً.

هكذا كان تقبلى لكل ما يساق إلى من المسلمات: كل شىء جميل وليس فى الإمكان أبدع مما كان. وإلى الأبد كان يمكن أن أحيا على هذه الصورة، إذا كان يمكن لهذه

الصورة أن تسمى حياة. وفجأة حدث شيء لا أعرف على وجه التحقيق ماذا يكون، وربما كان غدة من نوع ما تفتحت فى جسمى بعد طول كمون، وبدأت تضخ فى عروقى هرموناً خبيثاً بالشك والسخرية!

إذ رأيت ذات يوم فى الأربعينيات لقمة ساقطة على الأرض فهششت لها وأسرعت إليها، وانحنيت لالتقطها وإذا بيدى تتجمد من تلقاء نفسها فى منتصف الطريق، وصوت فى داخلى سمعته يصرخ فى قائلاً: بتعمل إيه يا حمار؟! وبإخبارى إياه بأننى أفعل ما كنت أفعله طول حياتى عاد يصرخ قائلاً: كفاية بقى .. اعقل! فانصعت له كالمذهول ووقفت دون أن التقط اللقمة، وعدت إلى البيت وفى كل من جسمى وروحى رعدة شديدة غامضة.

وإذا كان الكلام عن ذلك الهرمون نوعاً من التبسيط للأمور فيجب أن نرجع بالأذهان إلى تلك الأيام العصيبة من الأربعينيات وملايين القتلى والجرحى والمشردين، وجيوش روميل توشك أن تقضى الصيف فى الأسكندرية، والختام المسك بقنبلتى هيروشيما وناجازاكى. كل تلك الأشياء التى زلزلت الأرض نفهسا كيف كان لها أن تمر دون أن تزلزلنى؟

المسلمات تتزلزل فى نفسى مثلما تزلزلت فى حصة الجغرافيا يوم الثور حامل الأرض، وأدركت أننى قد وصلت إلى مفترق الطريق!

إما أن أقاوم ذلك الهرمون الطارئ وأواصل العيش فى جنة الإجابات الجاهزة، وإما أن أشرع فى البحث عن إجابات جديدة تناسب رجلاً كف عن جمع اللقم الساقطة.

فبدأت استخدم ذلك الجهاز الذى يسمونه المخ، أو قل بدأت أموله من جهاز تسجيل يسجل ما يقال له إلى جهاز إرسال يصدر هو أفكاره الخاصة. وكان الأمر يحتاج إلى شجاعة،والحمد لله على أن الشجاعة كانت دائماً من صنع الهرمونات. وكان أول ما اكتشفته على هدى هذا الجهاز الجديد أن الذى اخترع حروف التاج وغد، وأن الذى يستخدم تلك الحروف حمار. فأحضرت أستيكة مسحت بها كل ما فى كتاباتى من تلك الحروف الوضيعة، ووافقاً أمام المرآة لم يمنعنى من البصق على ذلك الحمار السابق إلا أننى سوف أضطر إلى مسح المرآة بفوطة. لأننى عجبت كيف صدقت كل ما قيل لى عن

جلالة صاحب الجلالة، ذلك الصعلوك الذى التقطه المندوب السامى من أحد البارات وأجلسه على عرش الكنانة وهو مدين بثمن الكوزماتيك الذى يبرم به شاربه!

لقد خدعتنى المدرسة ولكننى لن أخدع ثانياً، ومن فورى سوف أعمل على استكمال دراستى فى مدرسة جديدة. وفى تلك المدرسة بدأت أدرس الأدب من جديدة، وفيها تعلمت أن أعذب الشعر هو أصدقه لا أكذبه، وبالأستيكة السابقة رحت أمحو من دماغى كل ما حشوه به من ألوان الكذب الموزون المقفى.

وفى النثر لم تعد سيارتى تطوى الأرض طياً وتتهبها نهباً، بل صارت تسير بالسرعة القانونية التى تحددها علامات المرور. وذكرت البنات اللواتى تلقين قذائف رسائلى ورثيت لهن من قلبى كما رثيت لنفسى بسبب كل تلك الفرص الممتعة التى ضيعتها لاعتبارات بلاغية!

فى تلك المدرسة الجديدة رحت أقرأ وأقرأ ووجهى يحمر بشدة، لو أنك رأيتنى ساعتها لظننت أننى أقرأ قصصاً أبيحة! وإنما كان وجهى يحمر خجلاً من نفسى، ومن الأباطيل والأكاذيب التى تواطأوا على حشرها فى دماغى. فكان لزاماً على أن أسخر أو أن أنفجر، وكانت السخرية بالطبع أهون الشرين.

كان يجب أن أجد القدرة على أن انفصل عن نفسى لكى أنظر إلهيا من بعيد، نظرة رثاء لذلك الفتى التعيس الذى تآمرت على إفساده قوى الجهل والنفاق، ذلك الثور الجالس يجتر غداء طفولته تحت شجرة الإجابات الجاهزة.

سخرت من نفسى فى البداية كفلان الفلانى، وعلى سبيل الإسقاط بدأت أسخر من نفسى كواحد من القطيع كله. وإذا أزعجتك كلمة القطيع فأرجو أن تذكر أن داروين كان واحداً ممن قرأت لهم فى المدرسة الجديدة. فمن المذكور عرفت حقيقة أسلافى، وعرفت كيف أنه فى ذات يوم كان أبى - مع الاعتذار لإحسان عبد القدوس - فوق الشجرة! قرداً مثل سائر القرود غامر يوماً بالنزول إلى الأرض فانتصبت قامته وراح يتطور عبر آلاف السنين حتى صار أنا. فكيف بغير السخرية يمكننى أن أحتمل هذا النبأ المزعج للسابق اللذيذ بأننى سليل آدم الذى فضله الخالق على الجن والملائكة؟

وازداد احمرار وجهى حين بدأت أقلب فى كتب علم النفس، وحين علمت أن كثيراً مما أفخر به من السجايا ما هو إلا نوع من رد الفعل للطريقة التى كانت ترضعنى بها أمى إذا جعت، أو تنظفنى بها إذا اتسخت، وأن وعيى الذى أفاخر به ليس إلا قشرة على سطح لا وعى غامض مجهول، أو قل غطاء نظيفاً لامعاً فوق أكداس من الكراكيب القديمة والأشياء العفنة البالية. وفى تلافيف ذلك العالم الغامض تدوى أصوات كثيرة مفزعة، عواء طفولتى مع زئير أسلافى يوم نزلوا من فوق الشجرة. شيكسبير أو بيتهوفن أو بيكاسو لست فى النهاية إلا واحداً من تلك القرود حلق شعره وأخذ دشاً!

وكوكبى الذى كان ذات يوم مركز الكون لم يكن إلا حبة رمل بين بلايين الحبات المنثورة فى صحراء الكون. والكون نفسه صار فضاء تسبح فيه تجمعات المادة أكثر منه مادة يحيط بها فضاء. متمدداً أحياناً منكمشاً أحياناً أخرى، وطاف إلى الأبد على سطح ما يشبه فقاعة صابون كبيرة مكهربة.

حتى الأشياء الملموسة تغير ملمسها بشدة، بعد أن صار هذا القلم الذى أمسك به مجرد طاقة تجمدت فى شكل مادة، وليس يلزمه إلا مربع سرعة الضوء لكى يختفى وأفاجأ بأننى لا أمسك شيئاً!

وناظراً فى المرآة أعرف أننى أنظر كل صباح إلى كائن جديد بعد أن أخبرتنى البيولوچى بأمر خلاياى التى لا تبرح تموت ويولد غيرها، وأننى مثل الشلال الذى تراه ثابتاً وهو فى الحقيقة يتغير فى كل لحظة، مع فارق طبعاً هو أننى أتغير إلى الأسوأ!

وحتى الخلود لم يعد له معنى منذ صار الزمن بعداً رابعاً، ولم يعد ثمة فارق بين قولى أننى سأعيش من الآن إلى الأبد وقولى أننى سأعيش من هنا لدرب التبانة!

بعد كل هذا كان غريباً بعض الشىء لو أننى لم أجنح إلى السخرية ولو أننى لم أفعل لوجب عرضى للفور على طبيب نفسى..! فلقد رأيت ماذا أمنع العلم بما حوصرت به ذات يوم من أنواع المسلمات سواء فى البيت أو فى المدرسة، وإذا كنا قد بدأنا هذا الكلام بالبحث عن سبب للسخرية فيخيل إلى الآن أنه كان من الأصح أن نبدأ بالبحث عن سبب لعدم السخرية.

وكان عفيفي يمقت الملكية والاحتلال وقد عالج هذا الأمر بأسلوبه الساخر تحت عنوان «يوميات ثائر صغير» حيث كتب: «ما لم يكن الرجل مجنوناً أو خائناً بالفطرة أو من أسرة الملك عنده لا يملك – بداهة – سوى أن يكره الاستعمار! وبانتفاء كل هذه الصفات عنى يمكنك أن تتصور مدى غليان الدم الذى كان يحدث فى عروقى كلما حدث لى احتكاك بقوى الاستعمار، ذلك الاحتكاك الذى أعترف بأنه لم يكن ذا صفة بالغة الخطورة، ولكنه كان كافياً لأن يؤرقنى فى كل مرة ليلة كاملة بسبب الغليان المذكور فى دمائى.

الزكام الاستعمارى!!

وقد بدأ احتكاكى بالاستعمار وأنا دون العشرين من عمرى، إذ كنت أحب أن أذهب لشم الهواء على كوبرى قصر النيل، وكان يجب أن أمر – قبل وصولى إلى الكوبرى المذكور – على معسكرات الإنجليز الرابضة هناك على شاطئ النيل الجميل كأنها دمل على وجنة حسناء، أو كأنها نفاية كلب ضال على بساط حجرة الصالون!

كان مجرد النظر يثير الدماء فى عروقى، منظر هذا الخازوق المدقوق فى كرامتى كمصرى، مع إحساس بعجزى عن استئصاله وإبادته، فلو اقتصرت الحكاية على غيظى من المنظر المجرد لربما هان الأمر، ولكن المصيبة أنه لم يكن منظراً فحسب، بل كان «مسمعاً» أيضاً، إذ لا أذكر قط أننى مررت بجانب ذلك المعكسر إلا انهالت على الشتائم من أفواه العساكر الإنجليز الأوغاد حيث ربضوا كالقرود الحمراء خلف قضبان نوافذهم، بعضهم بالفانلات وبعضهم بغيرها، نماذج وضيعة لحثالة قوات الاستعمار، يصوبون شتائمهم إلى حيث أسير فى حالى، تلك الشتائم التى لم أكن أفهم معظمها لحسن حظى بسبب ضآلة محصولى من لغة الاستعمار، ولكننى أعرف أنها شتائم بسبب ما يقترن بها من إشارات بذيئة وضحكات وحشية ممسوخة.

فكنت لا أصل إلى الكوبرى إلا وفى نفسى بركان من الغضب،وبدلاً من أن أقضى نزهتى فى الاستمتاع بالخضرة والماء و«الوجوه الحسان»، أنطلق جاحظ العينين نتافر العروق وقد امتلأ رأسى بأحلام اليقظة ذات الصفة التدميرية،إذ أتخيل نفسى وقد امسكت مدفعاً رشاشاً ورحت أحصد به أولئك الأنجاس،أو تحولت إلى مارد جبار وأخذت أتناولهم واحداً واحداً وألقى بهم إلى الماء حيث تبتلعهم دوامات النيل تحت الكوبرى.

وهناك - على الكوبرى - تلفحنى نسمات النيل الباردة وقد بللت ثيابى من عرق الخزى والعار، فأعطس بشدة ولا أعود إلى منزلى إلا وقد أصبت بزكام استعمارى شديد.

كأس السم:

ثم نشبت الحرب العالمية وامتلأت القاهرة بقطعان الإمبراطورية، يجوسون فى أرجائها ويعيثون فيها فساداً وكأنها عزبة أبيهم! وهنا كان يحدث الاحتكاك الفعلى بينى وبين قوى الاستعمار، فى شكل صدمة تصيبنى فى الطريق من بغل استرالى، أو نصف فرنك يشحذه منى - بالقوة - متسول اسكتلندى..

وفى ذات يوم كنت جالساً فى حالى آكل الجلاس فى محل عام، فإذا بوغد منهم يأتى ليجلس بجانبى ويقول لى بالإنجليزية ما معناه بالعربية:

- ممكن تجيب لى حاجة أشربها؟

فطلبت له كوب ماء ولكنه لم يعجبه، إذ أن الجندى البريطانى - كما فهمت بعد ذلك - لا يقول «أشرب» إلا وهو يعنى شرب الخمر، وأما الماء فيستعمله فى الاغتسال فقط.. مرة كل ثلاثة أيام..

وبنظرة حولى إلى عشرات الجنود الذين ينظرون نحوى بشراسة فى انتظار ما أضعه بزميلهم البريطانى العطشان، غلبنى الخوف على نظارتى فطلبت له كأس السم الذى طفحه فى جرعتين (بدون ماء أو صودا) وانصرف دون أن يشكرنى كأنه ليس كافياً أن أغذيهم أولئك الملاعين بقمح بلادى وأكسوهم بقطنها، بل يجب أن أسكرهم من أعنابها أيضاً.

فلتسقط النظارة!

واحتكاك آخر غلب فيه شعورى بكرامتى على اهتمامى بنظارتى، إذ صعدت إلى ترام المترو مع سيدة عجوز عزيزة على وقدتها إلى عربة الحريم فوجدت فيها خمسة عساكر بالبدل الرسمية!

وقد خطر لى أول الأمر أنهم من المجندات البريطانيات، ولكن نظرة إلى وجوههم تتقصها الشوارب أقنعتهم أنهم مجندون لا مجندات!

قلت لهم بعد أن رسمت وراء نظارتى نظرة يتمثل فيها كل ما أملك من قوة الفلاح الشرقاوى الذى ينحدر من أصل عربى:

– فز قوم منك له

وكان كلامى بالإنجليزية طبعاً، ولذلك فهموا ونهض أربعة منهم فى الحال وغادروا المقصورة، وبقى وغد واحد لم يتأثر لا بصفتى الشرقاوية ولا بسلالتى العربية!

– قلت له:

– دى عربيات ستات .. ما بتعرفش تقرا ؟!

ويظهر أنه كان أمياً فعلاً، لأنه اغتاظ من ملاحظتى إلى درجة جعلتنى لا أفهم الكلمات التى أخذ يفرزها من فمه، ولكننى فهمت أنها عدائية نوعاً بسبب اقترانها بجمعه لقبضته استعداداً لتوجيه لكمة إلى، تلك اللكمة التى تفاديتها بانحناءة، سريعة، توطئة لتوجيه لكمة مضادة (شمالية مستقيمة) إلى ضبه البريطانى البارز، تبعتها بلكمة يمينية على صدغه الأيسر، ووقفت أنظر فى نشوة بالغة إلى ترنح الاستعمار فى بدلته العسكرية، ذلك الترنح الذى أغرى زملاءه الأربعة بأن يجروه وينزلوا به من الترام كله.

ملاحظة: يجوز أن لا تصدقنى على هذه الواقعة، ولكننى أؤكد لك أنها قد حدثت، وتفسيرها أننى «ولك أن تبحث فى السجلات الرياضية لجامعة القاهرة» قد أخذت بطولة الملاكمة فى الجامعة المذكورة سنة ١٩٤٢ (وزن الديك) – مع ملاحظة أن ذلك العسكرى – الصراحة حلوة – كان أقل من وزن الذبابة!

النكتة الملكية:

وانتهت الحرب ولاذت قطعان الاستعمار بحظائر قنال السويس، ولكن ذلك لم يحل دون استمرار احتكاكى بالقوى الاستعمارية الغاشمة، إذ أن المستعمر لم ينس وقد غادر القاهرة أن يترك له ذنباً فيها فمثلاً فى الجثة المتحركة التى كانت تسمى بالملك السابق.

فإذا استثنينا أننى كنت أراه فى الحلم كلما أفرطت فى العشاء، فإنه عمد فى عهده الأخير إلى إفساد حياتى بشكل لا يطاق، وعندك مثلاً حريق القاهرة الذى التهم محلات شيكوريل ولى فيها بنطلون دفعت ثمنه وتركته ليقصروا ساقيه!

فلو اقتصرت الحكاية على بنطلونى لكانت بسيطة، ولكنه - الوغد السابق - بدأ يتدخل فى عملى فى أخبار اليوم ويكاد يجعله نوعاً من المستحيل .. إذ سافرت إلى الإسكندرية فى يوليو سنة ١٩٥٢ فى شبه إجازة، أى سافرت على أن استحم فى البحر وفى نفس الوقت أكتب وأرسل كتابتى إلى القاهرة، تلك الكتابة التى كانت تتلخص وقتها فى تصميم أفكار الكاريكاتير.

بالشورت الأبيض جلست ذات صباح فى أحد الكازينوهات ونسمات البحر تداعب -كعادتها - حواجبى وقد رفعت الأيسر منهما فى هيئة تفكير عميق وأنا أقرض طرف القلم، باحثاً عن نكتة سياسية على الوزارة القائمة وقتذاك - وزارة نجيب الهلالى - فما كدت أنتهى من تلك النكتة وأرسلها إلى على أمين بالقاهرة، حتى أطلق سى فاروق نكتة أبطلت نكتتى، إذ أصدر مرسوماً بإقالة الهلالى وتكليف حسين سرى بتأليف الوزارة!

فجلست من تجديد - ببنطلون طويل هذه المرة - لكى أكتب نكتة على وزارة حسين سرى، تلك النكتة التى ما كدت أنتهى منها حتى أطلق المذكور عاليه نكتة مضادة أخرى جعلت نكتتى غير ذات موضوع، وهى إقالته لوزارة حسين سرى وإرجاعه وزارة الهلالى!

وهكذا أصبحت الحكاية مباراة حامية فى النكتب بينى وبين ذلك الذى يختبئ وراء ذاته الملكية الكريمة! ولذلك تستطيع أن تدرك فرحتى عندما صدرت الصحف قائلة أنه قد تنازل عن العرش، وحملت الرياح الميمونة (الله يكون فى عونها) جثته الاستعمارية إلى عوض البحر بعيداً عن أرضنا، إلى الأبد.

نعم، لقد احتككت بالاستعمار - كما ترى - احتكاكاً قد يبدو هيناً بالنسبة لكم إلا أنه بالنسبة لى (وزن الديك) كان احتكاكاً مريراً!

- هل رأيت قدرة على التخيل او أسلوباً يمقت الاستعمار بفلسفة ساخرة عميقة مثل هذا؟

هو محمد عفيفى لا يتغير فى كتاباته من حيث الإبصار والتمعن والتفكير والفلسفة، ولا أدرى سبباً لتجاهل هذا الرجل ونسيانه بهذا الشكل .. إذ كلما مرت ذكراه يحتفل الناس بأشياء كثيرة إلا ذكراه .. وكأنه لم يكن ذات يوم أهم كتاب مؤسسة أخبار اليوم

وآخر ساعة .. وأستاذ الكتابة الساخرة .. وقد قال محمود السعدنى فى تقديمه لكتاب عفيفى «سكة سفر» الصادر عن كتاب الهلال فى هذا الأمر «محمد عفيفى» هو أعظم كاتب ساخر أنجبته مصر فى العصر الحديث. ولكن محمد عفيفى – الأعظم والأقوى – ليس الأشهر، بالضرورة، وربما جاء – بالنسبة لشعب مصر– فى ذيل قائمة الساخرين. والسبب أن سخريته ناعمة، وقلمه شديد الحساسية وشديد التربية أيضاً، فهو لا يجرح ولا يدمى، ولا يترك أثراً فى نفس من يتعرض لسخريته.

الأثر الذى تتركه موجة خفيفة على شاطئ ساحر وجميل. وهو أقرب الكتاب الساخرين إلى مارك توين الأمريكي، وأوسكار وايلد البريطانى ولذلك كانت سخريته من النوع الراقى الذى يرسم ابتسامة على الشفاه. وليس من النوع الذى ينتزع الضحكة من الأعماق. ولو كان محمد عفيفى كتب فى بلد مثل لندن أو باريس، لأقيمت له التماثيل فى الشوارع وبالتأكيد كان مصيره الدفن فى مقبرة العظماء على شاطئ نهر السين. فهو ساخر صاحب سخرية ناعمة فقط، ولكنه مثقف ثقافة واسعة، وخبير فى كل أنواع الفنون، وسيستفيد قارئ محمد عفيفى دائماً من اطلاعه الواسع على أسرار الفن التشكيلى، وتفاصيل التاريخ الفرعونى، والعلاقة بين أدب العرب وآداب الآخرين.

أيضاً لم يشتهر محمد عفيفى فى مصر وفى العالم العربى (إلا فى محيط طبقة المثقفين).

عاش بعد موته عند نقاد الأدب الرفيع وعاشت سطوره فى ذاكرة المتذوقين، مع أنه كان أعظم من كتب الكلمة الساخرة فى عصره، ومع ذلك لم يستطع أن يصل إلى سطح الهرم الاجتماعى فى تركيبة المجتمع العربى، لم يصل إلى الأغلبية، ولم تكتشفه الأغلبية، وهو سوء حظ محمد عفيفى، وسوء حظ أكبر للقراء على وجه العموم، ولكن عفيفى الساخر العظيم كان يتحمل جزءاً من هذه المسؤلية، فلقد آثر محمد عفيفى المثقف أن ينزوى فى برجه العالى بعيداً عن مشكلات زمانه ومآسى أهله. وكان ينظر للحياة بعين مغمضة وعين نصف مفتوحة! واعتمد اعتماداً كاملاً على موهبته العظيمة، وعلى سخريته الناعمة الرقيقة. ولذلك أيضاً جاءت سخريته ناعمة كالحرير، مع أنه لو استخدمها فى المعارك لجاءت ناعمة كالثعبان، تلدغ وتقتل! ولكنه آثر أن يتفرج على زمانه، وأن يلمس ولا يجرح ولا يدمى. وموهبة محمد عفيفى فى الكتابة كانت أشبه

بموهبة عبد المنعم إبراهيم فى التمثيل موهبة عريضة مثل السمك البلطى، وناعمة ورقيقة مثل حرير اليابان، ومتعددة الألوان مثل يفط الإعلانات ورغم ذلك فهو أقل الساخرين الكبار حظًا، وأقلهم فرصة، وأقلهم شهرةا والسبب كما قلت من قبل، هو عيب جمهور القراء فى العالم العربى.

فنحن مازلنا أسرى مدرسة افترضت منذ قيامها أن المواطن غائب عن وعيه.

ولعل حظ عفيفى لم يحقق له الانتشار حسب قول محمود السعدنى، لكنى أختلف معه فى قوله أن عفيفى عاش فى برجه العاجى متروياً من مشكلات زمانه ومآسى أهله، إذ أن الذى يطلع على كتابات محمد عفيفى يجد رائحة عرق الناس تفرح منها بمشاكلهم اليومية فى الزواج والأسعار والجمعيات التعاونية ونكد الزوجات .. ورؤيته للأوضاع الاجتماعية ونقده لها بطريقة ساخرة فى مجتمعه، لكن الناقد الكبير رجاء النقاش يؤكد رأى السعدنى وذلك فى تقديمه لكتاب السعدنى مسافر بلا متاع إذ يقول عن الفرق بين عفيفى والسعدنى: «هناك كثيرون من الكتاب والأدباء يعيشون حياتهم العاديه، ثم عندما يريدون أن يكتبوا فإنهم ينفصلون عن الحياة ويعتكفون من أجل الكتابة. محمود السعدنى لا يفعل ذلك أبداً إنه يكتب وهو يعيش. فليس أدبه نابعاً من الحياة لما يقال .. إنه الحياة نفسها، تلك الحياة التى عاشها السعدنى واكتوى بنارها ولم يعرف فيها الهدوء والعزلة أو الأبواب المغلقة والنوافذ المسدودة، فالحياة عند السعدنى لا فرق فيها بين البيت والغيط أو بين العمل والعلاقات الإنسانية المختلفة .. وهذه الحياة تشبه النهر المتدفق، فيه الماء والطمى والأعشاب والأسماك والحصى.

السعدنى يكتب وهو غارق فى حياته، إنه يكتب ويعيش فى نفس اللحظة والكتابة والحياة عنده لهما نفس المعنى، فارتباط الكتابة بالحياة ظاهرة أساسية فى كتابة السعدنى تليها ظاهرة ثانية .. لقد أمسك الفقر برقاب الكثيرين من الشخصيات التى كتب عنها محمود السعدنى، هؤلاء الذين يعيشون على هامش المجتمع لا يعترف بهم أحد وليس لهم بعد مكان فى واقع المجتمع .. هذا الفقر تحول فى كتابات السعدنى إلى نوع من الأدب الغنائى الجميل.

ثم يضيف النقاش «واستطاع مع مجموعة من الأصدقاء مثل عبد الحميد قطامش وزكريا الحجاوى أن يصبحوا من كبار الفقراء وأعيانهم وعلية القوم فيهم، وقد أتاح له

هذا الأمر العجيب ما يتمتع به إلى جانب موهبته الأدبية من صفات أخرى هى جزء لا يتجزأ من شخصية السعدنى وعلى رأس هذه الصفات أنه أحد الساخرين اللامعين، بل إنه أكثر الساخرين فى جيلنا شمولاً وخصوبة.

صحيح أن محمد عفيفى ـ يرحمه الله – كان ساخراً عظيماً جداً ونادراً كل الندرة عندما كان يمسك بقلمه، ولكن محمد عفيفى كان وديعاً فى حياته وسلوكه مثل العصافير، بل كان مليئاً بالخجل والحياء والرغبة فى الانسحاب من المجتمع، أما السعدنى فهو ساخر «مسلح» أى أنه ملئ بالجرأة والجسارة والقدرة على الاقتحام، ويكفى أن يظهر السعدنى على مسرح جلسة من الجلسات مهما كان فيها ممن قد يكونون كباراً فى الثروة والمركز أو الوضع الاجتماعى حتى تتحرك الكهرباء التى فى السعدنى فتزيل الفوارق بينه وبين الآخرين وتسقط الحواجز، ثم تتفتح الأبواب المغلقة والنفوس المتحفظة وتخرج أسرار الناس المختبئة فى أعماقهم إلى الضوء والنور..».

وقد عاشت الكاتبة الكبيرة سناء البيسى سنوات عشر فى مكتب واحد مع محمد عفيفى فى دار أخبار اليوم، وقد تحدثت معها حول محمد عفيفى وكتاباته .. وكان يصعب عليها كثيراً تجاهله ونسيانه وقد كتبت عنه كثيراً إلا أنها ترى أنه مازال بحاجة إلى الكثير والكثير وتروى حكايتها معه بقولها «سنوات الصبا أمضيتها فى «أخبار اليوم» فى بدايات طريقى العملى تضمنا أنا وعفيفى الصديق الساخر حجرة واحدة ما يقرب من عشر سنوات .. أثرى وأمتع ساعات العمر أنصت له فيها يجلو بصيرة ثقافتى ويغسل كدر نفسى ويأخذنى عبر الجدّة والطرافة إلى رحلات كشفية شفهية كان يسافر فيها وحده بحكم جنسه الرجولى. من تلك السفرات كانت رحلة الخميس من كل أسبوع التى يستهلها فى الثامنة مساء بدخوله متعجلاً من الباب ليرمينى بنظرة زاجرة مشمئنطة رافضة وجودى فى مثل هذا الوقت، فالنساء فى عُرفه لابد وأن يهجعن فى خدورهن بجوار بعولتهن، وإن كان ولابد من خروجهن للعمل فالكفاية ونهاية المطاف الواحدة ظهراً ليتسنى لهن الوقت الكافى للطبخ ولوازمه، ومع مضى المدة تربت لديه الألفة لرؤيتى عندما يأتى المساء حتى أصبح يقوم بمواسم التهيئة لسهرته الخارجية فى المكتب وكأن لا أحد هناك سواه، وكأننى أنا والحيطة سواء .. كان يستهل الخطوات بطلب زجاجة بيبسى من البوفيه وما أن تحضر إليه حتى يولينى ظهره بعدما يخرج

أشياء من جيوبه ثم أسمع أصوات اصطكاك لأدراج المكتب فى فتحها وغلقها وسوائل تُسكب وأوان زجاجية تصلصل ثم صوت احتساء رشفات جرعات على مهل .. و.. و .. بعدها تغلق الأدراج لتمر فترة صمت أرفع فيها عينى المتلصصة تجاهه فأجد السحنة المتجهمة المكفهرة قد تلاشت غضونها وتفتحت أساريرها وغدت سهلة منبسطة متسامحة شفاها المزمومة المتزمتة أصبحت ممطوطة بشق عرضى تبلغ نهايات الخدود منابت الأذنين ليصنع مثلثاً مع حاجبيه اللذين يرتفعان من المنتصف برقم الثمانية ليتركا النظارة الطبية السميكة فرصة الانزلاق الفكاهى فوق أرنبة الأنف وتطل نظرة وادعة مترقرقة مترعة بدمع متحفز للانسكاب مدراراً من فرط الضحك أو شدة الكمد الدفين.. ساعتها. لحظتها أعى أن أبانا الغول - الطيب - قد تم تمشيط شعره، وأن صديقى القنفد البرى قد تم استئناسه، وأن الرافض لمشاركتى إيّاه المكان مرحب بوجودى، وأن قد آن أوان فيضان نهر العبقرية الساخرة التى لن أحظى للأسف منها سوى بالبدايات والقشور، فمحمد عفيفى لم يكن يأتى مساء كل خميس للمكتب، سوى للتأهب لسهرة الحرافيش الأسبوعية حيث يتصل بأعضائها واحداً يلو الآخر من تليفون مكتبنا الوحيد الذى تنازل لى بأريحية عن حيازته: «أيوه يا نجيب يا حبيبى أنا حافوت أجيب الساليزون وهات أنت الكباب وهات معاك عادل - يا أحمد يا حبيبى رايحين عند توفيق .. أناجاى يا توفيق يا حبيبى».

وأستحلفه وأستميت فى أن يصحبنى مرة لسهرة معهم - نجيب محفوظ وأحمد مظهر وعادل كامل وتوفيق صالح وعفيفى - فينهرنى بقوله: إنها سهرة رجالى ممنوعة على النساء .. لكنها يا عفيفى تقام فى بيت أحدكم كما أسمعك فى التليفون وكلكم متزوجون؟! .. أيوه لكن مهمة الزوجات فقط إعداد لزوم القعدة والطعام ثم يغادروننا إلى جناح الحريم .. طيب والثرثرة على النيل؟!

لا أحب لك يا بنت الناس المشاركة فيها حتى ولو من بعيد.

طيب احكِ لى .. عن حبيبك نجيب وحبيبك مظهر وضيوف الحرافيش، وتنحل عقدة لسان أسرار عفيفى بعدما أغلقت أدراج مكتبه بأكوابها وزجاجاتها ليقول ويقول لأعرف وأعرف وأعرف وأكتم وأقسم بأن تظل الأسرار الرجولية فى بير .. معقول؟!! نجيب محفوظ يا اختى عليه .. لا ممكن يبان عليه أبداً .. ما أنت اللى كتبت عنه رجل الساعة ليس لأنه بطل الأحداث الأخيرة لكن لأنه منضبط كالساعة.

وتفرقنا الصحافة ولقمة العيش بعد قرار تأميم الصحافة الذى خلخل استقرار عرش الرعاة مصطفى وعلى أمين .. أذهب هارعة أنا إلى محمد حسنين هيكل فى الأهرام، ويرحل عفيفى للكتابة الأسبوعية فى مجلة «المصور» مع حبيبه أحمد بهاء الدين رئيس مجلس إدارة الهلال وقتها، الذى كسر حاجز الخوف من ركوب الطائرة لدى عفيفى ليرسله عام ١٩٧١ فى رحلة ثقافية بصحبة رسام الكاريكاتير بهجت عثمان - كانت أفكار عفيفى التى صاحبت فى أخبار اليوم مسيرة كل من رسومات الفنان صاروخان السياسية والفنان رخا صاحب نكت بنت البلد والسبع أفندى ورفيعة هانم وحزب أشجار الجميز - ليعيشا كواليس لندن التى كتب فيها يومياته بعنوان «تائه فى لندن» حيث تجول سائحاً بين راكبى الرولز، والخاطبين فى هايد بارك، والشحاذين فى شارع أوكسفورد، والعجائز المتوقفات عند الأشجار بالكلب العزيز، والماوات أبوازهن العطش لذكر بارد متردد، والمقاطيع المتقصعين والحفاة، والجريئة عيونهن وأفخاذهن فى كل مكان، والحمائم المتخمة والقطط المظلظلة ذات الأجراس، والتماثيل العالية المبتلة لرجال إمبراطورية رحلت عنها الشمس بعدما خرجوا ذات يوم يطاردون بالسيف ضوء الشمس، وأعلا منها كلها إبرة جده المسلة الشامخة على شاطئ التايمز، راوية للناس وإلى الأبد قصة المجد الذى كان مجدنا!

وعن ثقافته وقراءاته وتميزه تقول سناء البيسى: «كانت اللغة الإنجليزية عند عفيفى توأماً للعربية يجيدها ويهضمها ويردد أبيات أشعارها الكلاسيكية يدندن بها وهو مستغرق فى الكتابة أمامى .. يضحكنى معه على إبداعات الكاتب الأيرلندى برنارد شو صديقه عبر تبادل الرسائل.

أما إعجابه البالغ فكان للكاتب الساخر مارك توين، وربما من هنا جاء التأثير غير المباشر على أسلوبه التهكمى .. وكنت أحسده على ثقافته الإنجليزية الرفيعة وهو من تتلمذ على يد العالم مصطفى مشرفة - زميل أينشتين - والذى لازمة سنوات فى صومعته بالمعادي».

الغريب أن محمد عفيفى كان يسخر من كل شىء حتى موته لدرجة أنه كتب نعيه قبل رحيله، وأوصى ألا ينشر فى صفحة الوفيات فكتب: «عزيزى القارئ» يؤسفنى أن أخطرك بشىء قد يحزنك بعض الشىء وذلك بأننى قد توفيت، وأنا طبعاً لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة «دى صعبة شوية» وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تنشر بعد

وفاتى، وذلك لاعتقادى بأن الموت شىء خاص لا يستدعى إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالى العزاء .وإذا أحزنتك هذه الكلمات،فلا مانع من أن تحزن بعض الشىء، ولكن أرجو ألا تحزن كثيراً».

وأريد أن أفرد مساحة من الضحكات .. عفواً أقصد مساحة من الصفحات العبقريات هذا الكاتب الساخر لأنه أعظمهم سخرية وأقلهم شهرة وصيتاً نعم إن يحيى حقى كان يعتبره حامل لواء الفكاهة فى مصر، وقد وصفه صديقه نجيب محفوظ بقوله «كانت السخرية محور حياته، ينبض بها قلبه، ويفكر بها عقله، وتتحرك فيها إرادته فهى ليست بالثوب الذى يرتديه عندما يمسك بالقلم وينزعه إذا خاض الحياة - ولكنها جلده ولحمه ودمه وأسلوبه عند الجد والهزل، ولدي السرور والحزن»... ونجيب محفوظ هو الذي اختار عنوان كتاب عفيفي الأخير «ترانيم في ظل تمارا» بعد رحيل عفيفي في ١٩٨١/١٢/٦ .

تقول السيدة اعتدال- زوجته- في حوارنا معها: كنا جيران في شبرا وكان زواج شبه تقليدي، وانتقلنا إلي حي الهرم سنة ١٩٥٤ وحتى الآن... وكان عمره حين تزوجنا ٢٧ وكان يعمل في مجلة القصة ورفض أن يعمل محاميا وأحس بتواجد موهبته لدرجة أنه اصدر مجلة «أنوار» على حسابه..كان في بداياته وعمل مع محمد التابعي وفي مسامرات الجيب، وكان يترجم قصصا في مجلة القصة.

وعن علاقته بمحمد التابعي تقول: كان زوجي يحب محمد التابعي جدًا ويعتبره مثله الأعلى، والتابعي كان يحبه لذا رشحه لمصطفي أمين في أخبار اليوم، وكلمه وقال له إذهب لمصطفي أمين، واجعله يعمل في أخبار اليوم .... وفي الحقيقة لم أحضر أية لقاءات بينه وبين التابعي لأنهما كانا معًا في خارج البيت... كانوا جميعًا أصدقاءه لكنه كان يفضل اللقاء خارج البيت ولا يرحب بجلوس «الستات» في «مقعداته».

كان من أصدقائه كامل الشناوي وصاروخان وعلى ومصطفى أمين وكانوا يعملون جلسات كاريكاتير أسبوعية لتنشر في أخبار اليوم.

أما الصديق الأقرب له- تضيف السيدة اعتدال نجيب محفوظ، وكان يأتي ومعه باقي شلة الحرافيش الذين ظلوا ٤٥ سنة معًا وهم نجيب محفوظ، توفيق صالح، أحمد مظهر، ثروت أباظة، صلاح جاهين، أحمد بهار الدين، بهجت عثمان، عادل كامل،

صبري شبانة، إيهاب الأزهري، وكان لقاؤهم دائمًا في الفللا عندنا كل يوم الخميس وكان نجيب يأتي في الثامنة والنصف حيث يضرب جرس الباب فيقول عفيفي: رجل الساعة وصل، ويقصد التزام نجيب بمواعيده... ولم أحضر مناقشات لهم وكان ممنوع دخول أي «حريم» معهم، وحاولت كثيرات ورفض، وحاول التلفزيون تصويرهم أكثر من مرة، لكنه كان يقول لهم: من يريد الدخول عليه أن يترك الكاميرات خارج البيت.

وكانت أغلب جلساتهم لا تتناول المسائل الشخصية، أغلبها مناقشات أدبية.

وعن طقوسه فى الكتابه تقول: كانت له حجرة خاصة بناها في آخر دور في الفللا وكنا نطلق عليها الصومعة، وكان ممنوع صعود أحد إليه إلا إذا ضرب الجرس فنصعد لنعرف ماذا يريد؟، وبعدأن ينهي كتاباته كان يجلس إلينا، ولم يكتب أي شيء وسطنا.

وفي البيت كانت له لمحات ساخرة وكان صديقًا حميمًا لأولاده ولم يكن يرتدي جلابية الأب الصارم.

أما عن زيارة المثقفين والكتاب فقالت: لم يكن أحد غريب يزوره في البيت... كانت أغلب مقابلاته في الجريدة.. ولكن جاء له علي أمين مرات معدودة... أما صديقه على المدى الطويل فكان إيهاب الأزهري.

وعن علاقته بعلي ومصطفى أمين كانت علاقة مودة ولكن ذات مرة اختلف محمد عفيفي مع علي أمين وقرر أن يترك أخبار اليوم وبالفعل انتقل إلى روزاليوسف، ولا أعرف سبب اختلافهم... جاء البيت وقال تركت الجريدة، ولم يقل الأسباب ، وعمل في روزاليوسف الذى كان يترأس تحريرها أحمد بهاء الدين الذي رحب به، لكن في هذا اليوم هاتفه علي أمين كثيرًا حوالي عشر مكالمات ولم يكن بالبيت، لكني بعدها فوجئت بعلي أمين يضرب جرس البيت ويقول لي : أنا عارف إن محمد هنا وعايزة.

وخرج معاً وركبا سيارة علي أمين وبعد ذلك إعتذر لأحمد بهاء الدين ورجع الأخبار، وأعتقد أن الخلاف بينهما كان مهنيًا... فزوجي لم يكن من نوعية الأزواج الذين يحكون ما يحدث معهم في العمل .

وعن كتابته عن الحيوانات الأليفة تقول: نعم وكان يربيهم في البيت مثل القطط والكلاب وكان يجد نفسه معهم .

وعن ذكريات زواجها تقول أنه تزوجها في عيد ميلاده وكان ترتيبه أن نتزوج بعد عيد ميلاده بأسبوع لكنه قال: خلي الجواز يوم عيد ميلادي لكي يبقوا مصيبتين في يوم واحد..!!

ولم يكن يقرأ مقالاته عليَّ قبل النشر دائمًا... ولكن في بعض الأحيان وحين يكتب رواية ينعزل تمامًا.

وعن حقه في التكريم تضيف: لم يأخذ نصف حقه من التكريم... وأول تكريم له تم في عهد السادات حين رشحته أكاديمية الفنون للحصول على شهادة تقدير... لكنه لم يأخذ حقه سواء وهو موجود أو عندما رحل... كان منعزلاً .. لا يحب المجاملات ولا يحب فرض نفسه على أحد لأجل أن يكتب عنه. كان إنسانا في حاله لم يكن يهوي الشللية خلاف الحرافيش... ولا أعرف ما هى الطريقة التي يجب أن يتم بها تكريمه.

وعن تقصيرها وأسرته في حقه تقول : نعم نحن مقصرون في حقه وسنهتم بإعادة طبع بعض كتبه وجاري الاتفاق على هذا.

وعن الكاتب الذي يشبهه تقول: كان دائمًا يطلقون عليه مارك توين الشرق وقد أطلق هذا اللقب عليه محمود السعدني، وأقرب ساخر له أعتقد أنه أحمد رجب، وكانت بينهما علاقة مودة، وحتى الآن أحمد رجب يعتبره أستاذه.

وعن حكاية كتاب نعيه قبل رحيله قالت: لم يكتب نعيه، لكن خطأ ما حدث حيث كان مريضًا وكان ابناه في لندن – علاء وعادل- لظروف صحية عند علاء، ونشر نعيه في صفحة كاملة في مقال له، وطلبني ابني من لندن قلقًا فاطمأن ، والسبب أنه كان يعد لرحيله لأنه كان عارفًا بمرضه فكتب وصيته وهى ألا ألبس أسود بعد رحيله وألا يقام له سرادق عزاء، ولا مقرئ بالأجر... وكل فلوس هذه التكاليف تعطى للفقراء والمحتاجين، وطلب عدم دخول ابنه نيابة بعد كليه الحقوق لأن محمد عفيفي جرب النيابة في بداياته ولم تعجبه، وقد أرسل مقالا للنشر فأرسل النعي خطأ مع أوراق المقال وعمال المطبعة لم يأخذوا بالهم فنشر المقال.

وعن رحلته مع السرطان: ظل خمس سنوات في السرير مريضًا بالسرطان، وكان يشتكي في البداية من ألم في رقبته وابنه الطبيب شك في الموضوع، ثم أجرى عينة

تحاليل وعرف بمرض السرطان، لكنه لم يخف الموت، وتعايش معه «فكتب ترانيم في ظل تمارا» التي قرأها نجيب محفوظ قبل طبعها فقال لي: هذا شعر وليس مجرد رواية وعمل لها مقدمة...

وكل كتب محمد عفيفي قريبة لي، ولم يكن يضايقني أن يكتب عن تفاصيل يومية من حياته على العكس كنت أسعد جدًا بهذا... وكان بطبيعته يحب الهدوء والعزلة.. ويتبقي داخلي من محمد عفيفي الكثير والكثير .. لو حدثت مشكلة معي أتناقش معه حتى الآن .. وأسعد كثيرًا حين يكتب أحد عنه.

- وقلت لها ساخرًا: وما إحساسك حين اكتشفت أن له بنتا؟!

ضاحكة: كان زمانها بقت ابنتي... بس أنا واثقة أن لا بنات له... وأن هذا ادعاء كاذب.

وعن مكتبه قالت: أهدينا معظمها لهيئة الكتاب الذين رحبوا بها وقدروها.

أما ابنه نبيل فيقول: أخذت الكثير من صفات أبي أهمها أننا دائمًا في حالنا ولا نهوي البحث عن الشهرة... ندع الحياة تمضي ولم أعمل في مهنته لأنها ليست مسألة وراثة... وللأسف لم أقرأ لأحد بعده ووجدته يشبهه.. ولكننا نتاج ما يحدث على الساحة ونقرأ الصحف ونشاهد الأخبار ككل المصريين.

أما علاء فيقول: لا كتابة بدون موهبة، ووالدي كان يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية، وكان موهوبًا ويحب القراءة... وقد قلق عليّ كثيرًا في فترة مرضى في لندن ... ولما عدت وجدته يبكي في البلكونة بمفرده فقلت له: أنا رجعت بالسلامة ولا تغضب.

وعلاقتنا انقطعت بالكتاب والمثقفين الآن... وقد ذهبت لموسى صبري لأعمل فقال لي: في أي قسم تريد العمل في التحقيقات أم الأخبار أم ماذا؟ قلت له : لن أعمل في الصحافة... أريد العمل بمؤهلي وهو ليسانس الحقوق؟ وبالفعل عملت به في الأخبار.

ولما طلبت صور زفافه من زوجته فأضحكتنى حين قالت: لقد رفض أن يتصور..وقال أنا أرفض تمامًا أن أتصور بنظام عريس وعروسة.. لو عايزة أنت اتصوري، لكني أتصور في الكوشة، ولذا لا يوجد له صورة عريس وعروسة نعمل فرح كذلك ابنه الدكتور عادل عندما تزوج لم يعمل فرحاً مثل أبيه.

من سخريات محمد عفيفي

في إحدى مقالاته يقول عفيفي:«نظرت إلى إحدى المطربات وهى تغني على شاشة التلفزيون فأحسست بالغثيان».

الذنب ليس ذنب التلفزيون بالطبع لأنه لم يفعل أكثر من عرض الأغنية كما صورت في الفيلم السينمائي الأصلي... ذلك ذنب مخرج السينما الأصلي قد يقول إن الحق على المنتج الذي أرغمه على تصوير تلك الأغنية المبتذلة، وبذلك يصبح الذنب ذنب المنتج الذي سيقول ما يقوله كافة المنتجين، وهو أن الجمهور عايز كده، أي أن الذنب ذنبك أنت وذنبي أنا!

ولكن– كما أسلفت– قد شعرت بالغثيان فكيف يكون الذنب ذنبي؟

ـ وقد كان غثياني مقرونًا بحسرة شديدة على فن الطرب؟! إذ رأيت كيف أصبحت الأغنية مجرد فرصة تتاح للمطربة لكي تعرض فيها مهاراتها في فن الخلاعة بحيث صارت الخلاعة هى الأصل والأغنية شيئًا على هامشها، وبحيث أنهم لو سمحوا للمطربة بأن تتخالع من غير أي غناء لما ما منعت، ولما وجدت في ذلك ما يتنافى مع صفة مطربة!

أمام الميكروفون تقف المطربة الشقراء (التي كانت في الأسبوع الماضي سمراء وستكون في الأسبوع المقبل حمراء) في فستان كما يقولون تحت الجلد، متمايلة في وقفتها لكي تتيح لأعضائها أكبر فرصة «للتبلور»، تارة تغمز لي بعينها وتارة تلعب لي حاجبها ، ولسان حالها يقول لي :

ـ شايف يا دلعدي؟! شايف أنا حلوة إزاي؟ شايف عينيه؟ شايف رقبتي؟ شايف... ؟ ! بذمتك موش ح تتهبل علي؟! بذمتك موش شعللتك نار؟!

وهذا ما يخيل إليها إنه قد حدث عندي على سبيل رد الفعل؟، ولذلك ستواصل مساعيها الإغرائية، مائلة برأسها إلى الوراء وهى تصرخ وتضم قبضتيها، أو منحنية إلى الأمام ومسبلة عينيها وهى تهمس، أو مخلعة رقبتها فوق كتفيها مع المسح باليدين على جانبي ردفيها إلى آخر ما عندها من حركات «مغرية»...

ولكن لا أشعر بأي نوع من الإغراء ولست أستنتج صراخها إلا أن عندها روماتزم، ولا من همسها إلا أن صوتها« منحاش» ولا من مسحها بيديها على فستانها إلا أنها قد انتهت من أكلة ملوخية!

إنها تريد أن تنقلني بالعاطفة إلى حفل بدائي من النوع الذي تقيمه بعض القبائل وتستبيح فيه ما حرمته على نفسها طول العام، ولكنني لا أنسي لحظة واحدة أننا في الاستوديو لأنها غابة مظلمة، وأن الحكاية كلها ضحك على الذقون، أو كما يقولون جعجعة بلا طحن!

لذلك أشعر بالغثيان، لا لأنني يا سيدي العفو رجل متزمت، وإنما لأنني أحب أن أرى الشيء المناسب في المكان المناسب. فليس استنكاري لأن أذهب إلى السنما أو افتح التلفزيون فأجد أمامي «أرتيست» خليعة، بأقل من استنكاري لأن أذهب إلى أحد الكباريهات فأجد أمامي مطربة مجيدة!

الطرب هو الطرب، والخلاعة هى الخلاعة، فلماذا تقدم الأخيرة متنكرة في زي الأولى، لماذا نجعل من فن الطرب رخصة تبيح لهذه الأنثى أو تلك أن تضع أمام الملايين ما لو فعلته سواها، أمام عشرة أشخاص لقبض عليها بتهمة الفعل الفاضح؟!

لذلك فقط- لا لأنني متزمت- أشعر بالغثيان عند مشاهدة ذلك النوع من الأغاني، ولا أعرف إذا كان الذنب ذنب المطربة، أو المخرج الذي حرضها علي جريمتها، أو المنتج الذي حرض المخرج على تحريضها، أو الجمهور كما يقول الأخير!

وفي انتظار ظهور الفاعل الأصلي لاأستطيع أن أعفي التلفزيون كل الإعفاء من اللوم، فلماذا يعرض على مناظر كان يجب أن أذهب إلى أماكن أخرى لكي أراها؟!، إذا كان هو الآخر- التلفزيون- يختار برامجه وعينه على الجمهور، فلماذا لا يؤجل عرض ذلك النوع من الأغانى إلى ما بعد منتصف الليل ، لكي أكون قد نيمت الأولاد.

وجلست أصفق للمطربة الحسناء وألعب لها حواجبي مثلما تلعب لي حواجبها وأنا أصيح قائلاً أعد يا قمر!، كمان مرة يا جميل... يا وعدي؟!

من سخريات محمد عفيفي

- هل سمعت بالكاتب الذي اشترى قلمًا جديدًا وباعه في نفس اليوم!

- أشياء كثيرة تساهم في انتعاش الحركة المسرحية على رأسها فساتين السهرة.

- النفقة الشرعية أشبه بشرائك العليق لحصان ميت!

الرجل الذي يتزوج على عجل... يندم على مهل!

- لا تذهب اليوم إلى أي من مكاتب الحكومة فأنت تعرف أنك يجب أن تأتي بكرة.

- الكازينو السياحي هو ذلك المكان الذي تباح فيه سرقتك بتصريح من القانون .

- جميع أنواع القطارات ركبتها، ماعدا ذلك الذي يصل في موعده.

- منظر التلاحم الجسدي في الأتوبيس المصري يوحي إليَّ بأن أقول لهيئة النقل العام: ما رأيكم في تخصيص أتوبيس للكبار فقط؟

- إذا مات رجل من شدة الجوع فهذا لايرجع إلى شيء سوى أن رجلاً آخر قد مات في اللحظة نفسها من فرط الشبع.

- لايزعجني أن أرى رجلاً دخله أكبر من دخلي بقدر ما يزعجني أن أرى رجلاً دخله أكبر من دخله.

- لن أسألك يا سيدي من أين لك هذا لأنني أعرف، ولن أسألك يا سيدتي لأنني لست أبيحًا.

- لن تجد مني أي معارضة لأن تستمتع بحياتك، مادام لايدخل في باب ذلك أن تستمتع بحياتي.

- كل ما أستطيع أن أقوله عن أخلاق ذلك الرجل أنك إذا أقرضته نايًا فيجدر بك عند استرداده أن تعد ثقوبه.

- الفرق بين اللص الصغير واللص الكبير أن الأول يتسلق الماسورة في حين أن الثاني يتسلق الموجة.

- إذا سددت أنفك كلما شممت رائحة كريهة فمعنى ذلك أنك سوف تقضي حياتك معتمدًا في أعمالك على يد واحدة.

- أغلبية الناس تأكل لتعيش، وذلك في سبيل الأقلية السعيدة التي تعيش لتأكل.

- من الناس من يأكلون الديوك الرومي أكثر من مرة في الأسبوع، وإذا لم تستح فكل ما شئت.

- دهش صديق لنا عندما عرف أن من الناس من يغسل جوربه بدلاً من أن يرميه ويشتري جوربًا جديدًا.

- يؤكد لي رجل فقير أن الشيء الوحيد الذي شبع منه في حياته هو الجوع.

- قد لا يحول الجوع دون النهوض، لكنه قطعًا وجزمًا يحول دون النهضة.

- هل لك أن تخبرني من أين يحصل الناس على الفلوس بدون أن يكونوا نساء؟

- فشلت تمامًا في أن أشفي ولدي الصغير من تلك الغلطة اللغوية؟ غلطة كتابته للجمعية التعاونية بحرف الهاء بدلاً من العين.

- الصيدلي : ناقص في السوق.

أنا : هو أنا لسة قلت لك عاوز إيه؟

- دخول الحمام كما يقولون ليس كالخروج منه، ولا دخول الأتوبيس طبعًا.

- سيدي راكبة الإتوبيس: اتعلمي أن الرجل الذي ينهض ليجلسك مكانه لايفعل ذلك على الدوام لراحتك أنت.

- طبعًا أنا من أكبر المؤمنين بالثورة «هكذا يقول واحد منهم» ما دمت أستطيع بين الحين والآخر أن أرضع راءها قبل واوها!

- قلت للرجل الفقير وقد رأيت بطن زوجته منتفخة بالطفل العاشر:

وده ح توكله منين؟

فنظر إليّ ساخرًا وقال هع! من قال لك إني ح أوكله؟!

- أحيانًا أميل إلى قراءة الكتابات الخرافية .

الأمس عكفت ساعة على قراءة ميثاق حقوق الإنسان.

- تعريف عابر للمواطن المصري، إنه المواطن الوحيد في العالم الذي يمكن أن يموت في حادث تصادم بين الكاديلاك والكارو!

- من الممكن جدًا أن يكون عملك الفني ناجحًا وفاشلاً في نفس الوقت، إذا أنت فصلته عن ذوق الجماهير تمامًا.

- لن تكون شكسبير لمجرد أنك تسرق أفكار مسرحياتك وتخطئ في النمو.

- ما هي الدعاية؟ هي ذلك الشيء الذي يجعلك تتغني بشكسبير دون أن تكون قرأت له أي شيء.

- لن تكون رسامًا لمجرد أن عندك فرشاة، ولن تكون موسيقيًا لمجرد أن عندك عودًا، لكنك تستطيع أن تكون كاتبًا لمجرد أن عندك قلمًا.

- لهذا الكاتب أو ذاك: أنت في حاجة إلى قلم أخف وزنًا، فيبدو أن يدك قد بدأت تنوء بحمل قلمك القديم.

في بعض الأحيان تكون أكبر خدمة يسديها الفنان لفنه هى أن يعتزله.

أحمد رجب .. الغزال الأسكندرانى

١/٢ كلمة لأحمد رجب تغير وجه مصر

كسر نحس الغرفة ٥٣ بوضع مكتبه

مكان حمار الحكيم

السادات رفض رئاسته لآخر ساعة قائلاً:

«الولد ده ما بيسمعش الكلام»

□ □ □

في صوته حميمية دافئة وبساطة وصدق وخفة دم تلمحها فور أن تخرج الكلمات من فمه.

لم أره كما يصورونه لنا على أنه دائم العبوس والقرف، لكنى أراه أكثر الناس بساطة، وقد هاتفت كاتبنا الساخر الكبير أحمد رجب الذى يغير وجه مصر بستين كلمة يكتبها فى ١ / ٢ كلمته اليومية بجريدة الأخبار- لاجراء حوار صحفى معه فقال لى : إذا أرادت أن تلتقى أو تتهاتف فأنا تحت أمرك فى أى وقت، لكن حديث صحفى للنشر فهذا هو المستحيل.. يكلمونى كثيراً فى الإذاعة والتليفزيون، والصحافة لإجراء حوارات صحفية ولكنى أرفض، قلت له ألا يوجد فى ذلك المستحيل بارقة أمل، فقال لى: أقول لك صراحة لدى ابنتى أخت تعملان مذيعتان وقد حاولا معى ولكنى أرفض بشكل تام، فقلت له: ولكنى أقرأ لك منذ كنت طفلاً فى قريتى بالصعيد، فقال لى: أنت هاتكبرنى فى السن ليه.. أنا لسه شباب.. !!

قلت له: متى نلتقى؟

قال: عندما أعود من مرسى مطروح آخر الشهر، قلت له: بالمناسبة عملت كتاب عن واحدة إنت بتحبها؟ فقال: اسمها إية..

قلت له : اسمها شادية..

- شادية .. دى حبيبتى.. أنا عشاقها .

قلت له: هناك تسجيل إذاعى نادر جرى بينكما فى السبعينيات، وبحثت عنه ولم أجده لأنشره في الكتاب. فقال بكل بساطة وحنو: ولماذا لم تأتى إلىّ فى الأخبار وكنت جعلتك تذهب إلى المكتبة وتطلع على إعداد مجلة الجيل.. أنا كتبت عنها كتير فى الجيل.

واعتقد أن هذه صورة لأحمد رجب عن قرب لأنه لا يعقل أن يكون الكاتب الساخر منعزلاً.. كارها للناس كما يدعون.. لا يخرج من غرفته فى مؤسسة الأخبار ولا يتصل

بالناس فالكتابة الساخرة لا تخرج إلا من بين الناس ومن بين حكاياتهم وخيالهم الواسعة؛ فلولا الناس ما جاء فلاح كفر الهنادوه الذى يحمل صوتهم وهو تلك الشخصية العبقرية التى ابتكرها بذكائها الشديد وشجاعتها الخلاقة، وهى التى زجرت حوارات مع رؤساء وزراء مصر عاطف صدقى وكمال الجنزورى وأحمد نظيف وعاطف عبيد، ومع فتحى سرور رئيس مجلس الشعب، ثم الرئيس مبارك، وكان هذا تحدياً لكاتب ساخر يكتب من داخل قلاية مؤسسة قومية، ولكن الكتابة الساخرة لا تنمو إلا فى حصار من الحرية، والكاتب الساخر هو الذى يستطيع أن يحفر لنفسه مساحة من الحرية، وتصدق كلمات يوسف إدريس على أحمد رجب بالذات «إن كل الحرية المتاحة فى عالمنا العربى لا تكفى كاتباً واحداً».. فما فائدة الكتابة الساخرة إذا لم تكن لاذاعة حارقة، وما فائدة الأكل بدون الفلفل والشطة الحمراء..؟!

وحيث – تنتقل مع أحمد رجب إلى «الفهامة» تحس أنك تقرأ جريدة الدستور مثلاً أو العربى وليست أخبار اليوم. إذن نحن الذين نخلق الحرية التى نريدها وليس النظام أو السلطة، ولا أعتقد أن السلطة تستطيع أن تثنى قلماً منتصباً كالسيف، وهذا ما حدث مع أقلام مثل أحمد بهاء الدين و أحسان عبد القدوس ومحمد حسنين هيكل، فقد نما وترعرع هؤلاء فى صحف قومية لكننا لم نرى قلم أياً منهم انحنى لنظام سلطوى غاشم.

فقط بعض رؤساء التحرير عديمى الشخصية والموهبة والكفاءة تستخدمهم السلطة كعرائس المارينوت ويخفون لرتجافهم أمام أى مسؤل وإصابتهم بالهلع والرعب.. ولو فتشت أى رئيس تحرير من هؤلاء لوجدت داخله فأر دائم الحركة..!!

لكن قلم أحمد رجب لا يمكن، وعلى سبيل المثال راحت كل الصحف القومية تبدو كسجادة لجمال مبارك أينما حل بينما أحمد رجب يكتب فى أخبار اليوم معلقاً على حديث لجمال مبارك «ورغم أن جمال مبارك أجاب عن كل الأسئلة إلا أننى كنت أتمنى أن تكون الأجابة جديدة كالأسئلة».

بل وينطلق مهاجماً الفساد والفاسدين فيقول «أحب أغنية شادية يا حبيبتى يا مسر.. فيها مقطع يقول: أصله ما عداش على مصر ، ومن يتعامل مع المال العام بضمير وشفافية.. أصله ما عداش على مصر.. ومن يعتبر الكذب جريمة كبرى ..

أصله ما عداش على مصر.. ومن يسرق١٠ مليارات و ٨٠٠ مليون فوسفات أبو طرطور يبقى أكيد عدى على مصر ويقيم فى فسادستان».

أيضاً هناك شخصيات مطرب الأخبار وكمبورة وجنجع وعزيز بيه الأليت والكوماندة وقاسم السماوى وعباس العرسة المنافق، وعبد الروتين وكحيت وخاميس فجلة منتج سينما المقاولات الذى وصفه فى كتابه «كلام فارغ».. كلها شخصيات يتخفى وراءها كاتب يبحث عن الحرية «عندما تنطلق حرية التعبير وتوجد صحافة الرأى الآخر، تكتب ما تشاء وتنكت كما تريد بالكلمة والكاريكاتير، لأن النكت السياسية والهمسات الضاحكة تختفى من أفواه الناس وتتخذ مسارها الطبيعى عبر الإعلام العلنى، أو الصحيفة أو التليفزيون، تصل إلى كل الناس وتصبح قديمة. لكن عندما تكون النكتة فلكلورية مصدرها الشعب تصبح معمرة وتعيش زمناً طويلاً حتى تصل إلى الناس فرداً فرداً عن طريق الهمس. والنكت الشعبية تختلف من شعب لآخر، فهناك نكتة مثلاً تتناول جنون بعض حكام العالم الثالث بالأوسمة والنياشين التى ترصع بدلهم العسكرية، وعلى سبيل المثال قيل إن عيدى أمين ملأ بدلته بالنياشين ولم يبق فيها إلا مكان واحد لو وضع فيه نياشين جديدة، فسوف يتعذر عليه الجلوس».

وبمناسبة تجهم أحمد رجب، فقد سأله أحد الصحفيين عن السر فى ذلك فقال: لأنى لو لم أفعل ذلك لظن الناس أننى مجنون فأثناء سيرى فى الشارع تأتينى خواطر وأفكار معينة تجعلنى أضحك بصوت مرتفع يصل إلى حد «القهقهة» فى داخلى !! لذلك فلو تركت الضحكة تخرج سيظن الناس أننى مجنون!! وسيجرون ورائى!

والسخرية هى نوع من الفضفضة، ولأنى حزين ومتألم فأنا ساخر، فأنا جزء من الشعب المصرى الذى بنى حضارته، وقهر المعجزات وحطم الصعوبات وهو يتألم.

فكاتبنا الكبير متجهم مع سبق الإصرار والترصد وليس طبيعة فى شكله الوسيم (الجذاب) بشعره الناعم وعينيه الزرقاوين ينتمى إلى برج العقرب حيث ولد فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨، والشىء الغريب أن عمنا محمود السعدنى ولد فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٦ .. يوم وعام بين أشهر ساخرين فى الوطن العربى.. ولا أعرف سر تلك الصدفة الغريبة غير أن إله الضحك كان يرفرف بجناحيه بين الأسكندرية والجيزة.. وفى طفولته كان

أحمد رجب يقرع أبواب الدهشة والمعرفة ولكن بآليات لم أسمع أن أحداً اتجه إليها من قبل فقد كان يسأل نفسه من عشقه للغناء إذا كان الصوت يطلع من فم المطرب فمن أين تأتى الموسيقى وأصوات من يرددون خلفه؟!

لذا احتارت أمه حين كانت تجده جالساً بمفرده فاتحاً فمه عن آخره فى انتظار خروج الموسيقى بعد الغناء الصوت، حيث تصور أن الموسيقى تخرج من بطن المطرب، وشاهدت الأم ابنها على هذه الحالة فذهبت لوالده وقالت له الواد باين عليه طالع عبيط.

ويكمل رجب «وآثرت أن أمارس عملية فتح فمى على آخره بعيداً عن البيت، فعلى شاطىء مجاور لشاطىء جليم اسمه البحر الخربان، جلست أغنى: أنا اللى مهما تعذبنى ساكت على الغلب وصابر، ثم فتحت فمى على آخره فى انتظار خروج اللازمة الموسيقية.

ومرت ساعة واثنتان وثلاث دون أن تخرج اللازمة الموسيقية، وجف ريقى، فقررت أن أغلق فمى، لكننى فشلت فقد تصلب فكى فجأة دون أن أدرى - وقتئذ- لماذا تصلب..؟

وعدت إلى البيت أبكى وأنا مفتوح الفم كسيد قشطة، حتى جاء المجبراتى واغلق فمى».

تخرج أحمد رجب فى كلية الحقوق جامعة الأسكندرية عام ١٩٥١ .. وكان عضو فريق التمثيل فى الكلية مع عبد الفتاح الديب الذى صار زميلاً له فى أخبار اليوم، وقد ترك التمثيل لأن عبد الفتاح الديب اندمج على المسرح متقلداً سيفه، وهو يؤدى دور لويس الحادى عشر وأحمد رجب يلعب دور القسيس، والديب يقول له:

- فاذا ما سكن الليل يا أبتاه.. خيل إلى أننى أسبح فى بحيرة من الدماء..

واندمج عبد الفتاح الديب، ونسى أحمد رجب الحوار، وأخذ يؤلف:

- هل قلت يا بنى أنه يخيل إليك أنك تسبح فى بحر من الدماء؟؟

فرد قائلاً : نعم يا أبتاه .

فقال رجب: وما لون هذه الدماء بالضبط يا بنى هل هى قرمزية أم وردية أم تميل إلى السواد؟

فهمس الديب: أيه ده. الله يخرب بيتك؟ فقال له هامساً: أصلى نسيت الكلام ثم ارتفع صوت رجب فجأة: تكلم يا بنى ما لون هذه الدماء التى تراها عندما يأتى المساء ونجوم الليل تنشر، فضحك الجمهور وقرر عبد الفتاح الديب فصل أحمد رجب من فريق التمثيل.

وقد عمل محرراً بمؤسسة أخبار اليوم عام ١٩٥٢ .. كما تولى مدير تحرير مجلة الجيل بعد أن اكتشفه الأخوان مصطفى وعلى أمين ثم رئيساً لتحرير الجيل (١٩٥٤ -١٩٦٢) ثم مديراً لتحرير مجلة «هى» عام ١٩٦٤ ثم عمل بمجلة آخر ساعة ١٩٦٤ ثم كاتب عامود بجريدة الأخبار منذ عام١٩٦٩ .. وأحمد رجب لم يكن موهوباً فى الكتابة الصحفية الساخرة فقط وانما كتبه قطع أدبية متميزة، كما أنه كتب للاذاعة قصة حياة محمد عبد الوهاب فى أوائل الستينيات ثم كتبها للتليفزيون، وكتب قصة حياة روز اليوسف « ومنيرة المهدية»، وحلقات «اشتراكى جداً».. وشيء من العذاب للاذاعة.. وقد تحول لفيلم سينمائى رومانسى رائع لسعاد حسنى ويحيى شاهين وحسن يوسف، كما أنه صاحب الفيلم الكوميدى «شنبو فى المصيدة» وفيلم «المجنون » و«فوزية البرجوازية».. وكتب مسلسلات محاكمة على بابا وصاحب العمارة والوزير جالى والحب وسنينه.

ولكن القضية التى أغضبت أصدقاءه منه زمان حدوثها كان عام ١٩٦٢ حيث ابتكر فكرة صحفية عبقرية حيث ألف مسرحية اسماها «الهواء الاسود» ونشرها باسم الكاتب السويسرى الشهير فريد ريش دورنيمات كاحدى مسرحيات اللامعقول، وطلب من النقاد والقراء التعليق عليها ، وكتب كبار النقاد والصحفيين مقالات مطولة فى المسرحية وفسروا النواحى الجمالية والرمزية فى المسرحية والمدرسة التى تنتمى إليها وقطور هذع الأدب، وبعد نشر هذه المقاولات كشف أحمد رجب عن المقلب بأنه هو مؤلف المسرحية..!!

ويروى أحمد رجب قصته مع الغرفة ٥٣ بقوله:

قضيت نصف عمرى فى الغرفة ٥٣ بمبنى أخبار اليوم ! والغرفة ٥٣ غرفة تاريخية. فأول من اتخذها مكتباً هو توفيق الحكيم. ثم كامل الشناوى. ثم جلال الحمامصى. ثم موسى صبرى. ثم أنيس منصور. ثم سعيد سنبل. ثم كاتب هذه السطور.

وقد اشتهرت هذه الغرفة بأن من يقيم فيها لابد أن يغادر دار أخبار اليوم. إما للعمل الصحفى فى دار أخرى أو إلى بيته ليستريح فى إجازة مفتوحة. وكان تعبير إجازة مفتوحة. فى تلك الأيام هو اسم الدلع للفصل من العمل.

فقد ترك توفيق الحكيم الغرفة ليعمل مديراً لدار الكتب وخرج منها جلال الحمامصى ليؤسس وكالة أنباء الشرق الأوسط وغادره كامل الشناوى ليرأس تحرير الجمهورية وجلس فيها موسى صبرى فتم منعه من الكتابة مع إجازة مفتوحة.، ثم صدرت الأوامر بنقله إلى الجمهورية .. ثم دخل أنيس منصور الغرفة ٥٣ وخرج منها فى إجازة مفتوحة أيضاً. والإجازة المفتوحة - كما عرفنا - يومئذ - كانت بلا راتب أو معاش أو مكافأة وذلك طبقاً للأوامر الصارمة الصادرة من السلطات العليا فكان مصطفى أمين بدفع سراً راتب صاحب الإجازة من جيبه الخاص حتى تأميم أخبار اليوم ..

وجاء الدور على سعيد سنبل ليدخل الغرفة ٥٣ وأفض بشدة فى البداية. ولكن على أمين الذى اشتهر بالقدرة على أن يقنع كل من حولة بالتفاؤل استطاع أن يقنع سعيد بالإقامة فيها فدخل يتفحصها كأنما يريد أن يستجلى سرها. وهداه تفكيره إلى أن يغير وضع المكتب فنقله من الحائط الشرقى المواجه للباب إلى الحائط الغربى المجاور للباب لعل ذلك يكسر نحس الغرف..

وبقى سعيد سنبل فى أخبار اليوم، وفى منتصف الستينيات جاء دورى لأقيم فى الغرفة ٥٣ ورغم معرفتى بتاريخ الغرفة فإن عملى الدائم مع على أمين علمنى التفاؤل.

بل لقد وصل تفاؤلى إلى أننى قررت إعادة المكتب إلى الوضع القديم، وجاء عمال الكهرباء والتليفونات ونقلوا الأسلاك من الحائط الغربى إلى الحائط الشرقى كما كان!

ومر يومان، وذهبت لأقبض مرتبى فلم أجد اسمى فى كشف المرتبات، وسألت صراف الخزانة عن السبب فمط شفتيه علامة أنه لا يعلم، وهز مدير الحسابات كتفيه

علامة انه لا يفهم، وكان حديث الثلاثة بالاشارة معه دليلاً على أن بركة الغرفة ٥٢ قد حلت على رأسى، وأننى أصبحت من المغضوب عليهم، وأن الكلام معى باللسان مكروه شرعاً!

وبدأت أبحث عن حكام أخبار اليوم فى ذلك الزمان ولم أجد الضابط الصغير الذى فرضه الضابط الكبير فى حكم أخبار اليوم نيابة عنه بوصفه سكرتيره، وبحثت عن الصول سكرتير الضابط الصغير الذى يتولى تصريف الأمور نيابة عنه فهو غير موجود أيضاً، وبحثت عن الشاويش ضرغام سكرتير حضرة الصول الذى يحكم فى غيابه فقيل أنه يضيء اللمبة الحمراء، وبحثت عن العسكرى أبو اليزيد سكرتير الشاويش ضرغام فقالوا لى أنه فى صالة تحرير الأخبار يراجع المانيشات التى كتبها مصطفى أمين.

إيماناً بنظرية سعيد سنبل بدأت أغير من وضع المكتب لتكون النافذة من خلفى، وما أن استقر المكتب فى وضعه الجديد حتى دق جرس التليفون ليبلغونى أن اسمى سقط سهوا من كشف المر تبات وعاد موظفو الأدارة يتحدثون معى باللسان بدلاً من لغة الإشارة علامة على أنى غير مغضوب عليه والحمد لله.

وبقيت فى الغرفة ٥٣ وظل أول ساكن للغرفة توفيق الحكيم يذكرنى فى كل كتاب جديد يهديه إلى اننى أجلس فى غرفته «العزيزة» كما كان يصفها دائما، كأنما يطلب أن أصونها واحرص عليها، وكانت آخر الكتب التى تلقيتها عن عملاق الفن والفكر كتاب «يقظة الفكر» الذى يقول فى مقدمته «لا أريد من كتابى أن يريح القارىء»، أريد أن يطوى القارئ كتابى فتبدأ متاعبه إن مهمتى هى تحريك الرؤوس».

وقد حرك توفيق الحكيم رأسى وأنا أحملق فى أجواء الغرفة ٥٣ وأتساءل: كيف لم أحظ من هذه الغرفة باشعاعات الفكر والفن التى تركها توفيق الحكيم فى هذا المكان فأفكر مثله وأبدع مثله؟

وتبين لى أن السبب هو أننى غيرت موضع مكتبى من الغرفة حيث كان يجلس توفيق الحكيم ونقلته إلى الجانب الآخر حيث كان مربط حمار الحكيم.

الغريب أن أحمد رجب يهاجم كبار المسئولين وحين يلقونه فى مناسبة ما يفتح كل مسؤل ذراعيه ويختضن أحمد رجب، ذلك لأنهم يعلمون أنه كاتب من طراز فريد لا

يعنيه سوى مصلحة الوطن، ولا توجد لديه مصلحة شخصية فيما يكتبه، ولكن بالطبع حين يكتب عن إسرائيل فإن الأمر مختلف، فقد قام يهودا لاذكرى سفير إسرائيل فى الأمم المتحدة بشكوى أحمد رجب لمجلس الأمن، واتهمه سفير إسرائيل بالقاهرة بأنه معاد للسامية ويجب أن يكون فى السجن، وقد نشرت النيويورك تايمز أخطاره باعتباره أكثر الكتاب تأثيراً فى حياة المصريين، وحين منحت نقابة الصحفيين جائزتها التقديرية لأحمد رجب هاجمه زيفى مازيل السفير الإسرائيلى بالقاهرة قائلاً: «إن أحمد رجب يجب أن يكون فى السجن الآن» مشيراً إلى معاداته للسامية وإشادته بموقف هتلر من اليهود وحيث كتب رجب فى ½ كلمة يقول: «شكراً للمرحوم هتلر الذى انتقم مقدماً للفلسطينيين من أحقر مجرمى الأرض وإن كنا نلوم هتلر لأن انتقامه منهم لم يكن كافياً».

وقد كون أحمد رجب ومصطفى حسين ثنائياً بدأ منذ عام ١٩٧٤ وتوقف بالسكته القلبية عام ٢٠٠١ وتعددت أسباب سكوته فهناك من وصف الأمر بأنه خلاف مادى على تقديم الشخصيات فى قناةART وهناك من وصفه بأنه خلاف ابداعى، لكن أحمد رجب ومصطفى حسين يرفضان الحديث فى هذا الأمر تماماً.. والآن كل منهما فى طريق.

أما الحياة الشخصية لأحمد رجب فلم يعرف عن الرجل شيئاً عن سهرات الليل رغم أنه أحد نجوم المجتمع لكنه نجم من نجوم الزمن الجميل، لذا فقد عاش مخلصاً لزوجته «عصمت فخرى» التى كان يحبها كثيراً.. وقد رحلت فكتب فى ½ كلمة فى ٩ يناير١٩٩٢ «رحلت «عصمت» شريكة حياتى وكفاحى ورفيقة العمر التى كانت تحول تعثرى إلى نجاح ويأسى إلى أمل وعلمتنى بضحكاتها الساخرة أسلوباً فذاً فى معاملة الحياة.. ارحمها كثيراً يا رب .. فقد كانت رحمة حياتى».

ورغم أن أحمد رجب لم ينجب إلا أنه يعشق الأطفال ويحب الكتابة لهم «أمنيتى أن أتحول إلى كاتب للأطفال .. إن بريدى يحمل الكثير من رسائل الصغار، رنهم يمثلون جزءً كبيراً من القراء، لهذا أتمنى أن أتفرغ لهم وأن أتقن الكتابة لهم.. فالكتابة للأطفال شاقة ومضية.. جربت ذلك فى مجلة «الأولاد» التى كانت تصدر مع مجلة «هى».. فقد اقترح المرحوم على أمين أن أحول قصص «كليلة ودمنة» إلى قصص

يفهمها الطفل وكتبتها فى صور قام برسمها الفنان مصطفى حسين واستطعت بطلوع الروح أن أكتب قصتين «الأسد والثور» و «الحمامة المطوقة».. وبعدها كتبت نحو أربع أو خمس قصص من كليلة ودمنة ورسمها مصطفى حسين ونشرتها دار الشروق».

هذا الرجل الوحيد فى بيته الآن المحاط بملايين القراء على خارطة الوطن العربى كله وصل لرئاسة تحرير مجلة وعمره ٢٨ عاماً - وهى الجيل - وطرح مصطفى أمين اسمه على الرئيس السادات ليتولى رئاسة تحرير آخر ساعة، لكن السادات قال إنه «لايسمع الكلام».. وأحمد رجب لا يسمع إلا كلام ضميره.. ولا يحب إلا بسطاء الناس المهمومين - بشكل يومى - وراء لقمة العيش التى لا يجدونها كثيراً.. أحمد رجب يبحث عن بطن جائع ليكتب عنه لا عن بطن شبعان ليضحكه.. لذا صار كاتب البسطاء وصوتهم الذى فصله الجلاد عن الوصول إلى الحاكم ، لذا انقلبت الدنيا حين ممتاز القط منع مقال أحمد رجب.. حيث اتصل القط هاتفياً برجب ليطلب منه حذف عبارة من كاريكاتيره فغضب أحمد رجب ورفض إجراء أى تعديل، ثم أرسل أحمد رجب إلى القط اعتذاراً عن الكتابة فى أخبار اليوم لأنه فى إجازة.. وقيل إن جهات عليا طلبت منع نشر كاريكاتير كفر الهنادوه ، لكن أحمد رجب كتب فى ١/٢ كلمة فى الأخبار«عن احتجاب كفر الهنادوة:

لم أستأذن الرئيس مبارك فى رسوم زيارة فلاح كفر الهنادوة للرئيس، فانى أعرف بالتجربة الطويلة احترامه لحرية الصحافة، بل أنه أذن للفنان عمرو فهمى بإقامة معرض كفر الهنادوة وأناب الفنان فاروق حسنى لافتتاحه، وأشهد أن فى كل لقاءاتى مع الرئيس لم يفاتحنى البتة فى ما أكتب سواء فى «نص كلمة» أو «كفر الهنادوة» إذن الرئيس لا علاقة له باحتجاب كفر الهنادوة.

وكان احتفاء الناس العاديين بأحمد رجب وسؤالهم عن فلاح كفر الهنادوة يمثل انتصاراً حقيقياً لكاتب - كما قلنا فى البداية - يعيش بين الناس ويستمد حياته وأفكاره من حبهم له وحبه لهم.

أحلى ٤٥ نص كلمة

* لست متشائماً لتزايد لصوص المال العام وعديمى الذمة والشرف والمنافقين ففى خلال شهور قليلة سوف يتاح لنا رؤية حشد كبير من الشرفاء وذوى النزاهة والأمانة والشفافية وذلك فوق يفط الدعاية الانتخابية.

* وجود نقابة تجمع أبناء العمل الواحد ليس أمراً ضرورياً بدليل أن أقوى فئة فى مصر ليست لها نقابة وهى فئة المنافقين.

* كتبت عن بعض المنافقين الذين يهاجمون أغانى عجرم وإليسا وهيفاء بينما هم يبحثون عنهن فى القنوات الفضائية؟ وأنهم يدعون فى سرهم «اللهم عجرم نساءنا» وتلقيت رسالة بتوقيع زوج جبان يقول: هذا الدعاء ناقص إذ يجب أن يقال اللهم عجرم نساءنا، وأجعل من زوجتنا «ذكرى».

* يمكن أن رئيس وزراء أسبرطة القديمة كان يتحدث فى ندوة وأمام الكلام الوردى والأرقام البمبى بدأ الحاضرون يتسللون خارجين واحداً بعد الآخر، ولم يبق فى القاعة إلا رجل وحيد ظل جالساً حتى النهاية لأنه أطرش.

* فى أسبرطة القديمة عندما كتب صحفى أسبرطى أن وزير الأرقام خواف وفزعنجى لا يتخذ قراراً وأنه غبى ديم الذكاء وقد حكمت المحكمة ببراءة الصحفى من التهمة الأولى أن الوزير فزعنجى، أما أن الوزير غبى فقد حكم على الصحفى بالحبس سنة لأنه أذاع سراً من أسرار الدولة تحرص الوزارة على كتمانه .

* قال حكيم أسبرطة: أهم من أن تكتب كتباً هو أن يكتبوا عنك الكتب، ووزير التموين لم يؤلف كتباً ولكنهم يكتبون عنه، إذ يظهر فى المكتبات قريباً كتاب بعنوان «نوادر وزير التموين».

* قال رئيس الوزراء فى النادى السياسى: إن الحكومة ملتزمة بتوفير ٥٠٠ ألف فرصة عمل سنوياً، وفى بيان الحكومة ٢٠٠١ أعلن عن توفير ٨٠٠ ألف فرصة عمل، وفى حديث لرؤساء التحرير فى فبراير ٢٠٠١ أعلن عن توفير ٥٥٠ ألف فرصة عمل.

وقديماً قال حكيم أسبرطه الكلام بلوش وليس بالفلوس والكلام الوحيد اللى بالفلوس هو الكلام فى المحمول.

* وقال حكيم أسبرطه: إن تتجه إلى محطة السكة الحديد وتبتاع تذكرة سفر فهذه هى النفس الأمارة بالسوء، وأن تعدل عن السفر فى آخر لحظة فهذه هى العناية الإلهية، وأن تصدق تصريحات الأمان التى يرددونها من عشرين سنة، فلك الرحمة والمغفرة ولأسرتك الصبر والسلوان و٣٠٠٠ جنيه.

* لماذا ترشيح الوزراء لمجلس الشعب؟ فبغض النظر عن الخلط بين السلطتين التنفيذية والتشريعية. فإن الوزير هو أسوأ نائب دائماً لأن مشاغله لا تسمح ولو بزيارة الدائرة، ومن الغريب أن الوزير يخطب فى الناس قبل الانتخابات محاولاً إقناع الناس بمبررات انتخابه نائباً ولكنه لا يكشف عن مبرر واحد ليعينه وزيراً.

* وفى الأرض زنادقة وملحدون وعبدة أوثان وعبدة بقر وعبدة نار وعبدة بوذا وكفار على كل لون، يعنى - أستغفر الله العظيم - لو أجرينا استفتاء على الله سبحانه وتعالى فلن يحصل على ٩٩٪.

* سألت سائق تاكسى عن رأيه فى الحكم ببطلان مجلس الشعب فقال: ما هو ده يا بيه آخر المشى البطال.

* قرأت حديثاً للدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب فى الزميلة «روز اليوسف» قال فيه إن أعضاء مجلس الشعب غلابة.

إلهى يا رب تجعل الستة وستين مليون مصرى غلابة غلب أعضاء مجلس الشعب قادر يا كريم.

* بعد بيع تأشيرات الحج، آخر فضيحة فى سلسلة فضائح الاتجار بعضوية وحصانة المجلس الموقر، أرجو أن تنتهى آخر دورة على خير، أملاً ألا يكتشف د. سرور بعد إحدى الجلسات أن محفظته قد نشلت.

* لماذا لا تذاع جلسات مجلس الشعب فى التليفزيون كاملة من غير حذف خصوصاً أننا شعب يحب الضحك؟

* التكنولوجيا المتقدمة جداً فى الأفلام الأمريكية تعتمد أساساً على الكمبيوتر، وبالكمبيوتر سيعيدون مارلين مونرو إلى الحياة لتمثيل أمام ممثل معاصر، وأتمنى أن يدخل هذا الكمبيوتر بلدنا فنشاهد موتانا وهم يروحون ويجيئون ويتجهون إلى الصناديق فى موسم الانتخابات.

* يتهمون الحكومة بالإسراف والسفه وهى تهمة ظالمة بدليل القرارات الحكومية التى تنشرها الجريدة الرسمية أحياناً، كهذا القرار مثلاً عن مواطن قُتل وهو يؤدى عملاً تم تكليفه به. فأرسلت الحكومة إلى والده تعويضاً مقداره ٢٥٠ قرشاً.

(ملحوظة : لا توجد غلطة مطبعية)

* ما العلاقة بين الجنية المصرى والجيولوجيا؟! دهشة بالغة أن يكون نص السؤال الرابع فى امتحان الجيولوجيا للثانوية العامة.. ما النتائج المترتبة عن الارتفاع المتزايد فى الأسعار والانخفاض فى قيمة الجنيه المصرى مقابل العملات الآخرى؟!

والواقع الذى يجهله الكثيرون أن العلاقة بين الجيولوجيا والجنية تصبح وثيقة جداً إذا كانت العلاقة وثيقة بين واضعى الأسئلة والبانجو.

* نطمئن الشاكين من مبالغات فلوس الزبالة فى فواتير الكهرباء بأن أكاديمية البحث العلمى بعد انتهائها من استنساخ أول أستيكة مصرية سوف تتفرغ لمشروعها الكبير وهو توصيل صفيحة الزبالة بعداد النور.

* للجنيه المصرى تاريخ مؤلم، فالذى كان يخرج به من المطار يقبضون عليه، والداخل به يقبضون عليه، والذى يحمل كميات منه يوضع تحت الحراسة، ثم تعرض للمهانة فى عصر الدولار ثم جعله عاطف عبيد بلا عمل، وإذا كان يتم الآن توحيد العملة بين دول الخليج، فإننا نأمل أن يجد الجنيه عقد عمل بالخليج.

* ما يحدث بين بعض أعضاء جامعة الدول العربية من مساخر فى هذا الوقت بالذات يؤكد أن هذه الجامعة ستكون أكثر نفعاً لو أن مبناها على النيل ثم تأجيره مفروشاً.

* شيء غريب أن العرب لم يكونوا قد عرفوا مؤتمرات القمة عندما قالوا مثلهم الشهير تمخض الجبل فولد فأراً.

* أجريت انتخابات رئاسة الليكود بين شارون ونتانياهو وفاز شارون، وأيا كان الفائز من الإثنين فإن النتيجة متساوية عند العرب، فنتنياهو ولدته أمه وهى تستغفر الله وشارون ولدته أمه وهى تعتذر للبشرية.

* سمعت أن أسرة مواطن اسمه عبد الله المصرى رفعت دعوى تعويض على رئيس الوزراء والسبب أن د. عبيد كان يتحدث أمام اللجنة الاقتصادية بمجلس الشعب مؤكدا متانة الاقتصاد المصرى وصموده أمام الهزات، وما أن سمع المواطن عبد الله المصرى هذا الكلام حتى مات من الضحك رحمه الله

* إلى هواة الشطرنج: ننصح بعدم استعمال الشطرنج المصنوع فى مصر لأن الوزير فيه لا يمكن أن يترك مكانه ولا بعد ٢٠ سنة.

* من عشرات السنين والحكومة تحتكر الكلام فى بيان الحكومة والشعب يسمع ويضحك، لماذا لا تعطينا الحكومة فرصة مماثلة فنلقى بيان الشعب لتسمع الحكومة وتبكى؟؟

* آخر أغنية لحنها الشيخ زكريا أحمد لأم كلثوم كانت سنة ٦٠ وهى أغنية هو صحيح الهوى غلاب التى تقول فيها: عهود لا تصدق ولا تتصان.. عهود مع اللى مالهش أمان .. وقد اعتاد المصريون أن يرددوا هذه الأغنية بعد بيان الحكومة.

* يتساءلون لماذا تحظى المرأة بالمناصب الكبرى فى الإذاعة والتليفزيون ولماذا عدد المذيعات ضعف عدد المذيعين؟

أعتقد أن الحكاية بدأت من الإذاعة، فالإذاعة صوتية وليس أرق ولا أحلى من صوت المرأة؟ ثم جاء التليفزيون وليس أجمل من صورة المرأة، ثم إن الإذاعة والتليفزيون كلام فى كلام، والمرأة تعشق الكلام ولا تمل الكلام حتى أننى أكاد أعتقد أن الذى اخترع القبلة رجل خبيث أراد فى الأصل أن يوقف المرأة عن الكلام.

* تطورت الأغنية تطوراً هائلاً بفضل مغنيات الفيديو كليب حتى أن إحداهن تباهت بأنها أثارت الحصان الذى ظهر معها إثارة شديدة، ولعل الانقلاب الذى أحدثته هؤلاء المغنيات أن المغنية لم يعد صوتها يصدر من فمها.

* من تخاريف الانفلونزا: الزوج عادة يسمى زوجته الحكومة لأوجه الشبه بين الزوجة والحكومة لعل أهمها فرض السيطرة ومصادرة الحريات والانفراد بالقرار وتجفيف جيوب الزوج أولاً بأول، غير أن الحكومة تختلف عن الزوجة فى شىء واحد كنا نتمنى أن يكون موجوداً وهو أن الحكومة – للأسف. لا تطلب الخلع أبداً.

* جاء فى وكالات الأنباء أن معمراً من البحرين «١٠١ سنة و٨٢ حفيداً» رفضته ١١ فتاة عريساً لكنه مصمم على الزواج لأنه فى صحة جيدة، وهو يذكرنى بالمعمر الذى أراد أن يتزوج فتاة عمرها ١٩ سنة فلما قال له الطبيب كدة تموت يا راجل رد قائلاً: تموت تموت أجوز غيرها.

* رداً على أسئلة: الجمال المصرى له طعم آخر، السمرة والعيون السود ورمش العين وخفة الدم، وهذا لا يتعارض مع ما قلته من أن مشاهدة شاكيرا تعتبر من حقوق الإنسان، وعموماً المطربات غير المصريات على الساحة جميلات وجذابات حقاً ولا ينتقص من جمال إحداهن أن خدودها فى حاجة إلى سوتيان.

* نفى وزير النقل الاتجاه إلى تحويل السكك الحديدية إلى شركة قابضة رغم أن السكك الحديدية أصبحت قابضة للأرواح.

* نقلت وكالات الأنباء فى برلين خبراً طريفاً عن معرض لتوابيت الموتى بتصميمات مبتكرة على شكل سمكة أو سيارة مرسيدس فاخرة مع زخارف ذهبية وذلك من أجل رحيل «شيك» عن الحياة مع أن الجنازة لو تأملناها ستجد أنها مجموعة من الناس يحملون إنساناً عزيزاً على أعناقهم فى تكريم مهيب ثم ينتهى هذا التكريم بمفاجأة شديدة الغرابة وهى إلقاء التراب عليه.

* مذيع قناة الجزيرة بقطر الذى يقدم برناج «بلا حدود» لماذا لا يعالج حواجبه السايبة من تلعيبها المستمر؟ إننا ننبه هذا المذيع إلى أن بين مشاهديه سيدات وآنسات وعيب جداً ترقيص حواجبه لهن، فإذا تعذر عليك العلاج فإننا ننصحه بالذهاب إلى أقرب حلاق حواجب.

* الظاهر أن المحليات لها طابع واحد، ومن محلياتنا إلى محلياتهم فى الخارج يا قلبى لا تحزن، فقد كتب صحفى ألمانى يقول إن نصف مجلس المدينة حرامية، فلما طالبوه بتكذيب ما نشر كتب يقول إن نصف مجلس المدينة ليسوا حرامية.

* رامسفيلد قرر هدم سجن «أبو غريب» تغطية لفضيحة أمريكا، وهو موقف يشبه تماماً موقف مستر جونس الذى عاد إلى منزله ففوجئ بزوجته فى حضن رجل غريب على كنبة المدخل فقرر بيع الكنبة.

* تعرفه فوراً من أى صفة من الصفات: أقوى شرير فى العالم. صانع التوتN فى العالم. صانع الاكتئاب فى العالم. صانع اليتامى والثكالى والمشردين فى العالم. مكروه فى العالم كله متعصب دينى أعمى البصيرة.

(وليس غريباً أن صفاته هذه تنطبق تماماً أيضاً على بن لادن).

* فقد البنك المركزى استقلاله وانفردت به الحكومة وأخشى أن تمتد يدها بالسلف إلى البنوك كما امتدت إلى كل مال حتى أموال التأمينات الاجتماعية وبلغ دينها الداخلى حتى يونيه الماضى ٢٨٦ مليارا منها ٢٠٨ مليارات ديوناً للبنوك، وأخشى أكثر تصرف المدين العاجز فتلجأ الحكومة إلى الهرب من مصر.

● يحاول الناس التغلب على الاكتئاب المحلى والخارجى بتبادل النكت عن بوش وبلير، آخر نكته ظهرت: بلير يسأل بوش : أنت متأكد أن صدام حسين يخفى أسلحة دمار شامل؟ ويرد بوش : باقولك عندى وصولات استلام الأسلحة بإمضائه.

● صار الاكتئاب دولياً بالإضافة إلى اكتئابنا المحلى .

ولابد أن تعداد المكتئبين زاد عما قدره د. أحمد عكاشة وهو ٣٠ مليون مكتئب، واختفت الابتسامة من السوق السوداء، ولم يبق من الناجين من الاكتئاب إلا د. عاطف عبيد وحده الذى يحتفظ بمخزون استراتيجى وافر من الابتسام يحرق به دمنا صباحاً ومساءً.

● الفتاوى الشرعية تصدر كل يوم.. ألا نجد فتوى للتفريق بيننا وبين هذه الحكومة قياساً على التفريق بين الزوجين للضرر؟

● وفى أوروبا يناقشون انخفاض المواليد، وفى اليابان يناقشون نفس المشكلة، وفى استراليا يناقشون سبب الزهد المتبادل بين الأزواج والزوجات، وفى مصر لا وقت للمناقشة، بل عمل متواصل لتغطية تقصير الأوروبيين وغيرهم فى حفظ النوع البشرى.

يا عم صلاح جاهين :

الأصل هو الموت ولا الحياة..!!

- رجع عبد الناصر ليصافح والده مرة أخرى فقال لابنه: جاء اليوم الذى أعرف فيه بك !!

- يحيى حقى: لم أجد مثل صلاح جاهين لا فى الشرق ولا فى الغرب !

- كل ما كتب بالعامية يلقى فى كوم زبالة فى التوفيقية إلا ما كتبه صلاح جاهين.

□ □ □

مثل قطعة من وطن.. أو قطعة من حب.. أو قطعة من زهر.. أو مثل ابتسامة خرجت ولم تعد الشفاه مذمومة مرة أخرى يأتى صلاح جاهين..

ذلك الوجه الذى مهما حاولت الريشة أن ترسمه فإنها تنقصه حقه، فكتابات ورسومات صلاح جاهين مثل قصيدته «القاهرة فى ألف عام».. فهو حياة كاملة لهذا البلد ترسم أناتها وضحكاتها.. ثورتها وتحريرها ثم انكسارها ثم تفاهتها..

لقد عاش صالح جاهين مثلما عاشت مصر.. كانا معاً مترافقين لحظة بلحظة وليلة بليلة ودمعة بدمعة، أحبها وهى فى عز عنفوانها مقتدياً بجده الصحفى الكبير أحمد حلمى الذى لم يتبق منه سوى ميدان فى حى شبرا وقد ترأس تحرير جريدة اللواء وكان الصديق المقرب لمصطفى كامل ومحمد فريد ـ ليس مصطفى كامل بتاع دموع .. دموع بالطبع ـ وكانت فى بيت صلاح جاهين صورة كبيرة له بتوقيعه وعليها إهداء لجده أحمد حلمى الذى زوجه شعبان عبد الرحيم لعايدة.. وقد عاشت ثورة ١٩١٩ فى أعماق صلاح جاهين رغم أنه من مواليد ١٩٣٥ لكن أسطوانات سيد درويش والتاريخ الذى كان يسكن بيتهم جعلوه مفتوناً بثورة ١٩١٩ .. وكانت طفولة صلاح جاهين تحمل شقاوة وحنية لا مثيل لهما ـ حسب وصف شقيقته بهيجة ـ التى تقول «كان يكره العدوانية ولا يميل إلى الصخب وكان شجاعاً وجريئاً لدرجة أن هناك صديقاً للعائلة اسمه الدكتور محمد العنانى جاء إلى بيتنا مرة وكان صلاح فى الثالثة من عمره فوقف على كرسى وقال «كانى مانى ودكان الزلبانى.. الدكتور العنانى»..!

وبهيجة كانت تخطف اللعب من صلاح وتضربه، فتحاول أمهما أن تضربها فيقول لها صلاح: ماتضربيهاش.. هى لسة صغيرة.. وكانت تصغره بعامين .

وقد وجد صلاح أمامه مكتبة ضخمة تركها جده أحمد حلمى فقرأ فيها المتنبى والجبرتى ومدرسة أبوللو وشوقى ، ولعل هذا هو سر اتجاهه للفصحى. أما سر اتجاهه للعامية فيقول صلاح جاهين. فى حوار تليفزيونى مع الشاعر فاروق شوشة لم يذع ولم

ينشر ولدينا نسخة منه ـ «أنا الحقيقة كنت فى حالى ويعدين لقيت جريدة مكتوب فيها حتة صغيرة على عامود فى آخر الصفحة بإمضاء فؤاد حداد ولما قريتها لقيتها مكتوبة بالعامية ومكتوبة بألفاظ عادية يعنى كده من حديث كل يوم لكن مشحونة بمشاعر كبيرة جداً من وجهة نظر رقيقة وفى نفس الوقت معرفش مشحونه بإيه يعنى، فأنا أعجبتنى النغمة دى جداً ومن وقتها قررت أنى مش حكتب إلا باللهجة دى».

ورغم أن كل إبداعات صلاح جاهين تستحق التأمل والتوقف سواء دواوينه «كلمة سلام» ١٩٥٥ والذى كتب له كمال عبد الحليم مقدمة رائعة؟ و«موال عشان القناة» ١٩٦٥ و«عن القمر والطين» ١٩٦١ وقصاقيص ورق ١٩٦٦ و«أنغام سبتمبرية»١٩٨٤ .. أو رباعياته الفلسفية الشعرية المرائعة التى كتبها أول مرة فى شارع قصر العينى وهو ذاهب إلى مجلة «صباح الخير» ـ حسب رواية ابنه الشاعر بهاء جاهين - وترددت فى خاطره كلمات تقول .

مع إن الناس من أصل وطين
وكلهم نازلين مغمضين
بعد الدقائق والشهور والسنين
تلاقى ناس أشرار وناس طيبين

ثم قال عجبى، ووصل المجلة فالتقى برئيس تحريرها أحمد بهاء الدين وأسمعه الرباعية ليأخذ رأيه فطلب منه أحمد بهاء الدين أن يكتب رباعية كل أسبوع لتنشر فى صباح الخير، ولما طلب منه هيكل أن ينتقل إلى الأهرام كرسام كاريكاتير عام ١٩٦٢ ـ توقف عن كتابة الرباعيات حتى عاد عام ١٩٦٦ رئيساً لتحرير مجلة صباح الخير فأكمل الرباعيات وبعد حرب ١٩٦٧ عاد مرة آخرى إلى الأهرام.

من إبداعاته أوبريت «الليلة الكبيرة» و«القاهرة فى ألف عام» الذى لم يحقق النجاح المتوقع.. وكتب «خلى بالك من زوزو» وأنتجه ليستمر فى دور العرض عامين ونصف ثم «أميرة حبى أنا» ثم «المتوحشة» الذى سقط ولم يحقق نجاحاً ثم «شفيقة ومتولى».. أقول رغم آلاف الإبداعات لصلاح جاهين إلا أننا نحاول هنا أن نركز على سخرياته فهو واحد من أعظم الساخرين..

ودوره فى السخرية مثل دوره المتميز فى الشعر الذى قال عنه سيد خميس: «لقد أنزل صلاح جاهين الشعر الحقيقى من سماء التفاصح «التعقيد اللغوى والمعنوى» مستردا للناس بعض شعرهم الحقيقى المسروق والمستنكر المبعد عن ديوان الشعر الرسمى «لأحقاب تاريخية طويلة.. كما نفض عن الشعر الحقيقى تراب الواقع وغلظته وتشوهه .. ليعيد للصورة الشعرية الواقعية جمالها المنسي».. وصلاح هنا مثل نزار قبانى فى شعر الفصحى الذى أنزل الشعر ليجلس مع الناس فى المقهى - حسب قوله . ويرتدى القمصان المشجرة.. وصلاح منذ بداياته امتلك نامية الشعر وأوصله لدرجة أكثر من البساطة تأمل قوله فى أول دواوينه «كلمة سلام»:

أربع ابدين على القطار.
أربع شفايف يشربوا الشاى باللبن .
ويبوسوا بعض ويحضنوا نور النهار.
بين صدرها وصدره وبين البسمتين.
ويحضنوا الحب اللى جمعهم سوا على القطار.
ويحضنوا الشمس اللى بتهز الستار.
وتخشى من بين الخيوط وبعضها مع الهوا.

وقد سأله زكريا الحجازى ذات يوم عن سر اتجاهه إلى الشعر فقال صلاح: «لأنى أريد أن أقول «تيرى لم تيرى لم .. تيرى لم ».. وبالفعل قال صلاح.. ترى لم ترى لم» وقال أيضاً. بان عليه حبةً لنجاة.. «"ياما قلبى قاللى لأ» لفايزة أحمد وأنا هنا يا ابن الحلال» لصباح وغيرهن.

ومن حقه أن يقول ترى لم فهو الولد الوحيد على ثلاث بنات ، ووالدته كانت تهتم به وعلمته القراءة والكتابة والحساب أيضاً.. بل يروى ابنه بهاء عنه «كان يروى لى كيف كانت تحمله وتقف به فى الشباك وتقول له: شايف السما زرقا إزاى يا صلاح؟ شايف السحاب أبيض إزاى؟ وأرضعته أمه أيضا فيما أرضعته الوطنية.. كانت أمه ثورجية فقد خرجت فى ثورة ١٩١٩ وزارت بيت الأمة أملاً فى رؤية سعد زغلول بعد عودته من المنفى فلم تجد إلا سترة له معلقة على مشجب فاحتضنتها فى وجد وتقديس.

يضيف بهاء: «إن الله يسر لوالد صلاح جاهين لما خلق له فشاء أن يلف مصر من أعلاها إلى أدناها لكى يتشربها وجدانه كلها بصعيدها ودلتاها، وهو بعد صغير فقد كان والده شأنه شأن الموظفين العموميين فى تلك الفترة ينتقل كل عامين أو يزيد أو يقل، من بلدة لأخرى، ومن محافظة لأخرى، كان أبوه وكيلاً للنيابة، لكنه كان وكيلاً من نوع عجيب فى جلسات المحكمة، وفى انتظار مرافعته كان يرسم القضاة والمتهم والمحامى والشهود، وكانت «أمينة حسن» زوجته تضع تماثيل من الطين وتحرقها فى فرن المنزل، وقد عملت قبل زواجها مدرسة للغة الأنجليزية فى مدرسة السنية وفى الفترة القصيرة التى عملت فيها، كانت تكتب كل عام مسرحية لحفلة المدرسة وتخرجها وتضع لها الملابس... وقد خلد صلاح جاهين حبهما فى قصيدة كتبها فى أحد أعياد ميلاده فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٦٥ بعنوان «ميلاد» قال فيها:

«بعد ولادتى فى الزمن ثلاثين سنة، صبحت تاريخ زى السيوف والسقايين، زى الشراكسة والشموع والسلطنة، زى الخيول.. ضاعت سنين فى السنين».

ولكن للفنان حسين بيكار قصة مع والد صالح جاهين حين كان والد صلاح يرغب فى أن يدرس ابنه الحقوق ، لكن صلاح كان يرى نفسه فى الفنون الجميلة حيث يقول بيكار» جلست فى مكتبى أستمع من بعيد إلى أصداء الصخب المنبعث من مرسم قسم التصوير الذى كنت أرأسه، وقد اختلطت أصوات الطلبة والطالبات محدث خليطاً من الضجيج يتنافى مع جلال المكان الذى ينبغى ان يحاط بغلالة من الصمت الوقور الشبيه بمحاريب العبادة والصلاة.

وفجأة وأنا أحاول إبعاد هذا الضجيج من وجودى، إذا بطالب قصير القامة يقترب منى بحذر شديد ويقول: اسمى «صلاح جاهين» سنة أولى تصوير، وجئت أستشيرك فى مشكلة تقلقنى لدرجة افقدتنى توازنى.. فأنا أحب والدى لدرجة التقديس، وكانت أمنيته أن أسلك نفس الطريق الذى سلكه، فألحقنى بكلية الحقوق التى قضيت فيها عامين مرغماً لأن اهتمامى كله كان منصرفاً إلى الفن.. فقررت أن أنسلخ من كلية الحقوق وألتحق بكلية الفنون الجميلة، الأمر الذى كان يرفضه أبى تماماً.. ولهذا تجدنى فى غاية الحرج لا أريد أن أحبط والدى، كما لا أريد أن أكبت مشاعرى الصادقة التى تتصاعد يوماً بعد يوم لدرجة الهوس..!!

بهرتني شجاعة هذا الطالب وتشبثه بصدقه النبيل، فقلت له، هل في إمكانك أن تحدد لي موعداً التقي فيه مع والدك؟؟

وفي اليوم التالي جاء «صلاح» بصحبة والده، الذي جلس فوق مقعده كأنه أحد تماثيل كهنة آمون.. بادرته بقولي: أرحب بك كوالد لواحد من أكفأ الطلبة الذي أتبنأ له بمستقبل بشرفك ويشرف مصر، والفن يا سيدي المستشار ليس مهنة يتبرأ منها الإنسان؟ فهناك من عمالقة التاريخ من يتربعون فوق قمة المجد والشهرة أمثال «مايكل انجلو» و«مبرانت» في الخارج، وأمثال محمود مختار ومحمود سعيد في مصر، بينما لا نرى في المهن الأخرى مهما تعاظمت من يحتل هذه المكانة في قلب ووجدان الجماهير.. وإن مكان صلاح جاهين في الفن، ولا شيء غير الفن..

ارتسمت سمات الامتعاض على ملامح الوجه المتجهم، ورحل الرجل دون أن يطلعني على قراره الأخير!!

في اليوم التالي توجهت كعادتي إلى المرسم، بحثت عن «صلاح» بين زملائه فلم أعثر له على أثر.. وفي اليوم اللاحق أيضا كان المرسم خالياً منه، وتوالت الأيام دون أن أرى «صلاح» منهمكاً في رسم النماذج التي كان يقبل عليها بنهم شديد.. وعلمت من زملائه أنه عاد إلى كلية الحقوق إرضاءً لوالده.. ولكنه لم يلبث فيها إلا بعض الوقت حتى انسلخ منها أيضاً وانقاد إلى قدره الذي حدده له التاريخ.!!

وتألق نجم «صلاح جاهين» في جميع الميادين، في الشعر، في رسم الكاريكاتير، في التاليف الغنائي والمسرحي، وغنى ومثل باقتدار شديد لم يكن يضارعه فيه أحد، لأنه كان مصرياً حتى النخاع، وذات مرة كنت أراقب في التليفزيون أحد برامج مؤلف «قنديل أم هاشم» للكاتب القصصي الكبير يحيى حقي فإذا بي أسمعه يقول بكل تواضع واعتزاز «أنا أسعد الناس جميعاً لأنني عاصرت عصر صلاح جاهين وهو في قمة تألقه...».

وقد قال جاهين لأبيه بعد ذلك أنه سيفخر بابنه، وبالفعل حدث هذا ومع أكبر رأس في البلد مع الرئيس جمال عبد الناصر نفسه، فقد عين والد صلاح رئيساً لمحكمة الاستئناف العليا، وذهب ليؤدي اليمين الدستورية أمام عبد الناصر وسلم عليه فهمس وزير العدل في أذن الرئيس عبد الناصر بعد ذلك بأن هذا والد صلاح جاهين فابتسم

عبد الناصر وعاد ليسلم عليه مرة أخرى بكلتا يديه باهتمام أكبر من الأول.. ولما عاد والد صلاح إلى البيت قال لصلاح وهو سعيد «معقول وصلت المسألة لأن أُعرف فيه بك».

وقد جاءت بوادر السخرية مبكراً عند صلاح جاهين إذ يروى صديقه هبه عنايت أنه اكتشف - وهما طلبة فى فصل دراسة واحد بمدرسة أسيوط الثانوية إذا انتقل مع انتقال والده لمحكمة أسيوط - فيه شاعر فصحى يلتزم القافية والوزن كشعر عمودى؟ «ومن ذلك قصيدة أسمعنى إياها عن كليوباترا وقصائد أخرى لم أعد اتذكرها، وكانت القوافى لديه سهلة الحضور، ولم يكن قد كتب بالعامية بعد إلا من باب المزاح، فمثلاً عندما كنت أرسم بخطوط سريعة ومن الذاكرة وجه فلاح فما أكاد أنتهى من الرسم حتى يكتب تحته «فلاح مصرى ابن ناس يستاهل ضرب المداس».. وعندما أرسم وجه خواجة مثلاً فيكتب «عجوز انجليزى ابن هرمة يستاهل ضرب الصرمة».. وذات مرة كنا نستمع إلى صوت أسمهان تننى: «دخلت مرة فى جنينة أشم ريحة الزهور» فعلق صلاح قائلاً: «ريحة الزهور ممكن نشمها من غير دخول الجنينة؟ ثم إن أى واحد ممكن يدخل جنينة، يعنى مافيهاش شطارة»! قلت : طيب قولى لى عاوزها تقول إيه علشان يبقى فيها شطارة؟! فسكت برهة وقال: دخلت مرة فى قزازة أشم ريحة الكازوزة، قالوا حلوة بلزازة لقيها حلوة بلزوزه.. كده يبقى ليها طعم وريحة كمان.. ها.. ها.. وقال صلاح أبياتاً من الشعر الفكاهى تلاها على وكتبتها فى حين ومنها:

«جاءت سنية للدكان باسمة.... عريانة الرأس تبتاع منديلاً.

وزغزغتها فاستبوخت عملى.. قلت ماذا قالت بس جك نيله.

كما قال:

فى حانة الفقر والأمال خرساء . ° . وبومة النحس تنعى حظ من جاءوا

شربتها خمزة سِكًا مركزةً . ° . لم تأتها صودة أو شابها ماءُ.

ليلى تسلت بقلبى فهو فى فمها .. لبانة إيكة أوها بها باءُ.

والكلمة الأخيرة هى نوع من اللبان اسمها هباهبا».

ورغم سخريته إلا أن مسحة الحزن لا تخلو من أشعاره وخاصة رباعياته التى تحمل هموم الإنسان وعاباته وبحثه الدائم عن الحرية وأسئلته الوجودية التى لا جواب لها

«خرج ابن آدم من العدم قلت : ياه.

رجع ابن آدم للعدم : قلت ياه

تراب بيحيا.. وحى بيصير تراب.

الأصل هو الموت والا الحياة

عجبى...

وقد دلل يحيى حقى بهذه الرباعية حول رؤيته للرباعيات عموماً بقوله «وقد يتوهم المتعجل أن أضعف بيت فى الرباعية هو بيتها الثالث غير المقفى، ولكنه فى نظرى عماد ما فى البيتين الأول والثانى عرض لأوليات الموقف، وفى البيت الثالث ارتفاع مفاجئ إلى قمة . قد تبدو للنظرة الأولى أنها جانبية ليتبعه فوراً من شاهق كأنه طعنة خنجر يختم بها البيت الرابع فصول المأساة. البيت الرابع هو دقة المطرقة على السندان بعد أن كانت مرتفعة فى الهواء لذلك أكره للبيت الرابع أن يجئ على صيغة الاستفهام لأن حبله محدود».

وهذه الرباعيات لا تترك فى نفسك تشاؤماً كما يتضح من قراءتك الأولى لها بل تترك فى نفسك سعادة لا حدود لها لأنك تقرأ نفسك فيها وتحس بلذة إبداع حقيقية.. وتكتشف سخرية صلاح فى الرباعيات وهى سخرية موجهة للمتعالين المتعنطزين - حسب وصف يحيى حقى - التى لم يعرف فى كل ما قرأ سخرية ألذع من هذه السخرية فى الرباعية التى تقول:

«يا طير يا عالى فى السما طظ فيك

ما تفتكرش ربنا مصطفيك

برضك بتأكل دود وللطين تعود

تمص فيه ياحلو.. ويمص فيك

عجبى..»

ويكشف يحيى حقى عن قيمة هذا الرجل الحقيقية بقوله: «هيهات أن تجد هذا الرجل فى الغرب، أؤكد لك أننى بحثت عنه - لأنى أحبه - حين عشت فى الغرب فلم

أعثر عليه، ذلك أن موطنه هو الشرق موطن الصحراء الممتدة، والسماء الصافية، والنجوم اللامعة المنتشرة، وللكون لحن هو خليط همسها جميعاً، ففى الشرق لقيت هذا الرجل كثيراً حتى ألفته وجلست إلى جانبه مراراً فلم يحس بوجودى بل كنت انا هذا الرجل أحياناً وأنا فى الشرق، فلما انتقلت للغرب اشتقت أن أكونه وحاولت فأخفقت، ولو قد نجحت وهزأ الناس من بواخى. إنه الرجل الذى يخلو لنفسه، تحسب أن ليس فى مواجهة الطبيعة كلها أحد غيره، ظهره محنى وكأنما فوقه أثقال، ورأسه دان إلى القلب كأنما ينصت لوشوشته وقد تكون فى يده أحياناً عصى يخبط بها على الأرض لغة لم تكتشف أبجديتها بعد ولكنه يظل صامتاً، لا تدرى أهو سارح الذهن فى متاهات سحيقة. أم هو مستغرق فى التفكير، اعترضته فكرة فسلمت فعانقت فحضنت - كما نفعل فى الشرق - فاستوعبت فليس منها فكاك، وكلما طال الصمت اكتسى وجهه شيئاً فشيئاً بغلالة من الحزن، حزن رفيق غير مفترس، ليس له أنياب تنهش بل راحة يد كالقطيفة تربت بحنان.. يدل على اطمئنان الرجل على أنه يجد لهذا الحزن الرقيق لذة تنتشى بها روحه ويتحلب لها فمه . ثم فجأة يمصمص بشفتيه ويهز رأسه وينطق لنفسه - فلا أحد معه - بكلمة واحدة. هى تارة (دّنيا) وتارة (حكَم) - جمع حكمة - أين كان؟ ما هى تقدمات هذه الكلمة الواحدة - لا أحد يدرى.

بل لعله هو نفسه لا يدرى، ولو نصب لهذا الرجل تمثال يكون توأمه لكان خليقاً أن يكون النبى الذى يطوف به فى الشرق ركب أهل التصوف والحكم المرسلة...».

ويأتى يحيى حقى بعد ذلك بأقوال منافية لقول طه حسين الذى ذكر أنه يخشى على الفصحى من عامية بيرم التونسى إذ يقول :

«لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هددها صلاح».

ضع فى كيس واحد كل ما كتب بها من أزجال وقصائد وأغانٍ فلن يصعب عليك أن تلقيه فى أول كوم زبالة يقابلك فى سوق التوفيقية، حتى بيرم التونسى لم يشكل خطراً على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعمها بالفصحى وثقافة المثقفين - فهى فى الحقيقة لغة ثالثة - إلى مقام اللغة التى تستطيع أن تعبر عن الفلسفة شعراً، وهذا خطر عظيم، ومع حبى لهذه الرباعيات أتمنى من صميم قلبى أن تكون عاقراً فنحن فى غنى عن هذه البلبلة التى لابد أن

تصيب حياتنا الأدبية.

فالإجادة فى هذه اللغة الثالثة لن تكون إلا فلتة من الفلتات، فلو استخدمها كل من هب ودب تحول غذاؤنا كله إلى بضاعة دكان التسالى .. لب وفول وحمص وفشار.. ونحن مع علمنا بهذا الخطر لا نستطيع أن نتجاهل هذه الرباعيات وإلا كنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال».

وهناك مرحلة هامة فى حياة صلاح جاهين وهى علاقته بعبد الناصر فقد آمن صلاح بأن عبد الناصر كائن خرافى جاء فجأة وفى غفلة من الزمن ليوقظ هذه الأمة من همومها .. آمن به إيمان الروح، لم يكن مطبلاً له ولا مسبباً فى هزيمة أو نكسة بأنه «غنى على الناس» ـ كما قال البعض أو قال هو نفسه ـ وحين يتعلق الإنسان ويؤمن بشىء فإنه يبذل روحه وقلبه وعقله وحياته لأجله.

مابين جاهين وعبد الناصر مثل ما كان بين حبيبين.. قصة حب من نوع نادر كتب فيها الشاعر شعراً لمحبوبه ورآه أجمل رجال الدنيا وجاءت حنجرة - لم يكررها الزمن بعد ـ مثل حنجرة عبد الحليم حافظ فحملت كلمات جاهين التى تسللت عبر ألحان كمال الطويل ـ ما عدا بستان الاشتراكية فهى من تلحين محمد الموجى - إلى آذان وقلوب ملايين الجماهير العربية التى عشقت عبد الناصر وذابت فيه حباً..

فقد قال صلاح جاهين إنه أحس بأنه خدع الناس بما كتب، لكنه أبداً لم يكن كذلك.. وقد كانت أغانى كلمات مثل قوله على لسان ناصر « الله أكبر يوم لازهر فى وجدانى، يا شعب قمنا لقهر الصعب من تانى، وعود ما عنديش مفيش إلا النضال عندى، وشقا ومعازك مريرة كثير يا إخوان». أو «بالأحضان» أو «المسؤلية» أو «صورة» هى تعبير عن أولاد البلد.. أبناء شعب مصر الطيبين المتحدّين لكل هزيمة الحالمين بالنصر دائماً «ثوار ولآخر مدى ثوار، مطرح ما نمشى يفتح النوار، نصبح فى كل نهار بحلم جديد، ثوار نعيدك يا انتصار ونزيد، وطول ما إيد الشعب العربى فى الإيد، الثورة قايمة والكفاح دوار.

الشعب قام يسأل على حقوقه. والثورة زى النبض فى عروقه، اللى النهارده يحققه ويرضاه لابد بكرة بهمته يفوقه.

أيضا يقول لناصر: «إحنا الشعب.. إحنا الشعب.. اخترناك من قلب الشعب، يا فاتح باب الحرية.. يا ريس يا كبير القلب».

وأيضا غنت له أم كلثوم من ألحان كمال الطويل «والله زمان يا سلاحى» ثم بعد العدوان» ما أحلاك يا مصرى وانت ع الدفة» وغنت له نجاة قبلها «الجنة هيه بلادنا وجهنم هيه حدودنا، وقبل نجاة غنت أحلام «يا حمام البر سقف طير ورفرف، وغنى عبد المطلب «ياسايق الغليون».

وكان صلاح حزيناً ومتألماً أشد الألم لأن عبد الناصر اعتقل أصدقاءه اليساريين وعاش صراعاً عاطفياً أليماً بين أصدقائه وحبه لهم وحبه لعبد الناصر لذا كتب:

يا ساكنين الواح صبـاحكو دباح

رفـقة صـلاح حـافظ يا قلب صـلاح

وكذلك قصيدتاه «غنوة برمهات» و«المحاكمة» معبراً عن عدم رضاه وسخطه لما حدث لأصدقائه اليساريين فى معتقلات عبد الناصر.. ولم يكن يخشى الاقتراب منهم، ويروى سيد خميس مما يؤكد كلامنا هذا حيث يقول«... عرفت صلاح فى النصف الثانى من عام ١٩٦١ عن طريق صديق العمر الشاعر المبدع سيد حجاب، وكان صلاح يكن لسيد مودة خاصة لموهبته الشعرية المصقولة».

كان صلاح من الذين لا يعرفون الكثير عن العبقرية والإلهام فى العمل الفنى، ولكنه كان من الذين يعرفون أكثر عن العمل الشاق فى الإبداع، كما كان الكاتب الروسى الفذ أنطوق تشيخوف يقول عن نفسه، ولثقافته المتنوعة وتذوقه للفن الرفيع فى الموسيقى والرسم والمسرح، ولفرط تهذيبه وخجله، وعرف صلاح أننى وسيد منضمان لأحد التنظيمات اليسارية السرية والتى تقف على يسار التنظيم اليسارى الذى يتعاطف مع توجهاته، وبدلاً من أن ينفر منا وهو النجم الساطع فى سماء الصحافة والفن ونحن لا نزال فى بدايات الطريق، احتضننا بمودته وعاطفته الرحيبة، وكان نقدنا لبعض رسوماته أو شعره أو مواقفه والذى لا يخلو من حماقة التطرف، يزيد من حنوه علينا ومناقشتنا وتشجيعنا، واحترام رأينا فى إنتاجه الفنى الذى كان دائم الوسوسة بشأنه، كان يعرض علينا تجاربه الفنية فى بداياتها فإذا اكتملت عرضها على الكاتب الكبير

أحمد بهاء الدين الذى كان صلاح يعتبره ضميره الثقافى والسياسى، «سمى ابنه البكر الشاعر بهاء جاهين سمى على اسمه» بعد صدور ميثاق العمل الوطنى وارتفاع صوت الغوغاء والمنافقين من الكتاب والصحفيين والفنانين الذين قفزوا برشاقة الفئران من مواقهم السابقة ليصبحوا جميعاً اشتراكيين، «وضاعت الطاسة» كما يقال واختلط كل شىء.. رأى صلاح أن نعد ورقة عن المفهوم الاشتراكى للأدب والفن، وفاتح الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى الأمر، فرحب بالفكرة، وأجهدنا أنفسنا فى صياغة الورقة المطلوبة «سيد حجاب وصلاح وأنا» وذهب صلاح بالورقة، بناء على توجيهات هيكل، إلى السيد حسين الشافعى عضو مجلس قيادة الثورة والمسؤل عن الاتحاد الأشتراكى، وبعد أن قرأ السيد حسين الشافعى الورقة قال لصلاح جملة واحدة» اذهب واقرأ سورة المائدة.

ولما حاول صلاح الاستفسار عن معنى الجملة كرر الرجل الجملة ثانية، فلم ير بداً من الانصراف إلى مكتب الأستاذ هيكل الذى استقبله ضاحكاً، فقد تابع ما حدث وأوضح لصلاح ما تعنيه جمله السيد الشافعى، فهو يشير إلى الآية القرآنية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى».. أى لا تبادر يا صلاح باقتراب شىء قبل أن يطلب منك!..».

وتتجلى قمة السخرية عند صلاح جاهين فى رسومه الكاريكاتيرية، وقد تناول قضايا فى السبعينيات والثمانينيات مازالت تعيش بيننا حتى الآن ولو نشرت هذه الرسومات اليوم لما أحسست بفرق الزمن فيها فمثلا كاريكاتير فيه مراقب وطالب فى لجنة امتحان، والطالب يسأل المدرس:

- يا بيه يا بيه يا بيه .

- عايز إيه .

- «ميدو» بالألف والا بالهيه؟

- ليه؟

- عايز اكتب اسمى على ورقة الاجابة!».

أما رعب الثانوية العامة الذى يبدو أن الوزارة تحاول علاجه منذ السبعينيات وحتى

الآن ولّم تجدعلاجاً.. إذ رسم صلاح جاهين صديقين يمران أمام دار سينما وكتب عليها «البعبع.. فيلم الموسم.. ودار التعليق منهما كالتالى:

– ده مش فيلم رعب يا عبيط.. ده فيلم تسجيلى عن امتحان الثانوية العامة!.

وهناك طالبان أمام مدرسة، أحدهما مبسوط يقول لصاحبه «الكشرى:

– يا بنى اعقل.. ح يمتحنونا فى إيه إذا كان فيه أزمة ورق؟

أيضاً مركز رصد الزلازل وبه موظف يقول: ده مش زالزال وانت الصادق.. دى مصارين أهالى تلامذة الثانوية العامة بتكركب!

ولم يتوقف الأمر على أزمة الورق فقط،بل وأزمة الدروس الخصوصية أيضا إذ رسم جاهين أبا يحدث مدير أمام وزارة التربية والتعليم ويقول له:

– فلوس التصييف دفعناها. دروس خصوصية.. مش تطولوا شوية فى الامتحانات لحد ما الصيف يفوت على خير؟». وغيرها كثير وكثير جداً من القضايا التى رصد فيها صلاح جاهين بلاوى مازلنا فيها حتى الآن .

وهناك كاريكاتيرات عديدة يعبر عن دخول خطوط التليفونات فى بعضها وهى واحد بيقول لواحد:

– افتكرت قابلتك فين .. فى مكالمة تليفونية، والخطوط سايحة على بعض!».

ثم جاءت بعد ذلك معركته مع الشيخ محمد الغزالى التى تدخل محمد حسنين بنفسه لحلها وكذلك رئاسة الجمهورية.. فقد انعقد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، وطالب الشيخ الغزالى فى المؤتمر بتحرير القانون المصرى من التبعية الأجنبية، وأنه لابد من القضاء على طبقية الملابس بأن يتوجد زى المصريين، وأن تحتشم المرأة المصرية وأن تغطى ساقيها وصدرها وظهرها.. وكل ما ظهر منها.. وجاء كاركاتير صلاح جاهين في اليوم التالى فى جريدة الأهرام فى ٢٩ مايو ١٩٦٢ حيث رسم الشيخ الغزالى واقفاً على المنصة فى المؤتمر يلقى كلمته، وأمامه الجماهير وتحت الرسم كتب صلاح:

– الشيخ الغزالى : يجب أن نلغى من بلادنا كل القوانين الواردة من الخارج.. كالقانون المدنى وقانون الجاذبية الأرضية!!

وفى ثانى يوم خرج الشيخ الغزالى بكلمته على المؤتمر وهاجم فيها صلاح جاهين فرد صلاح ورسم كتابا على شكل جدار كتب عليه «الميثاق» والشيخ الغزالى منحنى ينظر من فتحه فيه، ويمسك بيد لوحة مكتوب عليها «فتش عن المرأة».. وعلق:

العبد لله: معلهش.. كل واحد له طريقته فى النظر إلى الأشياء!

ورسم صلاح نفسه خلف الغزالى ناظراً.. !!

وهاجم الغزالى جاهين هجوماً عنيفاً ووضح أنه بركان يريد تحرر الشرق الإسلامى العربى من القوانين الفرنسية التى تحكمه، وأشعل المعركة فرد عيكل وقال إن جريدة الأهرام تقدس الدين وتخدمه، ولكنها ترفض محاولة الشيخ الغزالى لأن يجعل من الخلاف فى الرأى بينه وبين صلاح جاهين رسام الجريدة قضية دينية، وأن الجريدة أكدت على رسامها ألا يتعدى الخلاف فى الرأى إلى شخص الشيخ الغزالى ونشرت الأهرام رد الشيخ الغزالى كاملاً، ولكن جاء فى العدد رسم لجاهين عنوانه «ملاحظة على إغفال الشيخ الغزالى لمشكلات المعيشة والمواضيع الحيوية.. ورسم فيه أطفالا مشردين حفاة وعراة يحملون لوحة متوجهين بها إلى الشيخ الغزالى وهم يقولون «أين الكساء يا مشرع الأزياء، لماذا لاتتكلم إلا عن ملابس النساء».. والغزالى يرد عليهم: ما باتكلمش عنكم يا جهلاء لأنكم ذكور.. وما ظهر من جسمكم ليس عورة!

ثم جاء يوم الجمعة - العدد الأسبوعى للأهرام - فى ١ يوليو ١٩٦٢ ونشر صلاح ستة رسومات كاريكاتورية بعنوان «تأملات كاريكاتورية فى المسألة الغزالية» وكتب جاهين :

لقد طلبت حق الرد على الشيخ محمد الغزالى بعد كل الذى قاله فى اجتماع المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية.

وليس لى اعتراض على مهاجمة الشيخ الغزالى لشخصى.. ولا على أسلوب الهجوم.. ولا على الألفاظ التى رضى لنفسه بأن يتفوه بها. وإنما اعتراضى على أن يخلط الشيخ الغزالى بين خلاف الرأى وبين قداسة الدين.

إن ملابس الشيخ الغزالى لا تعطيه حصانة تجعل آراءه فوق مستوى النقد».

وجاء رسم لمجموعة «OAS» الإرهابية، فى مكتب مليئ بالقنابل وشخص مغطى وجهه يملى آخر مثله يجلس على الآلة.

الكاتبة:

-اكتب.. السيد الأستاذ محمد الغزالى .. بالقاهرة .. بعد التحية.. تعلمون سيادتكم أننا قد فقدنا زعيمنا الإرهابى الكبير الجنرال سالان.. ويسرنا بعد اطلاعنا على مواهبكم أن ندعوكم خلفاً له وشكراً..

إمضاء.. المنظمة الإرهابية بالجزائر..

ورسم آخر «أبو زيد» الغزالى «سلامة» والشيخ الغزالى يركب حصاناً بالمقلوب اسمه «التعصب» وفى يده راية كتب عليها جاهين «الإرهاب باسم الدين» وكتب تحتها:

هنا يقول أبو زيد «الغزالى» سلامه .·. وعينيه ونضارته يطلقوا شرار

أنا هازم الستات ملبسهم الطرح .·. أنا هادم السنمات على الزوار

أنا الشمس لو تطلع أقول إنها قمر .·. ولو حد عارض.. يبقى م الكفار

ويا داهيه دقى بما أقول ده فلان كفر .·. جزاؤه الوحيد الرجم بالأحجار

فاحسن لكم قولوا «آمين» بعد كلمتى .·. ولو قلت إن الجمبرى ده خضار!!

وخطب الشيخ الغزالى خطبة الجمعة فى الجامع الأزهر وهاجم فيها صلاح جاهين وبعد صلاة الجمعة وتأثر شباب المصلين بها خرجوا فى مظاهرة وهم يحملون الشيخ الغزالى وألقوا الحجارة على المبنى الزجاجى .. وكتب هيكل مقالاً وقعه باسم الأهرام اتهم فيه الشيخ الغزالى بأنه وراء تحريض المتظاهرين وأن المشكلة ليست دينية، والدين أسمى من أن يكون ردعاً لفرد يحتمى به بعد أن يهاجم غيره، ونشر رسما لصلاح جاهين يهاجم فيه الشيخ الغزالى.. لكن نشر خبر فى الأهرام ثانى يوم يقول: إن كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية والأمين العام للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية اتصل بالأستاذ هيكل وطلب منه تجاوز موضوع الخلاف بين الجريدة والشيخ الغزالى، وضرورة الانصراف إلى مناقشة الميثاق ذاته.

وبعد ذلك تم الصلح بين الشيخ الغزالى وصلاح جاهين فى مبنى الأهرام وبحضور محمد حسنين هيكل - رئيس التحرير - الذى أكد على جهود الشيخ الغزالى فى خدمة الإسلام.. وأنه الأهرام أو صلاح جاهين لم يقصد الإساءة إليه وهكذا ظل صلاح جاهين حتى رحيله فى ٢٥ ديسمبر ١٩٨٦ شرسًا فى معاركة طيبا وبسيطاً فى حياته..

وقد وقف كثيراً بجوار سعاد حسنى وساندها على تخطى جميع أزماتها وكانت تعتبره أباها الروحى وتأخذ رأيه فى كل شيء يخص حياتها سواء على المستوى الشخصى أو الفنى.. وقد زارته سعاد فى موسكو عام ١٩٧٢ حين كان يعالج فى مصحة نفسية بسبب الاكتئاب وبقى فيها ٥ شهور.. وقد أصيب صلاح بالاكتئاب مرتين ، الأولى بعد نكسة ١٩٦٧ وكان قد هوجم بشراسة من النقاد بعد أن كتب «خلى بالك من زوزو» و «الدنيا ربيع» و «الحياة بقى لونها بمبى».

وفى آخر حياته عاودته نوبة الاكتئاب مرة أخرى.. ولم يستطع الفكاك منها.. وراح يتذكر حياته كلها فى شريط يمر أمامه ومنها الثورة وعبد الناصر الذى شطب اسمه من قائمة الاعتقالات خمس مرات مهما فسر له من حوله ثم علاقته بإخوته وزوجتيه الاثنتين وابنه بهاء .. ثم سعاد حسنى وكل شيء.. كل شيء مر بحياته و.. ونرك كلماته لبهاء:

أوصـــــيك يا ابنى بالقـــــمــــــر والزهور.
أوصــــيك بليل القــــاهرة المســـحـــور.
وإن جـــيت فى بالك إشـــتـــرى عـــقـــد فل.
لأى ســـمـــــرا .. وقـــبـــرى إوعك تزور.
و....
خـــــــرج ابن آدم م العــــــدم قلت: ياه.
رجع ابن آدم لـلـعــــــــــدم قـلت : يـاه
تراب بيـــحـــيـــا .. وحيّ بيــصــيــر تراب.
الأصل هو الموت والا الحــــــيـــــــاه؟
والله ما أنا عارف يا عم صلاح الأصل هو الموت
والا الحـــــــــيـــــــــاه؟!!

عبد الحميد الديب

الشاعر الذى لم يعرف القرش من الصابونة..!!

□ □ □

يبدو أن الحظ السئ تتبع الشاعر البائس عبد الحميد الديب حتى عام ٢٠٠٦ وهو الراحل يوم الجمعة ٣٠ أبريل ١٩٤٣ فى مستشفى قصر العينى بعد إصابته بانفجار فى المخ، فقد بحثت عن أى شخص من عائلته أو حتى من ريحته، فلم أجد.. حتى أهل قريته «كمشيش» بمحافظة المنوفية لا يعرفون عنه شيئاً.. رحلة شاقة ذهبت فيها إلى المنوفية بحثاً عن أى أثر لهذا الشاعر العظيم لكن وللأسف وجدت أهله يجهلونه، ليس كما قال هو ذات يوم «يا أمة أنكرتنى وهى عالمة».. فالناس بالفعل يجهلونه دون علم».

أثناء عودتى من «كمشيش» إلى القاهرة وجدتنى أردد أبيات شعره «إن حظى كدقيق فوق شوك نثروه، ثم قالوا لحفاةٍ يوم ريح صرصر اجمعوه، عجز القوم فقلنا: هيا يا قوم اتركوه، إن من أشقاه ربى كيف أنتم تسعدوه؟!».. ولما بحثت عن صورة فلم أجد فتذكرت قوله: «وهام بى الأسى والبؤس حتى، كأنى عبلة والبؤس عنتر، كأنى حائط كتبوا عليه، هنا يا أيها المزنوق طرطر!!».

كانت «اللحمة» – ولاتزال- شيئاً يثير الدهشة فى القرية المصرية.. فطريقة «مضغها» تختلف عن «مضغ» أى طعام آخر.. تخلف لذة من نوع غريب ولكن أهل القرية لا يتناولون اللحمة إلا كل خميس حيث يقبض المزارعون يومياتهم الأسبوعية.. وكان عبد الحميد السيد الديب بائساً فى هذه أيضا فقد ولد فى شهر يوليو عام ١٨٨٩ بقري؛ «كمشيش» إحدى قرى مركز «الباجور» بمديرية المنوفية لأب يعمل جزاراً يربى الماشية ويذبحها كل خميس، ولكن مزارعى كمشيش كانوا يعيشون فى «ضنك» لذا كانوا لا يأكلون اللحم إلا على فترات طويلة، مما جعل عيشة الديب بؤسا وضنكا .. وككل أب يريد لابنه أن يكون أفضل منه .. ألحق السيد الديب ابنه بكتاب القرية ليكون عالماً أزهرياً بجبة وقفطان.. ولكن الطفل كان يحمل أحزان الدنيا كلها من كثرة ما شاهد حوله من فقر وبؤس وقد وصف صديقه عبد الرحمن عثمان طفولة الديب بقوله: «شب الديب فى أسرته الصغيرة الفقيرة كالنبتة البرية فى الرمال الجافة، لا يمسكها أصل راسخ، ولا يسندها جذع قوى، ثم عاشت على علالة الجدب وبلالة الندى فاخضرت من

غير نضارة، وأشوكت من غير ظهر وظلت فى العراء تقاسى السموم والقيظ، وتكابد السغوب والظمأ، حتى اقتلعتها الريح وألقت بها هشيماً فى أخدود من أخاديد الأرض على حد تعبير أحمد حسن الزيات».

ويضيف أن عبد الحميد تأثر تأثراً كبيراً وهو فى الخامسة من عمره بوفاة جاره الأعرابى سالم الذى كان يحبه وكان يرى فيه صورة جميلة لذا تركزت فى عقله كلمة أم سالم وهى تندب ابنها بقولها:

«ياقعود يا مولد يا بنى يا سالم» أى يا جمل بكر قوى، وهى تنعيه بألم السيدات الريفيات فى قرى مصر، وظل الديب أياماً وسنيناً يردد هذه الكلمة ويبكى.. وقد تركت وفاة سالم فى نفسه يؤساً لم ينسه بؤس الزمن معه.

وراحت بيئة الريف تغرس فيه التأمل والسخرية التى يكمن خلفها انهار من البكاء.. فبين ثوب مهلهل يمشى به فى طرقات القرية وهو لم يشب عن الطوق بعد.. وبين فلاحين وأشجار خضراء وهواء نقى وجد الديب نفسه.. بين طبيعة متأنقة مزهوة بنفسها رائعة الألوان وبين أثواب لا تستر الجسد، فقد الأمل فى حياة كريمة بينما كان أبوه يصر على أن يمنحه حياة كريمة فألحقه بمعهد الإسكندرية الدينى عام ١٩١٤ وراح عبد الحميد الديب يرى مدينة أخرى تشبه امرأة جميلة مستلقية على شاطئ البحر.. فيها يختلط المصريون بالأجانب، ولكن آن لقروش قليلة يرسلها له والده أن تكفى تلك الحياة التى تحض على المتعة والجمال.. وهناك وجد نفسه ينشد: «ثيابى كمصطاف الغنى نوافذا، ومشتى الفقير ابن السبيل هشيما، ولى غرفة لم نحو أرضها، سوى اثاث كهباء قديماً». وبدأ يتصعلك فى شوارع الإسكندرية وبدأ ينضج شعره وبدأ يقرأ بنهم فى بلدية الإسكندرية التى تعد الرافد الثانى لثقافته العريقة، أما الرافد الأول فكان لأحد المشايخ فى بلدته والذى منحه ديوان المتنبى وأبى العلاء المكى وأصر الديب - لأول مرة يصر - على النجاح إذ وقع فى الحب وكان هذا هو الحب الأول فى حياته لفتاة فقيرة تدعى فاطمة، مرة تقبل وأخرى تدبر وهو محتار وهى مستمتعة بأشعاره، لكنه حصل على شهادة المعهد الدينى وعاد إلى «كمشيش»ليخبر أسرته، وأثناء عودته يستعيد الذكريات وينشد: «كلما أقبل ليل أو نهار، شاقنى العهد وشاقتنى الديار، وشجانى سحر هذا المزار، والليالى الخرد الغيد النضار، بعد طول البين، هل يجمع شمل؟ هو نار، هو وجد، هو قتل، يا حبيبى كيف أنجو؟ كيف أسلو؟

عاد عبد الحميد الديب ليكمل دراسته بالتحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة، عام ١٩٢٠ ولكنه وجد نفسه فى مدرسة دار العلوم فانتقل إليها وترك الدراسة بالأزهر وهنا ازدادت ثقافته باطلاعه على مختلف العلوم والاداب وظهر شعره بين أصدقائه حيث كانوا يتبارزون فى مباريات شعرية، واشترك فى المباراة التى جرت وقائعها عام ١٩٢٣ بين مدرسة دار العلوم والمدرسة الخديوية، وفاز فريق الخديوية بسبعة أشواط، وكادت الحياة تمضى هكذا بين فقر وسخرية وعلم لولا حادث أليم غير مجرى حياته فقد مات أبوه وبعدها بفترة قصيرة ماتت أمه ووجد نفسه وحيداً بلا أهل ولا مأوى وكان داخل ذلك القروى إصرار على النجاح ليكون مفخرة بين عينى والديه.. وكان يريد إسعادهما فمن يسعد الآن؟!

وكتب يقول : «الوالدان هلكت بعدهما، من لى على رد الأسى بهما، استوحش الدنيا كراهية، منذ ذقت كأسا من فراقهما».

ترك عبد الحميد الديب الدراسة وكره الحياة وراح يتردد على المقاهى والملاهى ويبحث عن جلسات الأدباء والمثقفين.. ويتعرف على سيد درويش لشهور تسعة، فقد عرفه فى بداية ١٩٢٣ وحتى رحل فى سبتمبر من العام نفسه وكان سيد درويش ينفعل كثيراً بأشعار الديب بينما كان الديب أكثر انفعالاً بالجمل اللحنية لسيد درويش الذى لم يتأخر عن الديب فى شىء من أكل ومواصلات وخلافه .. وهنا انكسر الديب وأحسن أن الدنيا، تعطيه ظهرها فازداد وحشة وغربة بعد فقدان الأهل والصديق، وتنهار عزة نفسه ويحس أنه لا يملك شيئاً فى هذه الدنيا ولا يستطيع أن يجد ما يقتات به فيبدأ فى الحقد والكره لكل شىء بعد أن تقطعت مصارينه من الجوع وينشد «ياليت السماء تهوى علينا، وياليت النجوم الصاعقات». فهى خربانة.. خربانة، بل ويؤكد على قيمة المال بقوله: «المال فيه مهابة وتجلة، والفقر فيه مذلة وفضوح»..

تمر الأيام عصيبة يفتقد فيها الديب قيمة الحياة نفسها.. يحس بالذل وهو لا يجد مكاناً يقيم فيه أو أكلاً يقيم أوده فيقول بمرارة: «أذله الدهر لا مال ولا سكن، حتى تزيد على أنفاسه المحسن، إذا سعى فجميع الأرض قبلته، وأن أقام فلا أهل ولا وطن، مهاجر بين أقطار الأسى أبداً، كأنه بين الأرزاء مرتهن، كأنه حكمة المجنون يرسلها، من غير قصد فلا تصغى لها أذن. ثيابه كأمانيه ممزقة، كأنها وهو حى فوقه كفن».

وهنا التقى الديب بصديقه عبد الرحمن عثمان - الذى ألف كتاباً لعلاقتهما معاً - ويروى عثمان «كنت مفلساً حينما التقيت بالديب وهو فى حالة من الإعياء والتعب الشديدين فقد كان جائعاً لم يتناول غداء، وكانت الساعة قد أوفت على السادسة مساء.. ولما بيننا من صداقة ومودة كاشفنى بدخيلة أمره فاستعرضت فى مخيلتى أسماء الأصدقاء الذين لا يجتمعون لى فى مثل هذه الأحوال علنى أجد لديهم «قروشاً» أهيئ بها للجائع الصديق طعاماً وقهوة ولفائف تبغ، وكان الصديق النبيل عبد الحميد قطامش المحامى فيما بعد، فى طليعة الأسماء التى قفزت إلى مخيلتى، فصحبت الديب إلى «العمرى» حيث يسكن ذلك الصديق، ولكننا قد وجدناه قد سافر إلى بلدته لأمر قد عرض له، وحين علم الديب بذلك تجهم وجهه قليلاً ليقول لى : «هذا نذير سوء».

ولأننى لم أر فى سفر قطامش أمراً غير طبيعى جذبته فى عنف لنطرق باب صديق آخر كنت اقترض منه حينما تستحكم الأزمة. وما راعنى إلا أنه يتجه إلى الديب ليقول له فى جد وصراحة إن قلبى يحدثنى أننا لن نجد صديقك هذا بل ربما سنجد داره قد انتقلت من الحى الذى يقيم فيه إلى حى آخر من أحياء القاهرة فضحكت من طرافة النكتة. وحلو الفكاهة ثم مضينا إلى غايتنا التى كنت أقصد وحين طرقت الباب خرج إلى من يسكن بجواره ليقول: إن جاره قد أصيب فى حادث منذ ساعة وقد حملوه إلى المستشفى..

وحينئذ تلفت إلى الديب فى ذهول وفزع فوجدته مغرورق العينين حزين النفس ومازاد أن جذبنى لأنصرف معه وهو يقول: ألم أقل لك يا صديقى إننى ملعون فى السموات والأرض، فلقد جنى حظى على زميلك المسكين، فليته ما دار بخلدك حين أردت تفريج كربتى»..

ولا يفارق البؤس الديب لحظة واحدة لدرجة قيام لص بسرقة لحافه - الشىء الوحيد الذى يمتلكه - فى إحدى ليالى الشتاء فيستعيد ذكرياته مع لحافه قائلاً: «فكم ليلة تحت اللحاف قضيتها وطيف سلافى، وكم ذا وقانى البرد فى جنح ليلة، بها الموت من كل المواجع شاف، لقد ضاع منى ذا الغطاء، فهل ترى أدثر شعراً ضافياً وقوافى؟..

وحاول الديب البحث عن عمل فلم يجد فإذا به يكتب القصائد ويبيعها لآخرين توضع أسماؤهم عليها بدلاً منه..؛ محمد رضوان فى كتابه «الصعلوك الساخر عبد

الحميد الديب» ذكر هذه القصة الطريفة حيث كان الديب كريماً رغم بؤسه «ولم يكن يكبله عن سخائه إلا ضيق ذات يده، ومن القصص التى تعكس شخصية الديب الحقيقة أنه اتيح له أن يظفر بمبلغ جيد من الإذاعة المصرية نظير إلقاء بعد قصائد الوطنية بها، فدعى ثلاثة من معارفه إلى الغداء، فاختار الثلاثة مطعماً فخماً يبالغ فى أثمان أطعمته رغم علمهم بظروف الديب القاسية، ولما فرغ الجميع من تناول ما اشتهوا دفع الديب ثمناً لم يكن يتوقعه، ولكنه على الرغم من فجيعته فى المبلغ الذى دفعه تماسك أمام ضيوفه الذين استغلوا كرمه أبشع استغلال وتجمل أمامهم، وأظهر لهم أن هذا المطعم معتدل فى أثمانه إلى حد بعيد، فأظهر ضيوفه من جانبهم - بمكر - أنهم قد اختاروا هذا المطعم لاعتدال أسعاره.

وقد وقف النادل أمام ضيوف الديب يسرف فى تحيتهم، ويبالغ فى وداعهم والديب المسكين صاحب الدعوة يقف وحده قريباً منه ولم يشر إليه بكلمة ولم يتوجه نحوه بمجاملة، فغيظ الديب لهذا التجاهل المقصود، وأشار للنادل فى صلف يحسنه أحياناً، فلبى إشارته فى تثاقل، فلما وقف أمامه قال له مشيراً نحو ضيوفه الثلاثة: هؤلاء كانوا جياعاً فأطعمتهم من مالى، فكيف تحترمهم من دونى وقد وهبتك منحة سخية؟!

فاضطرب النادل وأخذ يعتذر، ولكن أحد الثلاثة همس فى أذنه ألا يكلف نفسه مشقة الاعتذار فإن صاحبنا خارج اليوم من مستشفى المجاذيب، فهز الرجل رأسه للضيوف، وكأنه يريد أن يقول بذكائه كنت أعتقد هذا حينما دخلوا المطعم.

فلما شعر الديب بما همس به ضيوفه، فى أذن النادل لم يزد أن قال: ومع ذلك فأنتم تنكرون علىّ أن أهجو أمثالكم من الناس، وأنشد على الفور يقول فيهم: «يا أمة جهلتنى وهى عالمة أن الكواكب من نورى وإشراقى. أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن، كعيش منتجع المعروف أفاق، وليس لى من حبيب فى ربوعكم، إلا الحبيبين: أقلامى وأوراقى، دويست لغدرى سهام من نميمتكم، فصارعتنى ومالى دونها واق، لم أدر ماذا طعمتم فى موائدكم، لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى؟».

وكانت المناطق التى ينتقل بينها الديب حى الحسين الذى يسميه باللاتينى وبار اللواء وكفر الزغارى وخان الخليلى، وقد انفق أحمد الصاوى محمد على طباعة ديوان لعبد الحميد الديب، وشكر الديب الصاوى وجمع قصائده من الصحف والمجلات،

وعرف الوزير حفنى محمود بالقصة وكان يهوى الظرف وصناعة المقالب فعرف ذات يوم بأن أحمد الصاوى محمد فى بار اللواء، وطلب منه أن يهجو كامل الشناوى وسوف يعطيه ريالاً ويسقيه كأساً فقال الديب على الفور: بار اللواء لعنت بالشناوى.. ثم تلفت دون قصد فوجد الصاوى فقال: بار اللواء لعنت بالشناوى، ورزئت قبلاً بالثقيل الصاوى»، فنهض إليه الصاوى وسأله عن سر هجائه له فقال: إنها القافيه يا استاذ، وأمرى لله فى إطلاق ديوانى الحبيس.

وقد كان بار اللواء مقر معارك ساخنة بين عبد الحميد الديب والشيخ أحمد العسكرى - آحد شيوخ الأزهر الشريف - ويروى محمد رضوان أن جريدة فتى النيل نشرت فى ١٨ يونيه ١٩٢٩ تفاصيل المعركة بقولها:

«فى إحدى ليالى الأسبوع الماضى نشبت معركة عنيفة حامية الوطيس بين الأستاذ الشيخ أحمد العسكرى وبين الشاعر البائس الأستاذ عبد الحميد الديب استعملت فيها الكراسى والأكواب والأظافر والأنياب، وقد أسف الحاضرون ببار اللواء وجلهم من الصحفيين والأدباء لحدوث هذه المعركة بين شخصين معروفين فى بعض الأوساط الأدبية، وحاول بعض الحاضرين التدخل لفض المعركة فانبرى الأستاذ كامل الشناوى المحرر بجريدة الأهرام فنصح الموجودين بعدم التدخل وأن يلتزموا الحياد التام محافظة على صداقة الطرفين، وأن يتركا وشأنهما لتأخذ القوة مجراها فأخذ الحاضرون بنصيحة الشاعر كامل الشناوى ودامت المعركة سجالاً بين الطرفين إلى أن زلت قدم الشيخ العسكرى أثناء الكر والفر فانقض عليه الديب وأنشب فيه أنيابه وأظافره، وكاد يفتك به، وهنا رأى الحاضرون أن وقت التدخل قد حان فحالوا بينهما قبل أن تحدث الكارثة الكبرى .وقد انجلت المعركة عن بعض إصابات بوجه وعنق الطرفين أثر الخريشة وكانت الخسارة فى الملابس طفيفة بفضل تحرز الطرفين وجلس ظرفاء بار اللواء يفكرون فى قصيدة تصف هذه المعركة الحامية بين الشاعر الصعلوك وبين الشيخ المهم اشترك فيها الشاعران على محمود طه وكامل الشناوى أما المطلع فقد نظمه أحد رجال السيف والقلم وكانت القصيدة الطريفة من وحى معركة بار اللواء ومنها؛ طعن الديب حتى لم يراع المخاطر، وأنشب فى جيد الهزبر الأظافر.. وحطم رأس الشيخ والشيخ منجّم، يضم التقى والحق سراً وظاهراً، وأهوى عليه بالأكف وما

درى بأن «قفا» الأستاذ نحوى جواهرا...». ورد عليهم الديب فى قصيدة قال فيها: «خليلىَّ لم أظلم وإن بت ظافرا، وقد تضعف الأضغان من كان قادراً، ألم تريا ذا الشيخ فى طول نخلة، عريض القفا فينان كالفرع ناضراً، ألا تلومانى على صفع وجهه، فذلك وجه يقبل الصفع صاغرا»

وكان طبيعياً على رجل متشرد فى الشوارع- من وجهة نظر دوريات الشرطة - أن يلقى فى السجن أكثر من مرة، فذات مرة يضبطونه سكيراً فى الشارع وأخرى مشاحنات ومضايقة الناس، وغيرها ديون متلتة..

وظل المسكين يبحث عن عمل حتى وجد وظيفة عند أحد الدجالين وهى تسويق سمعة الدجال وقدرته للزبائن.

وذات يوم توسط له أحد الأصدقاء عند عبد الحميد عبد الحق باشا وزير الشؤون الإجتماعية، وكان أديبا وظريفاً، وبعد أن ذهب الديب لاستلام عمله وجد إدارة المستخدمين تطالبه بمسوغات التعيين فكتب للوزير: «أتلبسنى تاج الكرامة لامعاً، وتنزعه أيد لعلك تجحد؛، أتشهرنى سيفاً على الدهر صارماً، ويوشك من بؤسى يفل ويغمد؛، لقد هددونى «بالمسوغ» وانبرى يناوئنى منهم وضيئ وأربد، مادام لى «رد إعتبار» فإننى أرى شرفى بين المساكين يصعد».

واعادالوزير ليتسلم وظيفته ومن حظه النحس لم يجد مكتباً ليجلس عليه فكتب «بالأمس كنت مشرداً أهلياً، واليوم صرت مشرداً رسمياً».

قبض الديب راتبه فى نهاية الشهر فوجده ثلاثة جنيهات فأحس بأن زملاء له يقبضون أضعاف هذا الراتب ثم إنها وظيفة الحاق بالدائرة الرياضية التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية وكان رئيسه السيد نصير بطل العالم فى رفع الأثقال الذى سخر منه كثيراً فى قصائد عدة ووصلت له الأشعار الساخرة التى يقولها الديب عليه فذهب إلى الديب فى حجرة رثة كان يقيم فيها ورفعه من قفاه وألقى به فى الشارع.

ويروى إحسان عبد القدوس حين صار رئيساً لتحرير روز اليوسف أنه جاءه كامل الشناوى، وكان الديب يتأخر فى الحضور إلى عمله ويناقش فى طريقة كتابة المقالات التى صححها ويعترض عليها ويبدى أسفه - فى بعض الأوقات - على مصير اللغة

العربية ونحوها وصرفها الذى يجهله هذا الصحفى أو ذاك الكاتب- ثم طلق وظيفة المصحح أيضاً إلى الشارع.

الغريب أن الديب عمل مصححاً فى روزاليوسف قبل ذلك من خلال كامل الشناوى أيضاً عندما كانت روزاليوسف تحت رئاسة العقاد، وذات يوم توقف زميل للديب وكان مسيحياً عند آية من القرآن الكريم فى مقال لأحد الكتاب ولم يقرأها لرداءة الخط، وسأل الديب عن الآية، فألف الديب آية وأملاها له.. ونشرت المقالة فكانت فضيحة مدوية، ورفعت قضية أمام المحاكم ضد العقاد والسيدة روز اليوسف، وتم فصله طبعاً فكتب قصيدة مخجلة فى روز اليوسف .

عمل أيضاً فى مجلة حزب من أحزاب الأقلية لم تعجبه سياسة الحزب فكتب فى بريد القراء قصيدة باسم مستعار، وكلها ضد سياسة المجلة وهجاء فى الملك حيث كتب:

برامكة وليس لهم رشيد .°. وأفيال وكلهم عبيد

مدحتهم حتى شرفوا بشعرى .°. لخستهم، وما شرف القصيد

وضمت هجاءهم فإذا هجائى .°. على الأفواه لحن أو نشيد

كما أن له قصيدة كتبها فى النحاس باشا :

«ن الذين يبايعونك إنما، .°. يجدون فى الزلفى لغيرك عاراً»

.. وقد ألقى قصيدته فى اجتماع كبير لحزب الوفد وصفق الجميع له لكن أحد لم يعزمه على أكل أو يعطيه مالاً فما لبث أن أنشد:

«راجع زمانك أيها الكاس .°. فاليوم لا نحس ولا نحاس

لم يبق من مجد الزعامة كله .°. إلا قميص أزرق ولباس»

عمل بعد ذلك سمساراً فى سوق الماشية واكتشفا أصحاب الماشية والسماسرة عدم علاقته أو خبرته فطردوه من السوق، وعملى داعية لقوات الحلفاء بالقاهرة، واشتروا له ملابس جديدة وكان دوره أن يقف أمام هيكل محترق لطائرة عسكرية ألمانية أسقطتها مدفعية قوات الحلفاء فى الإسكندرية وفى نهاية والشهر قالوا له إن مرتبك اشترينا لك به هذه الملابس التى ترتديها، فذهب ووقف أمام الهيكل وهتف.. «إلى الأمام يا روميل».. وهجا الاحتلال ومدح قوات المحور.

ولما سدت الدنيا فى وجهه أكثر وأكثر تزوج من امرآة تمتلك غرفة وولدين من زوجها السابق، ولم يستطع أن يوفر «لقمة عيش» لأسرته البائسة فيزداد حزناً وكآبة، وينصرف إلى الخمر على حساب أصدقاء له أو أناس يمنحهم قصائد باسمهم، وتعرض لمواقف عدة لأجل هذا منها أن كسرت ذراعه فى إحدى المعارك فرقد فى مستشفى قصر العينى ولكن زوجته لم تذهب لزيارته، ولم يسأل عنه أى شخص فنادى زوجته.

هل بالديار لهذا الصب من باكى . °. درى علىّ فأنت الصوت والحاكى

لو كان فى الحب عدل ما شقيت به . °. فقد عشقتك فى يمنى ويلواك

وبت فى القصر تزجى آهتى مقلاً . °. بالدمع أو مهجاً بالصارخ الشاكى»

ضاقت زوجته إحسان بوضعه بعد خروجه من المستشفى ووقعه فى الخمر والمخدرات وطلبت الزوجة الطلاق، وهى التى كانت تعلم منذ البداية أنه لا يملك من حطام الدنيا سوى عزة نفسه وأشعاره، وأنه حين تقدم إليها كان أحد أصدقائه الشعراء قد ساعده بالمال.. وهى أيضا شاهدت زفافها العجيب عليه، إذ ظل الضيوف وقوفاً فى الحجرة الخالية من أى أثاث، والديب بملابس رثة، وأن الحال صعب على جارة عجوز.. وحاولت إنقاذ الموقف فقدمت للضيوف أصدقاء الديب قهوة سادة..!! وازدادت احزان الديب وبكى وكتب قصيدته الشهيرة «فى مأتم عرس».

وترك الديب نفسه للشراب فهزل وعاش الوهم بسبب الكوكايين فأخذه أصدقاؤه إلى مستشفى الأمراض العقلية ولم يجد طريقه إلى الذهاب إليها ويحكى الديب القصة بنفسه قائلاً: «طلع الصباح فهب الناس من مراقدهم ورقدت أنا، إذ طويت الليل سارياً فى طرقات القاهرة لعجزى غن اللجوء إلى أحد الفنادق، فلجأت إلى فندق الله (الجامع الأزهر) فى أول تكبيرة أهل بها ذلك المؤذن الفاتن الصوت على مئذنته التاريخية، وكادت أسلم عينى لهذا النوم المختلس حتى شعرت بيد تهزنى هزاً عنيفاً فإستيقظت فزعاً ورأيتنى وجهاً لوجه أمام من يدعونه «مخبر» ورأيت إلى جانبه شتيتاً من الناس كلهم يرتسم على وجوههم الآلام التى ترتسم على وجهى فضمنى وإياهم فى سلك واحد وساقنا جميعاً إلى قسم الشرطة».

وذهب معه الديب حافياً حيث لم يجد حذاءه، ولما طلع النهار اكتشف حذاءه الضائع فى رجل أحد المقبوض عليهم فاقترب منه وقال له: «حذائى يا صديقى»؟! ودار نقاش

وصياح صحا على إثره ضابط القسم فوبخ الديب كالعادة ثم اقتيد بعد ذلك إلى مستشفى المجانين وهناك فى دار «عالم المجانين» رأيت العدالة فى ربيع صباحا ونضرة شبابها! رأيت احتكام المجانين إلى أمير، إلى حارس، كلهم عادلون منزهون عن الميل والهوى والإجحاف بحق روادهم المساكين!

ولما عرضت على الطبيب المختص لفحص قواى العقلية أثبت سلامتى وكمال عقلى وردنى رداً جميلاً.. وهكذا قدر لى - بسبب هذا - أن أسعد بعمل صحفى .. مركز جل شأنه!».

ويصف الديب أيامه فى الخانكة بقوله: «وأستطيع أن أقول أن الأيام التى قضيتها فى الخانكة كانت أياماً مرحة، وأنهيت الصلة بينى رالجحيم إذ رغبت نفسى بعد العلاج عن المخدر وعافته، كنت أحن إليه وأرغب فيه رغبة تلح علىّ بأن أتناوله ولو كان الجرام منه يقطعة من أعضائى ثم ماتت تلك الرغبة عندى وأدرك الأطباء ما أحرزته من شفاء فأخرجونى من المستشفى» وكتب قصيدته: «فى عالم الجنون» التى يبدأها بـ

رعاك الله مارستان مصر . . فإنك دار عقل لا جنون

وكان كامل الشناوى بمثابة الأب الحنون عليه فكان لايتوانى عن مساعدته ولكن بسخرية، فحينما يقرضه عشرة قروش فإنه يعرف كل منهما بالآخر قائلاً: حضرته الشاعر عبد الحميد الديب.. وحضرتها عشرة قروش..

أيضا حين يكون الديب فى بيت كامل الشناوى ويهم بغسل يديه بالصابونة، فيتناول كامل الصابونه قائلاً: حضرته الشاعر عبد الحميد الديب وحضرتها صابونة!

ولم يكن الشناوى وحده الذى يسخر منه بل أغلب أصدقائه الذين نشر أحدهم خبراً فى إحدى الصحف اليومية أثناء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ يقول فيه «سقطت قنبلة فى غمرة فانفجرت طبيخاً.. وشوهد الشاعر عبد الحميد الديب هناك لتغطية الانفجار!

وبمناسبة الأكل فقد جاع ليس ذات يوم ولكن كعادته كل يوم ولم يجد شيئاً أو مكاناً ياكل فيه ولمح فى حى الحسين مطعماً يوشك على الإغلاق فنكش شعره ودخل المطعم وبرق بعينيه وقال لصاحب المطعم الذى ذعر لرؤيته: هات فرخة بأرز وخضار وجاء له

الرجل بكل ما طلب وكلما تمهل الرجل صرخ فيه الديب: بسرعة.. وإلا أحرقت لك المطعم وسلقتك فيه!!

وجاء وقت الحساب ولم يكن فى جيب الديب سوى قرشين فأخرج من جيبه سكيناً وأخذ ينظف بها أسنانه والرجل مذعور ثم أشار الديب بيده إلى الخارج قائلاً لصاحب المطعم: إن صاحب المطعم المجاور لك حرامى وكذاب، لقد أكلت عنده نفس هذا الأكل أمس، ودهشت حين طلبت منه الحساب إذ قال لى عشرة قروش، فقمت قطعت أذنه وأطعمته إياها.

تحسس الرجل أذنيه فى هلع، فصمت الديب ثم قال له بصوت فيه رصانة: كم حسابك، فقال الرجل: يكفى قرشين يا بك، ودفعهما الديب وخرج من المطعم فى سلام!!

وقد وصف الحجرة التى كان يقيم فيها بقوله:

لقد كنت أرجو غرفة فوجدتها . ٠ . بناء قديم العصر أضيق من لحدى

ترانى بها كل الأثاث فمعطفى . ٠ . فراش لنومى أو وقاء من البرد

وأما وسادتى بها فجرائد تجدد . ٠ . رذا تبلى على حجر صلد

فأهدأ أنفاس يكاد يهديها . ٠ . وأيسر لمس فى بنايتها يردى

إتساكننى فيها الأفاعى جريئة . ٠ . وفى جوها الأمراض تفتك أو تعدى

أرى النمل يغشى الناس إلا بأرضها . ٠ . فأرجله أمضى من الصارم الهندى

تحملت فيها صبر أيوب فى الضنى . ٠ . وذقت هذال الجوع أكثر من غاندى!!

وبدأ الأصدقاء ينفضون من حوله الواحد تلو الآخر وعاش الوحدة كاملة وعاد إلى الكوكايين والخمور مرة أخرى ودخل السجن كثيراً وكان يصعب على نفسه كثيراً أن يعيش شاعراً فى مثل عبقريته فى كل هذا البؤس، فيترك القاهرة وناسها ويعود إلى مسقط رأسه كمشيش بحثاً عن الحب والحنان والدفء والأمان ولكنه يحب لنفسه أكثر شقاء فيعود إلى القاهرة ولكنه يمتنع عن تناول الخمور ثم يهزل جسمه ويمرض وينتقل إلى مستشفى قصر العينى وقيل إنه مات بانفجار فى الزائدة الدورية وقيل إنه انفجار

فى المخ فى ٣٠ آبريل١٩٤٣ عن ٤٤ عاماً وحمل معه صعلكته وبؤسه ومأساته وترك تراثاً شعرياً عميق التأمل والفلسفة مصرياً كل طبقات المجتمع أو حسب وصف فاروق شوشة لمكانته الشعرية وتقريره الأدبى: «ما أكثر الشبه بينه وبين الشعراء الصعاليك الذين عاشوا فى العصر الجاهلى، يقطعون طريق القوافل، ويغيرون على القبائل ويأخذون من الأغنياء ما يعتبرونه حقاً للفقراء، بعد أن خرجوا على قبائلهم وتمردوا على أعرافها وتق اليدها، واسسوا لأنفسهم مجتمعاً متمرداً خارجاً على قانون المجتمع العربى القديم وهو مجتمع الصعاليك!

عبد الحميد الديب واحد من هؤلاء الشعراء الصعاليك روحاً وثورة وتمرداً على الفقر وعلى اختلال السلم الأجتماعى وعلى وجود من لا يستحقون منصباً ولا جاهاً فى الأماكن التى يستحقها غيرهم، وعلى عدم اهتمام المجتمع بصاحب الموهبة الذى يتوهج بشرارة الإبداع، الذى له من فنه وشاعريته وأدبه ما يقدمه على الآخرين، واضطراره – وهو الشاعر المبدع الموهوب – إلى مذلة الطلب والسؤال ومهانة الاحتياج.

التمعت شاعرية عبد الحميد الديب إبان التحول الشعرى الكبير فى أربعينيات هذا القرن: بين كلاسيكية شعرية تترنح وتنهاوى، وورومانسية ثائرة جامحة متمردة.. بين شعر اهتم أصحابه طويلاً بخارج الإنسان من حيث الشواغل والأهتمامات وعرض الحياة، وشعر يصطبغ بالوجدان، ويفيض عنه ويأخذ منه شهادته على إبداع جديد وليد، فى فوران هذا التحول العنيف جاءت شاعرية الديب وتراً نافراً فى قيثارة الشعر، وصوتاً مغايراً للمعهود والمألوف عن معجم الشعراء وعرياً صارخاً – لدرجة إحداث الصدمة أحياناً – من مواصفات العصر، وطبقية تصنيف الشعراء، وسيطرة المفهوم المتوقر للمعجم الشعرى!

عبد العزيز البشرى...

جاحظ العصر الحديث:

- توسط لمحمد عبد الوهاب ليعرفه على أحمد شوقى!!

- رسموا له على جبته حماراً فقال:

من الذى مسح وجهه فى الجبة!!

□ □ □

لم يكن أنيقاً لكنه كان لأم كلثوم صديقاً.. الشيخ عبد العزيز البشرى أحد الساخرين فى عصره والذى ألف مقالات وكتب فى السخرية وفى الدين وفى الفن وفى المجتمع، وهو الذى قالت له أم كلثوم ذات يوم:

- مالك يا شيخ عبد العزيز مبهدل فى هدومك كده ليه..؟

فقال لها: والله ياست ثومة ده أنا جايب الجبة والقفطان دول بعشرين جنيه.

فقالت له أم كلثوم: أمال لما تجبهم جداد تجبهم بكام..؟!!

وعبد العزيز البشرى الذى ولد عام ١٨٨٦ ينتمى إلى بيئة راقية الثقافة والعلم فوالده الشيخ سليم البشرى يعد عالماً من علماء الدين وتولى منصب شيخ الأزهر مرتين.. وقد التحق الطفل عبد العزيز بالكُتَّاب ثم التحق بالأزهر الشريف وتعلم القرآن والحديث، وقرأ فى مكتبة أبيه صنوف الأدب ودواوين الشعر، ووجد نفسه مع الجاحظ فى كتب الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين.

وبعد تخرجه من الأزهر الشريف عام ١٩١١ تم تعيينه سكرتيراً لوزارة الأوقاف براتب قدره عشرة جنيهات وكان يتولى نفس المنصب قبله مصطفى لطفى المنفلوطى. ثم وزارة المعارف، وبعد ذلك تم نقله إلى القضاء الشرعى حتى عين وكيلاً للمطبوعات ثم مراقباً عاماً لمجمع اللغة العربية وكانت هذه هى آخر وظيفة عمل فيها حتى رحل عام ١٩٤٣ .

وقد وصفه الدكتور جمال الدين الرمادى - الحاصل على الماجستير عنه - بقوله: كان البشرى طويل القامة نحيف العود، محنى الظهر، قمحى اللون، ولم يكن حلو التقاسيم جميل الملامح إنما كانت ملامحه لا يتسق بعضها مع بعضها الآخر.

وكانت عيناه دائما حمراوين تنفشان باللهيب، أما أسنانه فكانت منفرجة غير منتظمة.

وكانت شفتاه عريضتين تتلمظان للطعام إذ كان البشرى أكولاً ذواقاً لأفانين الطعام وصنوف الحلوى.

وكان حليق الذقن لا يطلق لحيته كبعض شيوخ عصره وكان شعره متناثراً كثاً أما شعر حاجبيه فقد كان مبعثراً حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة.

وكان البشرى أفوه الثغر إذا ضحك افتر وجهه عن ثغر واسع وقهقهة عالية.وكانت ضحكته مميزة يعرف بها من بين معارفه وجلاسه، وكان لها صدى قوى وصلصلة مدوية بيد أنه كان يستطيع أن يتوقف عن ضحكه بغتة وعلى حين غرة فإذا الضحكة قد تلاشت، وإذا أساريره قد تجمعت وإذا به قد عاد إلى جده وصرامته فى غمضة عين».

«وهو أديب يدعو إلى أدب قومى يعبر عن روحنا القومية، ويفصح عن أمانينا الوطنية.. والبشرى بعد هذا كله أديب ساخر يرقى بالسخرية إلى أرقى مدارجها، ويعلو بها إلى أسمى مراتبها.

وهى سخرية حلوة عذبة لا تنزف الدماء ولا تقطع الاشلاء، ولا تحطم الرؤوس ولا تهشم الصدور إنما هى سخرية بناءة تلتئم بها الجروح.. وتجف بها الدماء.. وتتوثق بها الأواصر، وتثير الابتسام على الثغور، وتبعث البهجة فى الصدور».

وكان البشرى يحمل ثقافة إسلامية بلا تعصب، ذات قراءات دينية وفكرية واسعة نتيجة دراسته بالأزهر واطالعه على مكتبة أبيه وغيرها من أصناف الكتب الدينية.. وكان يحب كثيراً شعر أبى نواس.. وكانت له مقالات نقدية فيه وفى المتنبى والأعشى وبشار بن برد والبحترى وامرئ القيس وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى وغيرهم، وكانت تربطه صداقة قوية بمحمد المويلحى وأبيه إبراهيم المويلحى.

ويشبه عبد العزيز البشرى الجاحظ كثيراً فى أسلوبه الفكاهى وخفة دمه وجزالة لفظه خاصة فى حكايات البخلاء والطفيليين، والبشرى معجب بالجاحظ إلى حد كبير فهو يقول عنه «أقدر الجاحظ واستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثره وأرتضى صحبته، وأفاخر بها، وأحرص عليها».

لقد عرفته منذ أمد بعيد، عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثراً للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق.

وكلما زادت قراءاتى له، استوعبت فيه ألواناً جديدة من الروعة والجلال والامتاع.

إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية جودة وأناقة، ورشاقة وجمال توقيع وهو الأسلوب الجزل السهل الذى ينشده لنفسه كل كاتب يريد الكمال لقلمه والإبداع فى إنتاجه.

- وأن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الغائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر وكلما شاء أن تحز نقداته فى القلوب.

ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفائقة على التحكم كلما اراد أن يسخر، وكلما شاء أن تحز نقداته فى الرقاب.

ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة فى كشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه».

وكان لعبد العزيز البشرى مكانة متميزة فى مجتمع الأدب المصرى، فكان من رواد صالون مىّ زيادة وكان عضواً فى نادى القلم الذى أسهم فى تأسيسه أدباء كبار مثل طه حسين وهاجمه محمد حسين هيكل.. كما كان من رواد صالون الأهرام الأدبى الذى كان يقيمه جبرائيل تقلا وداود بركات ويحضره رجال الفكر والسياسة والعلم.. وكان البشرى من كتاب الأهرام.. كما كان من مرتادى كرمة ابن هانئ مع أحمد شوقى ومحمد عبد الوهاب، وكان له حضور قوى بينهم وهو صاحب الضحكة التى ترسم على وجوه هذه المجالس.. بل قد نفجر مفاجأة إذا قلنا إن عبد العزيز البشرى هو من عرَّف عبد الوهاب على أحمد شوقى، حيث يذكر أحمد محفوظ فى كتابه حياة شوقى«... نوه به وذكره المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى وكان عبد الوهاب حينئذ قد ظهر فى تخته يغنى للناس فى بيوتهم وعلى المسارح العامة وكان فتى يافعاً.

وأذكر كلمات البشرى بنصها قال: «أما يا باشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الخص أحب أنك تسمعه».

فقال: هاته يوماً إلى البيت.

فجاء وحضر قليل من أصدقاء شوقى، وغنى عبد الوهاب ففتن به شوقى وحمله على ملازمته».

وقد قاد عبد العزيز البشرى معارك عديدة فى حياته سواء ضد أولئك المتقعرين أو مدعى العلم والثقافة.. أو حملته ضد من يحاولون إلغاء زى الجبة والقفطان وأنه زى لم يعد مواكباً للعصر، كما كان يكره ركوب الطائرات، وكانت أول طائرة ركبها فى رحلة إلى الإسكندرية مع حسنى نجيب، أما ركوب السيارات فكان يتخير السائق الذى لا يتعجل ولا يسرع، وكان حافظ إبراهيم يعرف هذه الصفة فى البشرى فيضع فيه مقلباً حيث كتب البشرى «ولقد كان حافظ يعرف منى شدة الخوف مثلاً من سرعة السيارات يستدرجنى إلى إحداهن لنزهة أو لعدة، ولا أركب حتى استوثق من السائق لا يعجل وإذا هو قد أوصاه وربما رشاه فما يكاد الخنزير يبعث عجل السيارة حتى يجريها فى سرعة الكوكب الهاوى، أو البرق الخاطف ما يبالى زحمة الطريق ولا مواجهة الترام ولا يطامن منه أنه يرقى قلعة أو يمشى على حافة ترعة أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف فيه على توقيع السلامة».

ومن كتب البشرى الرائعة كتابه «المرآة» الذى جمع فيه المقالات التى كان ينشرها فى السياسية الأسبوعية وهى مقالات عن شخصيات يحللها فيها ويكشف عن طباعها بطريقة ساخرة مثل سعد زغلول ومحجوب ثابت وزيور باشا وفكرى أباظة وهدى شعراوى وعدلى يكن وحافظ إبراهيم الذى كتب البشرى عليه فى المرآه: « فكان إنساناً والسلام»، أما فى وصفه لمحمد محمود فقال «وأنى أصارحك بهذا ورزقى على الله».

وقد قال إن حافظ إبراهيم التقى بصديق له بالصدفه، وكان مهموماً فسأله عن السبب فقال حافظ إن المصران الأعور عندى ملتهب، فقال له الرجل: وبماذا تشعر؟ فقال حافظ: أشعر بوجع شديد فى جنبى هذا، وأشار إلى جنبه الأيسر، فقال له الرجل: إن المصران الأعور أنما يكون فى الجنب الأيمن لا الأيسر.

وهنا أنقذت حافظ سرعة البديهة فقال له: يمكن أنا يا سيدى أعور شمال.

ورغم نقده اللاذع لحافظ إبراهيم إلا أنهما ظلا أصدقاء إذ وصف حافظ فقال: جهم الصوت، جهم الخلق، جهم الجسم كأنما قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة ثم فكر فى آخر ساعة فى أن يكون إنساناً فكان (والسلام)، وأما ما يُدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقاً، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقاً. وأما لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عهد به إلى نقاش مبتدى تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها، فمزج مزجاً من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ولا يتصل بنسب.

وأنك لو نضوت عن ثيابه وكسوته درّاعة من دونها سراويل وأفرغت عليه من فوقها جبة ضافية وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات لخلته من فورك دهقاناً من دهاقين الفرس الأقدمين.

فإذا جردته كله وأطلقته فى البر حسبته فيلاً، وأرسلته فى البر ظننته درفيلاً.

ولكن أكشف بعد هذا عن نفسه التى يحتويها كل ذلك فلا والله ما النور بعد الظلام ولا العافية بعد السقام ولا الغنى بعد البؤس ولا إدراك المنى بعد طول البأس، بأشهى إليك ولا أدخل للسرور عليك فى هذا من حافظ إبراهيم.

وكما تدين تدان فقد وقع البشرى فى يد ساخر آخر يستطيع الضحك عليه وتقليبه بين الكلمات كما شاء وهو الضاحك الباكى فكرى أباظة الذى كتب فى نفس المكان الذى يكتب فيه البشرى «فى المرآة» فى جريدة السياسة الأسبوعية فى ٢٣ أكتوبر ١٩٢٦ وقد نشر صورة للبشرى فى المقال وكتب: «تشجع تشجع سيدى القارئ» وحدّق فى هذه الصورة، ثم قل فى سرك سبحانه الخالق.

اقسم لكم سادتى القراء وأنا مستعد لإثبات دعواى، أنه قدم رشوة إلى مصور السياسة الأسبوعية كى يستخرج لكم صورة صناعية لا طبيعية، فأتت مزدوجة بالرتوش، وإلا فأين شعره المنفوش، وأنفه المبطوش، ووجهه المنكوش.

هذه الخلقة التى لا تسر بلغ من خفة روح صاحبها أنك لا تملك فى بعض الإحايين إلا أن تقطعها تقبيلاً وعضاً، وإلا أن تعانقها طولاً وعرضاً، وإلا أن تهشكها رفعاً وخفضاً..».

وأنك حين تستمع إلى الشيخ عبد العزيز البشرى وهو يداعب تتلقى دروساً عالية فى المفارقات والمفاجآت، قريحة سيارة، وبديهة حاضرة، وذكاء مشتعل فى لغة عربية بلغت من السمو منزلة عالية، وهو يرتفع بالنكتة البلدية إلى سماء البلاغة، ولا أدرى أى شيطان من شياطين الإنس والمرح هو الذى يهبط عليه بذلك الوحى والإعجاز؟ فيفيض علينا بتلك الدرر العجيبة فيمتلئ الجو بالضحك والمتعة والفائدة مجتمعة متحدة..».

وقد قدم فكرى أباظة عرضاً شيقاً لأسلوب البشرى وحياته فى خفة دم يحسد عليها واستخدم نفس طريقة البشرى فى وصفه للناس فى مرآته.

وقد تتلمذ عبد العزيز البشرى على أيدى عديدين وعاصر عديدين صاروا أصدقاء له وكانت تجمعهم مجالس واحدة مثل حسين شفيق المصرى ومحجوب ثابت وإمام العبد وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومحمد البابلى وحفنى ناصف وغيرهم.

ولم تقتصر الكتابة عن البشرى على ساخر مثل فكرى أباظة فقط ولكن طه حسين كتب عنه كلاماً يناقض تماماً ما كتبه زكى مبارك، حيث يقول طه حسين بعد رحيله:«.. كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة ا لتى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل، والتى ظفرت من هذه الخصال بخط غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته، إن صح هذا التعبير، بحيث لا يبلو الإنسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتتان، وأصبح لا يستطيع له نسياناً، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخصوب، ومهما يختلف عليه من الظروف»ثم يضيف » عبد العزيز البشرى أشد كتابنا المعاصرين عكوفاً على حياتنا المصرية، وعلى حياة القاهرة خاصة، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص. وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها، وأشدهم تمثلاً لخلاصتها، قد خالطت نفسه، ومازجت دمه، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث، وجدت مع قلمه حين كان يكتب، فحص أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال».

لكن زكى مبارك شن نقداً عنيفاً على كتاب «المختار» للبشرى الذى قدم له خليل مطران، ولم يكن الكتاب يستحق كل هذا العنف، فقد كان - ومازال - تحفة أدبية إذ يقول زكى مبارك : «عبد العزيز البشرى مزخرف مبهرج ويفضل الزخارف والبهارج، وصل إلى أشياء لأن الجمهور عندنا قد يكتفى من الكاتب بإجادة التزيين والتلوين.. ورجل صخاب ضجاج يدق الإجراس الضخام حيث يدخل غابة للصيد».. ويكمل زكى مبارك

فى جريدة الرسالة فى ٢٠ يناير ١٩٤١ بقوله «كان البشرى يستطيع أن يكون كاتباً عظيماً لأن لهذا الزجل ذخيرة فنية من الفطرة والطبع، ولو أنه استجاب لوحى روحه لأتى بالعجب العجاب ولكنه تكلف مالا يطيق فأضيف إلى المتحذلقين».

وكان للبشرى دوراً واضحاً من تطوير الأسلوب وبلاغة اللغة وقال فى محاضرة بالجامعة الأمريكية عام ١٩٣٥ أن كتب البلاغة العربية مليئة بالغموض والأبهام، وهو محق تماماً فى قوله.

وكان البشرى سريع البديهة فقد التقى بالفريق إبراهيم عطا الله رئيس أركان حرب القوات المسلحة بعد أن تولى البشرى منصباً قضائياً: فقال له عطا الله: هل صحيح يا مولانا الحديث الشريف الذى يقول: قاضي فى الجنة وقاضيان فى النار؟ فرد عليه البشرى بسرعة: لا والله لم يصادفنى هذا الحديث . ولكن أعرف فقط الآية الكريمة «فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

وذات يوم التقاه ريفى فى يده ورقة مكتوب فيها عنوان يريد الذهاب إليه وطلب من البشرى أن يدله على المكان ولم يستطع البشرى قراءة الخط لرداءته وقال للريفى: والله يا بنى ما قادر أقرأ العنوان، وهنا قال الرجل غاضبا: آمال لابس جبه وقفطان عمه ليه، فما كان من البشرى إلا أن رفع العمامة من على رأسه ووضعها فوق رأس الرجل الريفى وقال له: أهو أنت بقيت بعمة اقرأها بقى « وذات مرة كان حافظ إبراهيم جالساً فى حديقة داره بحلوان ودخل عليه البشرى الذى بادره قائلاً: شفتك من بعيد افتكرتك واحدة ست..!! فقال حافظ: والله يظهر إن نظرنا ضعف.. أنا كمان شفتك وأنت جاى افتكرتك راجل.

أيضاً التقى البشرى ذات يوم بتُربيا فى الترام فسلم عليه وحياه وسأله البشرى عن أحواله فقال الرجل: أنا فى الخدمة، فقال البشرى: الله يحفظك، فقال التربى: ربنا ما يحرمنا منك.

وسافر ذات يوم مع أصدقاء له إلى مزرعة أحد أصدقائهم فى الشرقية وكان من عائلة الأباظية، وبعد الغداء قام البشرى إلى الحمام لغسل يديه وللوضوء وترك جبته السوداء خارج الحمام، فقام أحد أصدقائه ورسم عليها بالطباشير وجه حمار للسخرية منه، ولما خرج البشرى لم يبد عليه الضيق ولكنه أمسك بالجبة ونظر لهم وقال: «مين

فيكم إللى مسح وشه فى الجبة».

وظل البشرى يعمل فى مجمع اللغة العربية حتى توفى فى ٢٥ مارس ١٩٤٣ ونعته العديد من الصحف فكتبت جريدة المصرى فى ٢٦ مارس ١٩٤٣ «نعى الأدب إلى أهله فى مصر والشرق رجلاً من خيرة رجاله، وعلما من أكرم أعلامه، هو المغفور له المرحوم الشيخ: عبد العزيز البشرى الذى لا يحده منصب، ولا يميزه جاه سوى منصبه فى الذروة من حملة الأقلام وجاه الأدب وحده. تذوق الأدب صغيراً من أب هو أحد كبار شيوخ المسلمين فى عصره، وكانت حياة الأديب حينذاك شقية مضنية فاحتملها الفقيد الكريم ومضى وهو خائف يترقب فالبيئة الأزهرية الصارمة تفصل بينه وبين التعلق بالأدب، ولكن الأدب كان فى دمه فلم يستطع أن يخرج عن طبيعته، لذلك سار فى طريقه غير عابئ بما يلقى من عنت وإرهاق.

وخرج الشاب عبد العزيز البشرى على الناس بأسلوب حلو مشرق، افتتن به الكثيرون وأحبوه، ولم تكن ظروفه تسمح له أن يظهر اسمه فى كل ما يكتب، ولكن القراء كانت كثيرتهم تعرفه من أسلوبه؛ ومن روحه ودعابته، ومن آرائه وقد ترك للأدب العربى ذخيرة من أنفس ذخائره، والحديث عنه يطول فقد أصبح اليوم فى ذمة التاريخ، فالعزاء فيه للأدب والخلق الرضى والأسرة الكريمة وأصدقائه وتلاميذه والمتأدبين بأدبه».

ويكشف هذا النص قيمه الرجل ومكانته.. وقيمة النعى أيضاً الذى تحول اليوم إلى ما يشبه الحفل الحافل بالأسماء والأنساب وأسماء من قاموا بالعزاء ومن ماتوا قبل ذلك لسليل الحسب والنسب حسبما نطالع فى جريدة الأهرام كل يوم، وانظر مثلاً إلى نعى الأهرام للبشرى فى ٢٦ مارس ١٩٤٣: «روعت مجامع الأدب بنعى كاتبٍ متفرد، وأديب كان فى طليعة الأدباء، وهو المغفور له الشيخ عبد العزيز البشرى، فأحس أهل المجامع لما بلغ منعاه فراغاً فى محيط الآداب العربية كان يملؤه الفقيد بلون اختص به من ألوان الأدب المشرق الديباجة الأخاذ العبارة الحلو الأسلوب الشائع التناول، فكان هذا الإحساس الصادق مضاعفاً للأسى والأسف فى النفوس جميعاً، وقد عاش البشرى قريباً من قلوب أصدقائه حبيباً إلى نفوسهم، إذ كان لطيف المعاشرة صافى النفس طاهر الدخيلة - رقيق الحس، حريصاً على ود إخوانه وعارفيه.

وكان طيب الله ثراه مشغوفاً بالأدب العربى منذ نشأته فمازال متوافراً عليه حتى

تمكن منه وتضلع فيه فأصبح من أعلامه والقابضين على ناصيته الأدبية».

وارحمتا لى من صروف زماني . . . أنّى رمت رامت سهام مكاني
انى لأسأل والرفاق تحملوا . . . أترى يطيل عذابىَ الملوان
من مبلغ السلوان مقروح الحشا . . . سُدت عليه مسالك السلوان
منعاك يا عبد العزيز أمضّنى . . . وأضاف أشجاناً إلى أشجانى
فاجأتنى بالنأى قبل أوانه . . . هل حرقة كالنأى قبل أوان
أتسوا إخوانا ملكت قلوبهم . . . ظُرفا وكنتَ مسرة الإخوان
رب البيان وأنت بالغ شأوه . . . أعجزت بالسبق البديع بيانى
أدب يخال مطالعو آياته . . . أن الكلام مثالث ومثان
فُقت الذين أخذت عنهم يافعاً . . . وبرزت من جلوا من الأقران
أحدثت أسلوباً وكنت إمامَه . . . وبقيت فذاً ما لك ثان
جمع السهولة والجزالة لفظه . . . تتخالفان حلى وتأتلفان
ديباجةٌ عربيةٌ مصريةٌ . . . نقشت برائعة من الألوان ..
من للدعابة وهى قد قرنت إلى . . . حِلم الشيوخ تراهة الشبان
نهل تساقاها القلوب فتشتفى . . . غلل وتقضى للقلوب أمان ..
أخلا من البشرى عصرٌ لم يكن . . . فيه على ذاك المثال اثنان.

نقيب الصعاليك وملك الكلام:

زكريا الحجاوى

ـ أخفى السادات فى بيته..

ففصله وطرده من مصر!!

سوزان الحجاوى:

ـ كلما قرأت ما كتبه رجاء النقاش عن أبى بكيت

نعمة الحجاوى:

طرد الملك إقامته لأنه غير علم مصر ببطانية!

□ □ □

كنت ذاهبا لإجراء حوار مع ابنة رجل قدم كثيرًا إلى مصر وحمل الموال على كتفيه أينما ذهب، وله مواقف مضحكة مجلجلة، لكنى فوجئت ببحر من الدموع لا ينتهى فى عينى، سوزان زكريا الحجاوى، بل ولم تقل لى كلما أردت أن أتذكر أبى أبكى ولكنها قالت« كلما أردت أن أبكى بحثت عن مقالة رجاء النقاش التى كتبها عن أبى وبكيت»!!

– وزكريا الحجاوى عاش حياته كما أرد أن يعيشها، وقدم الرئيس متقال وخضرة محمد خضر وشوقى القناوى، وتعرف إلى أنور السادات وتصادقا دهرًا طويلاً وخبأ السادات فى بيته مرتين أثناء حادثة مقتل أمين عثمان، وبعد أن تولى السادات الحكم منع أعماله من الإذاعة وفصله من عمله هذا فى نفس التوقيت الذى تهدم فيه سقف البيت الذى يقيم فيه الحجاوى فأصبح بلا سقف فى الحياة.. وعاش حاملاً ضحكاته ونكاته ومقالبه وخياله الواسع، عاش يفعل أى شىء دون أن يراجع نفسه.. المهم أن يفعله وخلاص لدرجة أنه قاطع صديق عمره عبد الحميد قطامش ثلاث سنوات بسبب مزاح معه... والرواية لمحمود السعدنى–صديقهما الثالث–، فقد كان زكريا جالسًا على مقهى عبد الله بالجيزة مع مجموعة من أصدقائه وتلاميذه، ولم يكن من بينهم أحد من أصدقاء عبد الحميد قطامش.. وفجأة دخل عبد الحميد المقهى، فنظر إلى الجالسين، نهض زكريا الحجاوى فى احترام مبالغ فيه، ورحب بعبد الحميد بكل احترام وتقدير، لكن قطامش – وقد حبكت معه النكتة– وقف بعيدًا عن زكريا وهو فى غاية الجد وقال له « لسه قاعد بتتصبب يا زكريا، ياحقير بنى أميه، يا ابن الـ...» ثم بصق على زكريا وانصرف.

لم يعرف زكريا لماذا فعل فيه صديقه العزيز هذا الموقف الذى كان معه بالأمس والذى لم يكن بينهما شىء يدعو إلى هذا... وأحرج زكريا بين تلاميذه الذى يجلونه ويحترمونه، وبعد شهور طويلة جاءت الفرصة ليخلص زكريا حقه من قطامش. فعند محطة الباشا فى منيل الروضة صعد زكريا «الباص»، وكان «الباص» مزدحمًا والجو

شديد الحرارة ، ولمح زكريا وسط الركاب الشيخ عبد الحميد قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين زملائه.. واقترب زكريا من أحد هؤلاء المحامين وسأله« هو الاستاذ إللى واقف هناك ده يبقى عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى، فأجاب الشيخ بالإيجاب، وصرخ زكريا صرخة شديدة «يا لص، يا كذاب، يا منافق، يا قطامش» ، تذهب إليك زوجتى بتوكيل خاص لترفع لها قضية طلاق منى فتغازلها غزلاً معيبًا يا منافق يا شيطان..

بهت الجميع وكانت هذه من الكبائر فى مصفات المحامى الشرعى لذا نظر له زملاؤه بازدراء، وانفجر زكريا فى سيل من الشتائم وحاول قطامش تهدئته ولكن دون جدوى، وهنا ثار الركاب على الشيخ قطامش وكادوا يضربونه، وفى هذا الزحام انتهز زكريا الفرصة وقفز من «الباص» واختفى..!

وقد حاول السعدنى الصلح بينهما بعد هذه السنوات العجاف ولكن دون نتيجة «كان قطامش شديد الغيظ مما حدث، وكان يقسم كلما فاتحته فى الموضوع أنه لن يخاطب زكريا حتى الموت، ولكن انتهزت فرصة مواتية، وتعمدت استفزاز قطامش عندما قلت له : يخيل إلىّ أن هناك سببًا لا ندريه فى موقفك المتشدد والغريب من زكريا، وقال قطامش عندك حق، فأنا وجدتها فرصة لأقاطع زكريا الحجاوى إلى الأبد، ولما سألته عن السبب الحقيقى، تنهد فى أسى وقال: « إن زكريا يحقد علىّ حِقدًا شديدًا، وابتسم شبح ابتسامة، ولكنه واصل حديث فى جد شديد، لا تظن أنى أمزح أو أعبث يا محمود، الحقيقة أن زكريا يحقد علىّ حقدًا شديدًا ، والسبب أنه عديم الأصل وفقير، وهو لم يتعلم شيئًا، كما أنه ضائع وصائع.. ثم هدأ انفعاله قليلاً وصمت لحظة، ثم قال فى هدوء وأنا كمان كده يا أخويا ، وهو عايز يبقى كده لوحده! عشان كده بيحقد علىّ، وضحك قطامش ضحكة عميقة وصافية نابعة من القلب، ونهض معى إلى بيت زكريا الحجاوى، وكانت سهرة لا تنسى».

ولد زكريا الحجاوى بالمطرية التى تطل على بحيرة المنزلة فى محافظة الدقهلية، وكان أهله يعملون بالصيد... عاش طفولته بين الصيادين والمراكبية متتبعًا الرزق الذى

يأتى من البحر، تخرج من مدرسة بورسعيد بتفوق. وكان من الأوائل فى مديرية القنال التعليمية ثم درس فى مدرسة الصنايع والفنون... وطرد من هذه المدرسة بعد قيادته للمظاهرات .. فاتجه إلى الرسم ثم تحول لدراسة الأدب اليونانى والأدب العربى، ثم درس الموسيقى على يد عبد الحميد الألفى .

كان عاشقًا للقراءة فى بداية حياته، أثيرًا للأساطير الشعبية، واستهوته أسطورة «بجماليون وجالينا».. وحاول أن ينسخ منهما قصصه لكنه وجد توفيق الحكيم وقد أصدر مسرحية «بجماليون» .. بعد ذلك تتبع خطوات عبقرى النغم الشيخ سيد درويش وغنى بصوته الأجش كثيرًا من مقطوعاته فى جلسات بين أصدقائه .. ثم احترف الصحافة وبدأ فى كتابة القصة القصيرة والنقد والبحوث الفنية.. وكانت أول قصة كتبها بعنوان «محاكمة قاع النهر» عام ١٩٤٨ التى ضمها إلى مجموعته «نهر البنفسج» بعد ذلك وهى قصة رائعة تتحدث عن امرأة انتحرت لصيانة عفتها التى يريد منها زوجها أن تفرط فيها... ويأخذك الحجاوى بأسلوبه الساحر فى الحكاوى واصفًا ألقاب وفروع الشجر المثمر« الغاب تافه طويل، وهو يهتز مع الريح، مقلدًا الفروع المثمرة التى يحق لها أن تهتز ، وكلما وثبت فوقه نسمة تريد الاستلقاء فى النهر، انحنى لها الغاب انحناءة ثقيلة الدم، وهو يصفق بأوراقه العجاف.

ويصف الحجاوى الليل وصفا لاأعتقد أنك سمعته من قبل« الليل عبيط يتجول فى القرى ناشرًا عليها الكآبة والمخاوف»، ثم يدخل بك إلى النهر واضعًا إياه وحركة الحياة من حوله .'. ثم يصل إلى مرحلة التكثيف حين يلتقى ملاك بامرأة وطفليها فى قاع النهر ويسألها عن سر انتحارها ولا يجد سببًا فيسألها عن زوجها فتقول له: إنها تركته نائما ويأخذها الملاك إليه ويوقظه سائلاً« شلبى» وهذا اسمه عن زوجته وأولاده، وعن نواياه، فيخبره شلبى أنه يريد أن يخنقها لأن الشيخ محمود شيخ القرية، كان يعطف عليه بالنقود لأجل زوجته وكان يترك له البيت ويخرج لكن الزوجة تصر على عفافها مما بالشيخ لأن يقطع عنه المال.. ويرحل الملاك ومعه «خضرة» زوجة شلبى ويتركها كما وجدها فى قاع النهر فتسأله : إلى أين يا ملاك النهر؟ فيقول لها: «أنت لم تموتى يا خضرة، ولن تموتى فدعينى أبحث عن الموتى...».

وقد وصف يوسف إدريس كتابات زكريا الحجاوى بجمال القصة وبالذات فى مجموعته « نهر البنفسج»، بأنه رائد القصة القصيرة الواقعية.

وبعد كتابة القصة دخل الحجاوى الإذاعة بتمثلياته ومسلسلاته، وكان فى ذات الوقت ينتقل إلى الموالد والأسواق والقرى والنجوع فى ريف مصر باحثًا عن تحفة فنية أو صوت حقيقى واعد يكتشفه ويعود به إلى القاهرة ليقدمه إلى النجومية ثم يتركه ويعود باحثًا عن آخرين... وكان يرى أن الفن ولد فى مصر والتاريخ لايزال طفلاً يلعب بين أهراماتها ومصايفها ومع الهجرات والأجناس الوافدة على مصر والخارجة منها هاجر الفن من مصر إلى بلدان المنطقة ولكن عوامل كثيرة جعلت كلا من فنون هذه البلاد فنًا قوميًا محليًا.

وفى المطرية ذهب أنور السادات عام ١٩٤٥ إلى منزل زكريا الحجاوى ملتحفًا بخوفه هاربًا... وذلك أثناء نضاله ضد الاحتلال البريطانى، حيث قبض عليه فى قضية أمين عثمان فهرب، وهو لم يهرب من السجن ولكنه هرب من مستشفى القصر العينى، وذلك بعد أن نقل من السجن إليها وتم تدبير عملية الهروب من خلال الدكتور يس عبد الغفار الذى كان يشرف عليه بالمستشفى ومحمد على ماهر، معاون المستشفى، ثم انتقل للاختفاء فى منزل زكريا الحجاوى بالمطرية، وقد عرفه زكريا على أهله بأنه صديق حميم له اسمه «الريس جلال» وقد عمل صيادًا معهم.. بعد ذلك، وبعد أن تم القبض عليه عام ١٩٤٨ هرب السادات مرة أخرى إلى المطرية كسائق لورى على نقلة طوب وزلط ورمل باللورى فى منطقة القتال بدمياط والمنزلة والمطرية، ورغم أن السادات حضر عدة أمسيات فى ذكرى زكريا الحجاوى بعد رحيله ومنحه وسام العلوم والفنون لاسمه، تكريمًا وتخليدًا لذكراه، وأطلق اسمه على أحدث شوارع المنصورة، وغير اسم مسرح السامر إلى مسرح زكريا الحجاوى، وحول المنزل بالمطرية إلى متحف يضم أعماله وفنون الشعب التى عاش لأجلها وإقامة تمثال نصفى له، وأنه فى إحدى أمسيات التكريم لمح الرئيس السادات زوجة الحجاوى فعاد مرة أخرى ليسلم عليها ووقف معها، أقول رغم ذلك فإن للسعدنى -صديق الاثنين شهادة أخرى - حيث سألته عن زكريا فقال لى:« لزكريا على أنور السادات آياد بيضاء فقد أخفاه عن أعين

البوليس، وله فضل الثقافة على السادات... بل إن تعبيرات السادات عن العيب من وضع زكريا الحجاوى... لكن السادات حين تولى الحكم منع أعماله من الإذاعة وفصله من وظيفته.. ويروى يوسف الحطاب -المخرج الإذاعى الشهير وصديق الحجاوى- أن السادات حين جاء للعمل مشرفًا للتحرير فى جريدة الجمهورية قبل أن يتولى الحكم، وكان زكريا سكرتير تحريرها قام بفصله - بدون سبب- بل لم يعرف الحجاوى خبر فصله إلا فى الصباح حين ذهب إلى الجريدة فوجد قرار فصله معلقًا على الحائط والأمن يمنعه من الصعود إلى مبنى الجريدة.

ويبرر الحطاب السبب فى ذلك بأن الحجاوى كان ينادى السادات باسمه دون أى ألقاب وأمام أى إنسان، وكان يدخل عليه مكتبه دون استئذان ويرفع الكلفة بينهما ويهزر معه بل ويتريق على السادات ونصحه السادات بأن يكلمه رسمى أمام الناس و«عيب» ولكن زكريا لم يستجب ففصله من الجمهورية.

الغريب أن هذا ما حدث مع رجل كانت له علاقة شخصية بأغلب رجالات ثورة يوليو، فقد انتقل الحجاوى إلى الجيزة وسكن فى البيت رقم ٩ فى شارع عبد الحكيم وعين موظفًا بمجلس مدينة الجيزة ثم موظفًا بوزارة الداخلية لكنه استقال، وسافر إلى صعيد مصر لسنوات ثلاث قضاها مع «ناعسة المزاتية» وهى أم كلثوم الفن الشعبى وكون لها فرقة غنائية وطاف معها الصعيد كله.. ثم عاد وعمل صحفيًا بجريدة المصرى عام ١٩٥٠، وكان يلتقى بالعديد من الضباط الأحرار، فقيام الثورة جاء مع نضج زكريا الحجاوى، لكنه بعد الثورة وبالتحديد عام ١٩٥٣ انتقل للعمل سكرتيرًا لتحرير جريدة الوفد.

ومن حبه فى الفن الشعبى قرر وأصدقاؤه أحمد رشدى صالح وحسن فؤاد وأحمد شوقى الخطيب المحامى إصدار مجلة خاصة بالفن الشعبى.. واحتجز رشدى صالح من راتبه الشهرى جزءا، وكذلك فعل حسن فؤاد وزكريا كان أفقرهم فقرروا أن يهب كتابه سيد درويش حياته وفنه، للمشروع، وفعل وأعطاهم الكشكولين المكتوب فيهما الكتاب، وبدأ العمل فذهب الحجاوى إلى الدكتور سليم حسن أستاذ الآثار العالمى وأجرى معه

حديثًا عن الفن الشعبى فى مصر القديمة، وذهب إلى الأهوانى والدكتور عبد الحميد يونس وللدكتور محمد كامل سليم، لكن الموضوع فشل.. وعلق الحجاوى على سر فشل المجلة قائلاً: «..وفجاة، وإذا بكل واحد منا يتلقى نصيحة من الدار الصحفية التى يعمل بها، ببلاش حكاية المجلة دى ، لأن البوليس السياسى شايف إنها ضد مصلحة البلد!!

كان عجيبًا أن يصل الخوف بالبوليس السياسى من أربعة أدباء ناشئين، ولفقوا لنا اتهامات وفشل المشروع».

وكان ريف مصر وقراها مبعثًا على الشغف بالنسبة لزكريا الحجاوى بحثًا عن الإبداع والمواهب الحقيقية أو حسب قول أحمد بهجت«كان زكريا الحجاوى فنانًا يشبه عمال المناجم، إنهم يغوصون فى باطن الأرض بحثًا عن الذهب والفحم والمعادن، وهو يغوص فى باطن الريف لاكتشاف أصوات كالذهب والفحم وبقية المعادن... وقد كانت الموالد الريفية هى الأنفاق التى يعثر فيها الحجاوى على عروق الذهب أو كتل الفحم، فأسس فرقة الفلاحين التى قدمت عروضها فى احتالات عيد الثورة عام ١٩٥٧ ... واكتشف أبو دراع وخضرة محمد خضر التى تزوجها ولعلع صوتها فى «أيوب المصرى» و« ملاعيب شيحة».

ولهذا الغرام العنيف بينهما قصة، فقد كان زكريا متزوجًا من فتاة يحبها بكل صدق وإخلاصه كانت حبه الأول وعاش معها أجمل أيام حياته، وفجأة مات شقيقه وترك «كوم لحم» يحتاج إلى رعاية وتربية... وهنا ترك زكريا زوجته وتزوج زوجة أخيه، وبعد أن أنجب منها سوزان وأسامة وتعرف على خضرة محمد خضر، أو خضرة الشريفة جسبما أسموها فى الموالد، فى كوم حمادة بالبحيرة كان يبحث عن مواهب حقيقية... وأخذت تلف فى الموالد وطلقها زوجها لهذا السبب لكنها لعلمت فى حى الحسين حيث سرادق زكريا الحجاوى.. وغنت قصة «أيوب».

وقد حفظت خضرة لحن «أيوب المصرى» وأخذها زكريا لتسجيل اللحن فى استديوهات الإذاعة ثم عرض عليها الجواز وكتب فغنت:

شباك الحبايب
ليه دايمًا موارب
ومدارى الهوى
إن كنا غلابة
ح نجيب النيابة
ونروح سوا!
يا أغلى من عنينا
يا خى حلمك علينا
واسمح لى بوصالك
ده احنا ليكو ملنا
راضيين بقليلنا
طلة من جمالك
فى البستان
والرمان دهب
وفواكه عجب
أنا خولى الجنينة
حتى اسأل علينا
الشفة الرطب

وبعدها تزوج زكريا من المطربة خضرة محمد خضر شريطة ألا يستغنى عن زوجته الأولى، وقد تم افافهما فى حفل حضره مئات من المطربين الشعبيين، ثم بدأت خضرة

تطالب بمساواتها بزوجته الأولى ثم انتهى الأمر بالطلاق .. ، وشرب دماء بعضهما!

نعم فتقاليد الفنانين الشعبيين تقضى بأن يشرب كل منهما من دم الآخر وقت الفراق لكى يصبحا شقيقين تجرى دماء كل منهما فى دم الآخر.

وقد أقيم احتفال كبير فى إمبابة، وجرح فيه نقيب الصعاليك زكريا الحجاوى إصبعه، وكذلك فعلت خضرة وشرب كل منهما من دماء الآخر وأصبح أشهر عاشقين أخوين.

وكتب زكريا فى وحدته آخر موال فى خضرة التى غنت هذا الموال ثانى يوم طلاقهما:

زرعت فدان جمايل وأربعة معروف

ورويتها ياما شهامة بزوق وبالمعروف

واللى حماها- أنا- بالجدعنة ومعروف

وقلت هلبت تزرع م الجميل قيراطين

أتاريها أرض طين وبتنكر المعروف

ولأن لا كرامة لنبى فى وطنه فقد وجد الحجاوى نفسه بلا دخل ثابت مفصولاً من عمله، مهزومًا فسافر إلى قطر وكون هناك «فرقة قطر للفنون الشعبية» كما أعاد صياغة الأغانى البدوية، والأهازيج القبلية وجمعها فى شرائط لتكون مكتبة الأغانى الشعبية فى إذاعة قطر، وما أراح زكريا الحجاوى الذى ماكان يستطيع أن يترك أرصفة مصر وحواريها دقيقة واحدة الطيب صالح رئيسًا مباشرًا له فى قطر ، بل وحماه من كارهى النجاح وقتل مواهبه ومحاصرته... ومر بعدة أزمات نفسية قضت عليه حيث مات فى أحدى أزماته القلبية فى ٧ ديسمبر ١٩٧٥ .

ومع السعدنى رسالة كتبها إليه فيها« لم تتغير مصر يا محمود ولكن الذى تغير هم ناسها، أو بمعنى أصح، الذين تغيروا هم بعض الناس الذين يطفون على السطح،

والذين يتمتعون بألف وجه، وهم يقدمون وجها لعبد الناصر، ووجهًا آخر للسادات، ولوضرية حظ، أصابتك يومًا وأصبحت مهمًا فى مصر فإن هؤلاء الناس، أنفسهم سيرتدون وجهًا ثالثًا لك، وسيكتشفون عندئذ كم ساهم « برعى السعدى» جدك فى حضارة مصر الحديثة، ولأننى صديقك سيكتشفون أيضًا كم ساهمت «بهانة الحجاوى»، يرحمها الله مع برعى السعدنى جدك، فى صد الغزو الصليبى عن مصر !.

وفى حوار لنا مع سوزان زكريا الحجاوى تحدثت ابنته الكبرى وتوقف الحوار حين سالت الدموع على خديها بغزارة فقد قالت: لم أعرف قيمة أبى إلا عندما كبرت... لكن أتذكر أن أساتذتى فى المرحلة الابتدائية كان يعرفوننى بأننى ابنة زكريا الحجاوى؟، وكانوا يتنبئون لى بالمواهب... وحلمت بأن أكون صحفية، وأحسست بالموهبة تنمو داخلى لكن والدى لم يشجعنى على ذلك لأن كل واحد يعرف صعوبة المجال الذى يعمل فيه ومتاعبة، وكان يقول لى أن الصحفية الناجحة تنجح على حساب بينها وأولادها وقال لى أنا أعلمك لكى تكون مثقفة وتحسنين تربية أولادك لذا تخرجت فى كلية التجارة وحصلت على دبلوم فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وأذكر أصعب المواقف التى مر بها والدى، وذلك عندما صدرت الأعداد الأولى من جريدة الجمهورية والتى قام بإعدادها والدى بتكليف من أنور السادات، وفوجئ بعد صدورها بخطاب إقالته، ولم يعرف السبب ، لكنه عرف بعد ذلك أن هناك شخصا بالجريدة كان من المخابرات وله علاقة بجمال عبد الناصر، وقام بنقل كلام خاطئ عن والدى من أنه ليس معجبا بسياسة عبد الناصر وأن تجربته ليس لها ديمقراطية، حقيقية وأن الثورة حادت عن المخطط التى قامت من أجلها رغم أن والدى كان وطنيًا منذ بداياته، من دراسته فى مدرسة الفنون والصنايع الملكية، هندسة عين شمس حاليًا، حيث كان زعيمًا للطلبة الوطنيين وكان من دفعته المخرج محمود ذو الفقار... وأذكر أنه حكى لى عن المظاهرة التى قام بها وذو الفقار داخل المدرسة وجاء البوليس وحاصر المكان، فعمل والدى ومحمود ذو الفقار تمثيلية حيث أعلن فى ميكروفون المدرسة أن سور المدرسة مكهرب ومن يقترب منه سوف تصعقه الكهرباء.. وتقدم محمود ذو الفقار من السور ومثل أن الكهرباء صعقته وارتمى على الأرض وبالفعل ابتعد البوليس عن السور.

وعن سر تسمية أولاد الحجاوى بأسماء نادرة قالت سوزان: أسمانى سوزان لأنه كان يقرأ حياة شكسبير، ووجد أن شكسبير له ابنة واحدة تدعى سوزان، وكانت والدتى فى حالة وضع فأسمانى سوزان... أسامة سماه إعجابًا بأسامة بن زيد، وحسنات أسماها كذلك قائلاً «علشان أحط أيدى على كتفها يوم القيامة وأدخل الجنة»، أما نعمة فأسماها كذلك لأن الدكتورة التى أجرت لها عملية الولادة كانت متوقعة «ولد» فإذا بها «بنت»، وقالت لوالدى بحزن نعمة من عند ربنا... ووالدتى متزوجة من عمى قبل والدى، وكانت قد أنجبت فوزية وعزت وسميرة وسعيد وكان والدى طيلة عمره شهما وفارسا فقد ترك خطيبته ليتزوج أمى .

وعن سر زواجه من خضرة محمد خضر أضافت سوزان: تزوجها سنتين وكانت والدتى موجودة، وكنت طالبة بالجامعة وسألته عن هذا الزواج فقال: لما تكبرى سوف تعرفين، لقد طلقت من زوجها وكانت معه ليل نهار فى الموالد، ولديها بنات ولا أريد أن يتقول علىّ أحد فتزوجها.. ولو كنت أريد الزواج للزواج لتزوجت فتاة جميلة، وقد أخذت الأخيرة الشهرة والمجد من والدى، ورغم زواجها عشر مرات بعد والدى إلا أنها عندما كانت تتحدث إلى الصحافة كانت تقول : كنت متزوجة زكريا الحجاوى... وكلما أحن إلى أبى وأريد البكاء فإنى أعود لقراءة مقال رجاء النقاش عنه «لماذا يا أبى تموت وحيدًا غريب الدار.

أما نعمة زكريا الحجاوى فتقول: زكريا الحجاوى هو أطيب وأحن أب فى هذا العالم ، كان صديقًا قبل أن يكون أبًا... أبناؤه هم محور حياته عاش لنا طوال حياته رغم أنه لم يكن يملك وقته، ومع ذلك كان يستطيع أن يعطينا حب العمر كله فى اللحظات القليلة التى يقضيها معنا.. أحببناه وعشقناه ولم نتر فى هذه الحياة كلها من يستطيع أن يضاهيه فى عيوننا.

وقد كان لى حظ الاقتراب من أبى بحكم وجودى معه فى قطر قبل وفاته مباشرة والتى مكثنا بها حوالى ثلاث سنوات... كم كنت فخورة بأننى ابنة لهذا الرجل العظيم، ومن أكثر الأشياء التى تحزننى أن إنتاجه الأدبى لم يدون كله بل إن معظمه شفاهة...

خاصة أن موهبته كانت فى تبسيط المفاهيم وتوصيلها للعامة. ويتجلى ذلك فى محاضراته الثقافية فى ليالى رمضان بالحسين.

أتذكر أمسياتنا فى سنواته الأخيرة ... فكان يحلو له أن يتذكر سنوات دراسته فى مدرسة الفنون والصنايع العليا وكفاحه مع زملائه ضد الملك فقد قام والدى بوضع بطانية بدلاً من علم مصر وخطب فى زملائه قائلاً إن الشعب المصرى فى حاجة إلى بطاطين أكثر من حاجته إلى زعماء سياسيين وصدر قرار من الملك بتحديد إقامته فى بلدة المطرية بالدقهلية.

طاف والدى فى قرى مصر كلها باحثًاعن كنوز مصر من التراث ولا أنسى قوله عن الفن الشعبى: «إنه مسودة الحضارة، واختار فنانين شعبيين من تلك القرى والنجوع وكان من نتاج تلك الفترة أوبريت «ياليل ياعين»، أول أوبرت شعبى مصرى على الأوبرا المصرية.. كما كتب فيلم سيد درويش وللتلفزيون مسلسل« خيال المآتة»، ورقص ودماء.. رحمه الله.

عبد الرحمن الخميسى:

- القديس الذى مات فى صقيع موسكو!

- اكتشف شكوكو وفؤاد المهندس وسعاد حسنى وعاش لحبها..!

- خدع يوسف إدريس وعرضه للضرب لأجل كامل الشناوى!

□ □ □

كان رئيس مصر الراحل محمد أنور السادات يقف أمام كاميرات العالم خطيبًا مهاجمًا عبد الرحمن الخميسى واصفًا إياه بالشيخ الخرفان الذى يعيش فى موسكو وقال: «تصوروا ... حتى الرجل المخرف ده اللى اسمه الخميسى بيشتمنى..» وقتها كان عبد الرحمن الخميسى قد ترك كل شيء..

الوطن الذى ذاب فى ترابه عشقًا والمرأة المصرية التى رسمت على جسده ندوب حُبٍّ لا تنسى وعانق الجليد فى روسيا... عاش ما يزيد على خمسة عشر عامًا... هناك وهو يجهل اللغة الروسية حتى تعلمها مؤخرًا ورغم أنه كون صداقات فى روسيا بدءًا من خروشوف وحتى ماسح الأحذية الذى يقف بجوار فندق لينين، بل وحصل على وسام لينين للسلام وذلك تقديرًا لدوره كواحد من أبرز المناضلين فى العالم الثالث، وأقيمت له احتفالية كبيرة فى موسكو بل وترجمت أعماله إلى الروسية إلا أنه كان لديه حنين جارف لأن يأتى إلى مصر بشرط ألا يزورها فى تابوت وقد حدث... وهو يشبه الشاعر العراقى الكبير أحمد صادق النجفى الذى شردته المنافى ولما عاد إلى بغداد عاد أعمى فقال يا ويحى على بغداد ترانى ولا أراها.

ولكن كثيرين من أبناء جيلى يختصرون عبد الرحمن الخميسى بأنه مكتشف سعاد حسنى وهو المبدع فى شتى المجالات فى الإذاعة له القصة الشهيرة التى حولها إلى فيلم بعد ذلك حسن ونعيمة واكتشف محمود شكوكو وفؤاد المهندس وهو شاعر كبير ينتمى إلى المدرسة الرومانسية وأصدر دواوين «أشواق إنسان» و« دموع ونيران» وكتب عدة مجموعات قصصية منها «صيحات الشعب» و«قمصان الدم»، و« لن تموت» و« رياح النيران» و« دماء لاتجف»، وله مسرحيات عديدة «البهلوان المدهش أحمد كشكش»... وأنجب عددا من الأولاد والبنات يتوه فى أسمائهم (١٣ولدا وبنتا).

وعبد الرحمن الخميسى الذى ملأت شهرته الآفاق وعاش مع جيل العباقرة هو ساخر كبير لو كتب مذكراته لعشنا معه زمنًا من الروعة والإبداع... فقد عاش طفولة

عانى فيها قسوة مثل قسوة مكسيم جوركى من جده... والد أمه التى تركته ورحلت دون أن يعرف طريقها،، وكذلك الخميسى فقد كانت أمه من مدينة بورسعيد ووالده قرويًا فقيرًا، وقد وصف الخميسى الفرق بينهما بقوله« كان والدى قرويًا بسيطًا يعبر عن أفكاره، وعواطفه الريفية بأسلوب خشن، كانت هى تمثل المدينة الساحلية المصقولة المضاءة بالكهرباء، وكان هو يمثل الحقل غير المهذبة حواشيه، ولكنه يفوح برائحة النمو، ويشرب أضواء الشمس، ويتدثر برداء الفضاء وعتمته!، ولم يكن من المستطاع أن يعيش النقيضان تحت سقف واحد، فتم بينهما الانفصال، وضيمانى وأنا طفل صغير!!، وهكذا عشت سنوات طفولتى الأولى متنقلاً بين بورسعيد والسويس أرعى والدتى فى وحدتها كأنى رجلها، وما كدت أبلغ السادسة حتى اختطفنى فى ليلة رمضانية من أحد شوارع بورسعيد شيخ معمم، كمم فمى حين أردت أن أصيح، ولفنى بعباءة سوداء، وقال لى إنه والدى، ولم أكن قد رأيته من قبل! وحملنى ليلاً إلى مركب فى بحيرة المنزلة، ولقيت نفسى فى الصباح فى أحضان قرية منية النصر دكرنس بالدقهلية، ومنذ اللحظات الأولى أدركت الفرق الشاسع بين بورسعيد الجميلة التى تصل بيوتها مواسير المياه النقية وبؤس الريف بحواريه وأزقته المترية الموحلة، والمضاء بمصابيح الجاز أو بشعل من فتيل قماش فى علب من الصفيح، ويشرب أهله قواقع البلهارسيا من مياه الترع، وقد حاول أبى وزوجته أن ينسيانى والدتى، لكنهما لم ينجحا فى ذلك!

أرسلنى والدى إلى مدرسة ابتدائية فى قرية الزرقا واستأجر هناك غرفة صغيرة لأقيم فيها، ومن ثم خلوت إلى نفس وأنا فى السابعة تقريبًا وكنت أطوف على شواطئ النيل فى كل مساء، وأحلم بوجه أمى وحنانها المفقود وأغنى أى كلام يعبر عن حنينى ووحدتى وأكتشف أن دموعى تسيل على وجنتى!

كان تفوقى فى الدراسة ينسينى إلى حد كبير تلك المأساة التى يعيشها قلبى، ولكن المأساة حين أنفرد بنفسى وأخلو إلى حجرتى كانت ما تلبث أن تستيقظ كالوحوش المفترسة وتنشب مخالبها فى لحم قلبى!

كنت أعيش وحدى فى غرفتى الصغيرة بالزرقاء حصيرة ومرتبة صغيرة وغطاء ومصباح غازى ووابور سبرتو وسلة مليئة بالخبز، وبعض أحقاق معبأة بالجبن والحلوى،

وكان أبى يعطينى كل أسبوع عشرة قروش كى أنفقها فيما أريد، وكانت الطعمية فاكهة بالنسبة لى، فكنت أشترى منها فى كل وجبة غذاء بثلاثة مليمات..

كنت أستعيد منزل أمى فى بورسعيد وأسترجع صور تلك الأيام، وهى تقدم لى الطعام، وهى تدثرنى فى الليل بالغطاء مخافة أن يصيبنى البرد، وهى تبتسم فى وجهى فرحًا بوجودى، وهى تسهر إلى جوارى إذا ألم بى مرض، وهى تخاف أن يصيبنى مكروه فى الشارع خلال اللعب، وهى تحفزنى إلى تعلم القراءة والكتابة، وهى تمنينى بمستقبل عظيم، وهى تسرد لى الحكايات والأساطير حتى أستغرق فى النوم.

درس فى مدرسة المنصورة الثانوية ثم انتقل إلى مدرسة القبة الثانوية بالقاهرة وذلك عام ١٩٣٨ ... وفى هذه المرحلة ولد الشعر من رحم الأنين والغربة وإفتقاد الأم، وكتب قصيدته الشهيرة «ماذا تريد الزعزع النكباء»، وكان عمره ثمانية عشر عامًا.. وعاش حياة بائسة قبل اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢ فقام بتأليف أغانٍ وباعها لشاعر مشهور، بل واختبأ عنده عدة شهور لأن قلم البوليس السياسى كان يطارده لانتمائه إلى الوطنيين التقدميين، وكتب مقابل هذه الشهور العشرات من الأغانى التى توقع باسم هذا الشاعر الذى طبعها فى ديوان بل وأهدى أول نسخة للخميسى وطلب رأيه فى هذا الشعر ...!

وبدأ الخميسى يرسل القصائد للمجلات وتنشرها له، لكنه كان يريد نقودا يعيش منها فعمل كمسارى فى شركة أتوبيس سانتكروفت ومأ بسرعة فعمل فى محل بقالة ثم فى جوقة مسرحية صغيرة ولم يجد نفسه فى هذه الأعمال فراح يجلس على المقاهى التى يجلس فيها الفنانون فى باب الخلق وأخذ فى تأليف الأغانى وبيعها لشعراء ولمطربين وللمنولوجستات ولغيرهم ، وتعرف فى هذه الفترة على أحمد رامى وكان يعمل رئيسًا لقسم الفهارس الأجنبية فى دار الكتب وكان يعيره دواوين الشعر والروايات .. كما تعرف إلى الإذاعى محمد فتحى الذى جعل الخميسى يلقى أشعاره فى الإذاعة ودربه على كتابة التمثيليات الإذاعية وإخراجها.

كما كان دائم الجلوس على مقهى الألاتية ويروى يوسف الشريف فى كتابه «القديس الصعلوك» ، حكى لنا الخميسى أن الست أنس أشهر عالمة فى زمانها كانت قد وصلت

إلى مقهى الآلاتية فى عربة حنطور تطلب عازفًا ضريرًا، إذ كان عليها فى تلك الليلة إحياء فرح كبير لدى عائلة محافظة والحضور مقصور على السيدات وكل العازفين وأفراد فرقتها لامفر من أن يكونوا جميعًا حسب الطلب من الجنس اللطيف.

لكن سماسرة قهوة الآلاتية اعتذروا عن الاستجابة لهذا الطلب... وذلك لأن كل العوادين العميان كانوا متعاقدين على إحياء أفراح فى تلك الليلة مع غيرها من عوالم شارع محمد على ، وكان الخميسى يستمع إلى الحديث، فإذا به ينبرى إلى اقتراح عملى للمشكلة بأن تستعيض الست أنس عن العواد الضرير بعواد مبصر... يضع على عينيه نظارة سوداء ويصطنع العمى الحيسى!

وهللت الست أنس للفكرة.. وألقت إلى الخميسى بنص فرنك بقشيشًا... وكانت هذه أول سبوبة من الرزق تدخل جيب الخميسى .

وفى الصباح كان لاحديث فى قهوة الآلاتية إلا عن هذا العازف الضرير الذى خرج عن دوره وطوره، وبدأ يغازل إحدى المدعوات بكلمات مكشوفة موجهة إليها وكانت آية فى الجمال والدلال والأناقة، وعندئذ اكتشفت من دقة وصفه لها أنه مبصر، وعندئذ فقعت بالصوت الحيانى قائلة: إلحقوا ياستات غطوا وشكم... الراجل ده مفتح مش أعمى! وكانت فضيحة بجلاجل، انهالت بعدها كعوب الأحذية الحريمى فوق رأس الخميسى أولاً، فما أن تم طرده من الفرح حتى نال قسطًا وافرًا من لكمات الجنس الخشن.

عمل الخميسى بعد ذلك فى فرقة المسيرى المسرحية ثم عدة فرق أخرى ألف بعدها فرقة لنفسه.. ويروى الناقد فؤاد دوارة عن بدايات الخميسى الأديب فيقول: على الرغم من الظروف التعيسة والقاسية التى أحاطت بطفولة عبد الرحمن الخميسى إلا أن باكورة إنتاجه الأدبى كانت علامة مبكرة على موهبته الواعدة وإبداعاته المتميزة ومنذ السادسة عشرة من عمره، فمن حيث الشكل اتسم شعره بالشفافية، والرومانسية، وأسلوبه الشيق البسيط فى الكتابة النثرية والقص الصادق المؤثر، ومن حيث المضمون كان أقرب إلى الواقعية خاصة فى معالجته لمأساته ومأساة الضعفاء والمحرومين، وفى قوة تصويره للعقبات التى اعترضت طريقه، والصعاب العاتية التى واجهته ، وبالرغم

من ذلك فقد نجح بقوة إرادته وحدها فى تجاوزها، مما أسهم فى تكوين تلك الظاهرة الإنسانية الأدبية والفنية التى تجسدت ونضجت فى مرحلة الشباب والرجولة».

فى عام ١٩٤٠ التقى الخميسى بخليل مطران الذى رحب بشعر الخميسى وشجعه، واهتم به ورعاه وساعده فى نشر شعره فى مجلات الثقافة والرسالة والمقتطف، كما تعرف إلى سلامة موسى عام ١٩٤١ الذى تعلم منه الكثير وساهم فى حقل شعره... كما تعرف إلى إبراهيم ناجى الذى أعطاه الكثير من ملامح مدرسته الشعرية.

وتعرف إلى صديقه الحميم كامل الشناوى عام ١٩٤٠، وهو الذى أسماه القديس لأن الخميسى أعطى كل راتبه لأرملة أحد زملائه الذى كان يعمل معه فى جريدة الجمهورية، ويقال:إن صديقه المحامى محمد على ماهر هو الذى أطلق عليه هذا اللقب لأنه دفع كل ما كان فى جيبه لصاحب حنطور رقبة حصانه نحيفه ويحتاج للأكل .

فى ذلك الوقت أصبح عبد الرحمن الخميسى يساوى الكثير وشارك فى الخلايا السرية ولعب دورا وطنيا واضحا ضد الاستعمار وكانت قضية الديمقراطية هى شغله الشاغل حتى إنه اعتقل بسببها فيما بعد فى ١٥ مارس ١٩٥٣ ولم يخرج من المعتقل إلا فى ديسمبر ١٩٥٦، ورغم ذلك كتب فى ذكرى رحيل ناصر« نبضات قلبى تسمعها أذناى كدقات مطرقة القدر... ملايين الأفئدة تئن فى الميادين والشوارع خلف نعش الشهيد الراحل جمال عبد الناصر ... يا شهيدنا الطاهر لقد أتيت إلى جيلنا وفى قلبك النبى قسم من إرادة الحياة، أن تعيش لتخليص الحياة من الألم، والقهر والظلم الاجتماعى ، والاستعباد، وعشت تعطى أيامك ولياليك الساهرة، لتحقق ذلك القسم العظيم، أنت يا قسم المواجع آلاف السنين على جباه المرهقين والمعذبين ...»

لكن الخميسى كانت له مشاكله مع ثورة يوليو وضباطها حيث رفض طلب شعراوى جمعة وزير الداخلية وأمين عام التنظيم الطليعى لانضمامه للتنظيم السرى مبررًا رفضه بأنه لا يمسك لسانه وهذا تنظيم سرى وسيحكى ما يحدث فيه ويتم اعتقاله حسب رواية صلاح عيسى.

ويروى أحمد أبو الفتح هذه القصة ذات المفارقة العجيبة« أذكر أن الخميسى كان فى الشهور الأولى من الحركة سريع الحساسية مما سيمل بمصر على يد

الديكتاتورية.. وكان ينشر كلمته يوميًا فى جريدة المصرى ثلاثة من ضباط الجيش هددوا الخميسى بأشد العقوبات إذا وجه أى نقد للحركة، وفى نفس اليوم كتب الخميسى كلمته وكلها مدح فى حركة الجيش، ثم كتب فى آخر سطر يا مهلبية ... يا! الأمر الذى يقطع بأنه لم يكن يمدح بل كان يسخر من هذه الحركة، وفى الليل حضر الضباط الثلاثة والشر فى أعينهم وصرخوا فى وجه الخميسى بالشتائم والتهديدات... وبكل قدرة الخميسى على التمثيل أبدى استغرابه لتصرف الضباط وقال: لقد مدحت حركة الجيش مدحًا كاملاً... ماذا تريدون بعد ذلك ؟

فقال له الضباط : هل هذا مدح أم مسخرة؟ ماذا تقصد بيا مهلبية ..يا؟

وأبدى الخميسى المزيد من الدهشة وقال: إيه حكاية يا مهلبية ..يا التى تتحدثون عنها هذا؟ فألقى أحد الضباط الجريدة فى وجهه قائلاً: لماذا اختتمت كلمتك بهذه الجملة الساخرة؟

وقال الخميسى: أنا لم أكتب هذه العبارة؟ ولابد أن يكون قد تم وضعها بطريق الخطأ ؟ إذ كان مكانها برنامج الراديو الذى تنشره الجريدة كل يوم، وفى هذا البرنامج كانت أغنية لمحمود شكوكو باسم يا مهلبية ... يا!

وهكذا أنقذ الخميسى نفسه من براثن الانتقام..!

وكان الخميسى وقتها نجمًا شهيرًا فقد كان قبل عودته يعمل فى إذاعة الشرق الأدنى، وبعد خروجه من المعتقل اتجه إلى السينما والمسرح بجوار الصحافة فقام بإخراج وكتابة أربعة أفلام هى الجزاء عام ١٩٦٥ وعائلات محترمة ٦٨ والحب والثمن عام ١٩٧٠ وزهرة البنفسج عام ١٩٧٢ ولعب دور الشيخ يوسف فى فيلم الأرض عام ١٩٦٩ .

ويروى يوسف الشريف أن الخميسى تعرف على أم كلثوم عبر صديقها كامل الشناوى، فكان اللقاء بينهما حافلاً بالضحكات والسخريات واستدعاء عيون الشعر القديم والحديث، وبينما كان الحديث سجالاً جاء ذكر سيدة مجتمع معروفة مات لها أربعة رجال تزوجتهم تباعًا، عندئذ حبكت النكتة مع أم كلثوم وقالت: الله ... هى دى إللى بيقولوا عليها كل من عليها فان؟!

يروى الشريف أيضًا أن الخميسى كان يحب الدكتور يوسف إدريس حبًا جمًا، فهو الذى اكتشف موهبته الأدبية مبكرًا وهو طالب بكلية الطب، ودافع عن نشر قصصه فى صحيفة المصرى تباعًا، وتنبأ بسطوع نجمه مرارًا فى عموده اليومى من الأعماق، إلا أنه كان شديد الاستياء من هجومه الساخر شفاهة وكتابة ضد صديقه الشاعر كامل الشناوى رئيس تحرير الجمهورية، وكان الخميسى ينجح فى المصالحة بينهما، لكن سرعان ما يعود يوسف إدريس إلى الهجوم، حتى وقع بينهما ما دفع كامل الشناوى إلى كتابة قصيدته لا تكذبى..بل إن يوسف إدريس لم يتودع عن الاعتراف شخصيًا بأنه المعنى بالخيانة، ولهذا قرر الخميسى تلقينه درسًا موجعًا..

لقت الخميسى ممثلة ناشئة كانت تعمل معه فى فيلم عائلات محترمة كيف تقنع يوسف إدريس عبر أسلاك التليفون بأنها قرأت كل إبداعاته القصصية، وأنها من أشد المعجبات بفنه، وأنها فتاة عربية لها محاولات فى كتابة القصة، لكنها لاتجرؤ على نشرها، أولاً لأنها أديبة مغمورة وثانيًا لأن والدها أمير عربى..

المهم أن المكالمة التليفونية بينهما انتهت بموعد للقاء فى جناحها بفندق ناسيونال الكائن آنذاك فى شارع سليمان باشا، لكى تطلعه على إبداعاتها...

فى الموعد المحدد كان الخميسى ومحمد عودة يقفان خلف الواجهة الزجاجية لمحل أحذية مقابل للفندق يملكه أحد أقارب الخميسى، حين وصل يوسف إدريس بسيارته الفولكس ودخل الفندق وهو يرتدى بدلة صيفى شاركسكين بيضاء وفى يده باقة من الورود الحمراء.. ومرت ربع ساعة لا أكثر خرج بعدها يوسف إدريس مشيعًا بكلمات عمال الفندق وهو يصيح :أنا الدكتور يوسف إدريس.. والله لأوريكم يا كلاب.. ثم ركب سيارته واختفى .. لكن الخميسى نفسه وهو صاحب المقلب دهش لما حدث... ودخل إلى الفندق يتحرى الأمر، فنزلت عليه الإجابة كالصاعقة، حين قال له موظف الاستعلامات، يا سيدى ده أفندى طويل وعريض وبيقول إنه دكتور لاقيناه يتسحب فى ممرات الفندق... مشينا وراه لغاية ما وقف قدام الغرفة رقم ١١٣ وراح مخبط الباب... تعرف ساكن فيها مين؟

سائح فرنسى شاذ موسخ سمعة الفندق... يبقى يستاهل اللى جرى له ولا لأ؟، فقال الخميسى: يستاهل ونص!

ويضيف أيضًا: فى صحيفة الجمهورية عرف عن أحد كتابها الأدباء نرجسيته المفرطة، وإحساسه الكاذب بتفوقه على أقرانه ممن كان يرى أنهم حازوا الشهرة والمناصب الرفيعة دون وجه حق، فكان ينفس عن إحباطاته ألوانًا وأشكالاً من الغيرة والحسد والنميمة، ولم يكن صعبًا أن يدبر له الخميسى مقلبًا محبوكًا، وبينما كان هذا الكاتب جالسًا فى صالة التحرير، دخل عليه الموظف المسئول عن استقبال الأخبار والتقارير التى تبثها وكالات الأنباء على جهاز التيكرز وهو يصيح بأعلى صوته : مبروك يا أستاذ (...) جائزة ملكة بريطانيا، ثم قدم له برقية وردت من وكالة رويتر عبر مكتبها فى لندن، تتضمن قرارًا من قصر باكنجهام بمنحه جائزة ملكة بريطانيا وقدرها مائة ألف جنيه إسترلينى، بعدأن وقع عليه إختيار لجنة التحكيم كأفضل أديب غير بريطانى لعام ١٩٦٩ .

وكاد صاحبنا أن يطير من الفرح وهو يعرض الخبر الذى نقله جهاز التيكرز من لندن فلما جاء الدور على الخميسى قرأ شريط التيكرز بعناية، ثم نهض ينهال عليه بالأحضان والقبلات مهنئًا وقال: والله صبرت ونلت... تعرف أنك ثانى أديب بعد آرثر ميللر يفوز بجائزة ملكة بريطانيا، وهنا بدأ الشك يتسلل إلى نفسه وظن أنه ضحية خديعة فقال: ولكنى لم أتقدم لهذه الجائزة فكيف أفوز بها؟ لكن الخميسى طمأنه إلى أن الفوز بهذه الجائزة يتم عبر الاختيار وليس عبر المسابقة... وفى تلك اللحظة دخل موظف التيكرز يقدم نفس الخبر نقلاً عن وكالة أنباء الشرق الأوسط، وهنا اطمأن صاحبنا وأيقن بصحة الخبر لكنه عاد يتساءل: يا ترى ح استلم الجائزة من مصر ولا فى لندن وازاى؟، قال له الخميسى: يا أخى اصبر شوية على رزقك... ضرورى الإنجليز عاملين حسابهم من الناحية دى وحايبعتوا لك جوابا بالمفيد !

ولم تمض دقائق حتى كان الفصل الثانى من مقلب الخميسى، فكما دبر تزوير برقيات وكالات الأنباء كما لو أنها وصلت على التيكرز، دق تليفون صالة التحرير وكان على الخط المستشار الثقافى للسفارة البريطانية فى القاهرة يطلب الأديب الفايز بجائزة ملكة بريطانيا منه بلغة إنجلترية يطلب تواجده صباح الغد بمكتبه ومعه جواز سفره لمنحه تأشيرة دخول بريطانيا وتذكرة سفر إلى لندن... ولم يغمض للكاتب الأديب

جفن حتى الصباح من توالى الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا للتهنئة وارتشاف أكواب الشربات!

فى العاشرة من صباح اليوم التالى كان صاحبنا يقدم نفسه إلى موظف الاستعلامات بالسفارة البريطانية ويطلب منه التنبيه على المستشار الثقافى بوصوله فى الموعد... ولما التقى به المستشار فى مكتبه أنكر أن تكون هناك جائزة باسم ملكة بريطانيا، وأكد له أنه لم يطلبه عبر التليفون فكيف يحدد له بالتالى موعدًا، فلما عرض عليه برقيات وكالات الأنباء، أجرى المستشار اتصالا تليفونيًا بوكالة رويتر التى كذبت الخبر جملة وتفصيلاً.وقفل صاحبنا راجعًا إلى عمله بصحيفة الجمهورية وقد جنّ جنونه، حيث وجد رسالة على مكتبه تحمل توقيع عبد الرحمن الخميسى خيرها فى غيرها.. انتظر جائزة الملكة حتشبسوت!

وقد عاش الخميسى قصص حب لا أول لها ولا آخر منذ أحب فتاة فى المنصورة وكان يراها كل يوم فى الشباك ويشاور لها وتشاور له حتى اكتشف فى النهاية أنها «قلة» ... كما أحب شجرة على شاطئ النيل وكان يزورها دومًا حتى أن جليل البندارى كتب أن الخميسى شاعر الحب والفقر والشجرة مرورًا بسعاد حسنى التى اكتشفها والتى سنروى قصة اكتشافها بعد قليل وزوجاته الذين أنجب منهم ١٣ ولدًا وبنتاً.. ومنهن فاتن الشوباشى حتى حبيبته البيروتية أثناء إقامته فى بيروت وحبيباته فى العراق وليست حبيبة واحدة حتى أن طارق عزيز استدعاه، حسب رواية يوسف الشريف فى كتابه «القديس الصعلوك» ، وقال له: أنت خوش راجل... وصدام بيحبك.. لكن آخر صراحة..نحن نسمع كثيرًا عن علاقاتك النسائية، والعراق ليست مصر ... فقال له الخميسى: تسمعون ماذا؟ قال: يعنى أنك تحب النساء ؟ فقهه الخميسى مندهشًا وقال : والراجل يحب إيه؟ حمير؟ ما هو لازم يحب نساء!

وضحك طارق عزيز وعرف أن الرسالة وصلت للخميسى الذى قرر الزواج من مذيعة بحرانية شابة -حياة الخطيب- واشترط عليها عدم الإنجاب لأن لديه ١٣ ولدا وبنتا... وفى موسكو أحب فتاة روسية عاش معها حبا وشيخوخة!

أما عن علاقته بسعاد حسنى فقد تناولتها العديد من الأفلام والمسلسلات

التلفزيونية مثل مسلسل السندريلا عام ٢٠٠٦ والأفضل أن نسمعها من الخميسى نفسه« كانت سعاد حين دخلت البيت واقفة تغسل ملابسها، وتدعكها دعكًا بيديها... وحين أفكر مسترجعًا قصة ظهور سعاد حسنى على شاشة السينما العربية، تتوافد متزاحمة جملة من التساؤلات إلى ذهنى: (. إذا لم يمنح أحدنا الآخر؟ فكيف يمكن أن يتعلم الصغير من الكبير أن يمشى؟ (. هل حقا تلعب المصادفة دوراً مهماً فى حياة الإنسان؟ إن المرء بالحتم لا يخلق بإرادته هو؟ إنما الصدفة التى تقع فى حياته فيقتنصها وتتبدل حياته؟ أو لا يهتم بها ؟ فتمر به دون أن تحدث فى حيانه أثراً ملحوظاً، ذلك لأن مقوماتها ترد إليه من خارج نفسه؟ ومن خارج حياته الشخصية.

هل لابد من ربط الموهبة بالتعليم وبالبيئة الثقافية؟ وهل هناك علاقة بين الموهبة والعلم؟ وما هى تلك العلاقة؟ ما هو حجمها وأثرها؟ ولو أنه من السائد ضرورة انصهار الموهبة فى بوتقة الثقافة كى تصبح سبيكة من ذهب القدرة.

هل كان من الأفضل لسعاد حسنى ذاتها؟ من الناحية الشخصية، لوظلت فى دائرة الظل تعيش، أم كان الأحسن لها أن تخرج من الظل كما حدث، وأن تحيا كما هى اليوم تحت الأضواء.. نجمة ساطعة؟

هل ترانى أسأت إلى سعاد حين فتحت أمامها باب النجوم أم ترى أنى أحسنت؟

هذه وغيرها من التساؤلات المتلاحقة تطرح نفسها على عقلى، حين أفكر فى حكاية سعاد حسنى النجمة الأولى للسينما العربية اليوم .

وأجاب الخميسى على كل هذه التساؤلات إن سعاد تستحق ما فعله لأجلها وقدمها فى أول بطولة فى فيلم حسن ونعيمة أمام محرم فؤاد الوجه الجديد أيضًا، وكان قد عرض الفكرة على فاتن حمامة فطلبت قراءة السيناريو أولاً حتى توافق على الفيلم وهنا احتج الخميسى واعتقد إن فاتن تشكك فى قدراته، وكذلك عبد الحليم حافظ فقرر إسناد البطولة لسعاد حسنى بعد أن جعل إبراهيم سعفان يدربها على التمثيل وأقنع هنرى بركات ووافق محمد عبد الوهاب منتج الفيلم... وهكذا الخميسى دائمًا ما ينفذ يريده وظل هكذا حتى رحيله فى صقيع موسكو عام ١٩٨٧ .

عباس الأسواني الذي قال له
حافظ إبراهيم: كنت فاكرك امرأة
فرد: كنت فاكرك راجل!!
ابنه علاء الأسواني:
- مقامات والدي أجمل وأقوى فنا من
مقامات بيرم التونسي.
- حصل سمير رجب على ٧٠ ألف جنيه
ووالدي على ٤ آلاف جنيه من هيئة
الكتاب!!
- سيد مكاوي حول جاردن سيتي إلى مسرح

□ □ □

عباس الأسوانى الساخر الذى اختار الحياة وبهجتها وعاشها على المقاهى وفى المجالس بين الناس متكلمًا لا شيء يعنيه قدر الكلام ويحبه مثلما يحب الأكل والشراب، حتى إنه قال فى بداية مقاماته الأسوانية «حدثنا عباس بن الأسوانى... الذى وليس له فى حب الكلام ثان.. قال لا فُضَّ فوه.. ومات حاسدوه» ثم يروى مقاماته التى تعد آخر ما كتب فى هذا الفن .

والأسوانى ليس كاتبًا ساخرًا فحسب ولكنه شاعر وقاص وروائى وكاتب مسرح، وقد ولد فى قرية دراو محافظة أسوان يوم الخميس فى ٢٢ يناير ١٩٢٥ لكنه جاء مع والده إلى القاهرة حيث حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٤ من مدرسة المنيرة الابتدائية.. والتحق كعديد من المبدعين بالمدرسة الخديوية ثم حصل على ليسانس الحقوق فى مايو عام ١٩٤٩ من جامعة القاهرة وكانت عائشة راتب فى دفعته... وقد اشتغل هذ القلم المبدع محاميًا ثم انتقل إلى الصحافة من خلال العمل بجريدة الجمهورية عام ١٩٥٣ كرئيس للقسم القضائى، ثم قرر التفرغ للمحاماة وابتعد عن الحياة السياسية والأدبية والصحفية حتى عام ١٩٦٢، ولا نعرف لذلك سببًا.. وقد يروى لنا السبب ابنه علاء الأسوانى بعد قليل ...

لكن الصحافة لا تتركه فقد عمل عام ١٩٦٢ فى مجلة « الكاتب»، كاتبًا قصصيًا، وبدأ يتعاون مع الإذاعة، فعمل برنامجًا عنوانه« فى ذكرى بيرم التونسى» الذى أذيع فى يناير ١٩٦٢ وحقق نجاحا لابأس به.

ولكن المجد الحقيى الذى حققه عباس الأسوانى من الإذاعة حقق له شهرة واسعة كان من خلال كتابته لحلقات« موهوب وسلامة»، و« المقامات الإذاعية» و « ذكية الغبية» و « مُصلح زمانه».. وكتب عدة مقالات حققت صدى كبيرا فى جريدة التعاون حين عمل مستشارًا قانونيًا لها عامم ١٩٦٤ وظل فيها حتى وفاته، وكان يعمل أيضًا مستشارًا قانونيًا لنقابة الصحفيين ولمجلة روز اليوسف.

ورغم أن الأسواني حقق مجدًا وحلق في سماوات عُلا إلا أن الدولة لم تمنحه إلا جائزتها التشجيعية في ٢٧ فبراير ١٩٧٥ عن روايته «الأسوار العالية» وكان قد كتبها قبل الحصول على الجائزة بعام واحد.

وتظل « المقامات الأسوانية» للعباس الأسواني تحفة التحف في السخرية، رغم أن المقامات ظهرت بشكلها الحالي على يد بديع الزمان الهمزاني (٣٥٨-٣٩٨هـ) ومقاماته واحدة وخمسون مقامة، وكان بطلها أبو الفتح السكندري وكان يرويها عيسى بن هشام، إذ يجب أن يكون للمقامة راوية وبطل، ثم جاءت مقامات الحريري(٤٤٦-٥١٦هـ) ليحدث إنقلابًا في المقامات ويلتف حوله الناس لدرجة أن الدكتور طه حسين خشن على الفصحى من عامية بيرم.

ومقامات بيرم تختلف اختلاف تاماً عن مقامات سواه أو من سبقوه، ورواته في المقامات متعددون وليسوا واحدا فتجد لديه زعرب بن صيان، وعنجر بن خليجان، ويعزق بن سعفان، وأكتع بن عصران، والأبلع بن زعربان، ويرحيل التونسي تنتهي المقامات ولم يعد أحد يقبل عليها لسرعة العصر وتغيره وتطور أدواته حتى جاء عباس الأسواني، وكان الأسواني في مقاماته هو الراوية، وقد ترك لها الشكل التقليدي لكنه أبيها بإسلوب عصري مواكب للأحداث التي يمر بها المجتمع المصري، وقد بدأها بأول مقامة وهي «سارتر يرتدي الجلابية .. و يتكلم العربية»، حيث زار سارتر مصر وكان يأمل الأسواني لقياه لكنه لم يستطع فلقيه في الخيال(.. فلما وصل- يقصد سارتر- حصلت هرجلة.. وعلت جلجلة.. وكدت أظفر بالغرض المطلوب.. وأحقق الأمل المحبوب .. فحاولت منه الاقتراب.. ولكن أحد الكتاب.. زقني في صدري .. لأنه يجهل قدري.. فخشيت على نفسي من الإيذاء.. وآثرت التراجع والانزواء.. وعدت فورًا إلى البيت .. فاندهشوا لأني أتيت وإلى السرير أويت.. لأني عادة لا أنام.. كما يعرف الأنام.. إلاساعتين.. وفي حالتين .. إذا خلا جيبي من الفلوس.. أو غاظني أحد التيوس».. وحلم بأنه التقى سارتر وتحدث معه عن أدب طه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس «وهنا دخلت سيمون دي بوفوار.. كأنها شمس النهار.. فوقفتُ زنهار.. وضربت لها سلام.. وقلت اسمعي يا مدام:

قفى يا أخت يوشع خبرينا .·. وعن نبأ الزيارة أصدقينا
جرينا خلفكم فى كل ناد .·. فحاشتنا كتوف المعجبينا
ورحنا نطلب اللقيا كأنا .·. لإحسان الخلائق سائلينا
أتهمل دعوة الدكتور طه .·. وتدعى شلة المتمنجهينا
ويزعجنا أديب قام يهذى .·. ويرطن فى لسان الجاهلينا
أسيمون لو أنا قد دعينا .·. لفقنا معشر المتكلمينا!

ويقصد بأخت يوشع الشمس. وظنت سيمون أن كلامى تحية.. فقالت وهى مستحية .. بوانسوار.. ولكنى يا ستار.. قبل أن أجيب والله يا قوم.. أفقت فجأة من النوم.. فانتهى الحديث المشبع الذكى الممتع وهكذا تحقق لى فى هذا الحلم.. ما استحال على فى العلم.. فقابلت على انفراد الفيلسوف.. دون أن أجرى وأطوف.. فتعجب يا أخى وشوف.. ».

وفى مقامة الأستاذ حصاوى حيث يأتى بقصيدة من أعمدة الشعر العربى ثم يكتب على منوالها بطريقته.

ألا هبى بصحنك.. فأصبحينا .·. وعن نعم التفرغ خبرينا
فإن العام يوشك أن يولى .·. ونصبح كالولايا الضائعينا
قضينا أشهرًا فى خير حال .·. توادرى فيه وجه الدائنينا
وكنا نشرب الكونياك ظهرًا، وليلاً .·. بعد طول الهجص.. كينا؟
ونأكل ما نشاء بغير حرص .·. كأنا بالشراهة قد بلينا
فلوس.. نستلمها.. كل شهر .·. ونمضى للوزارة شاعرينا

وهناك مقامة كأنها تنطبق بالفعل على مطربى هذه الأيام عنوانها« كيف تصبح مغنى مشهور فى أقل من ثلاثة شهور»، وهى على وزن «كيف تتعلم الإنجليزية فى أقل من ٧ أيام، حيث وصفه أمثاله فى نهاية المقامة وقال:

دع عنك لومى فإن الفن همباك . ° . وعشن زكياً... يصلك المال بالباكو
إنى لأعلم حقًا جدب موهبتى . ° . وأن صوتى لا يصلحه سباك
كذا غنائى ليس الناس تطلبه . ° . لكنى أغنى سوا ضجوا.. سوا كاكو
فإن تلحمتى فى الفن تنفعنى . ° . وسحر مالى على النقاد فتاك
إذا دعوت لغيفًا من أكابرهم . ° . تقدم اللحم... والأطيار.. أسماك
ومن أراد شرابًا كى يساعده . ° . على الطعام فملء البيت كونياك
حتى إذا فرقوا من نسف مائدتى . ° . وضاع منها ملاعيق وأشواك
أقسمت بالله ألا بد تتسجموا . ° . ودار بالصنف نرجيل وتمباك
ثم انثنيت على مال لأعطيهم . ° . فليس يجدر بالفنان إمساك
فكيف أخشى على نفسى ومركزها . ° . ولى فلوس .. ونقاد .. وأملاك
أصبحت وحدى فى الميدان.. لا أمل . ° . بغير صوتى أن تهتز أسلاك

وللأسوانى مقدرة كبيرة على اختيار المناوين، فهو يعد ملكًا من ملوك اختيار العنوان فانظر إلى بعض عناوين المقامات الأسوانية:«قانون الأحوال الشخصية كما تريده نظلة وبهية»، و«الحب عند الفجر.. بين الأنثى والذكر!»، و«الفولة والكيال فى رأى عبد العال»، و«محاكمة ناقد مغرض عن الحقيقة معرض»، و« يوم فى حياة هزازى المنافق الانتهازى»، وحتى فى عناوين كتبه: «عائد من الآخرة»، و« رجل من الأمس»،و« الضاحك الأخير».

و«عائد من الآخرة الذى صدر فى نوفمبر ١٩٧٥، وينتمى إلى فن المقامات يتخيل فيه الأسوانى أنه كان يجلس فى مقابر الإمام الشافعى يروى القصص وفجأة يخرج ميت من القبر، إذا هو عيسى بن هشام ويراه حقيقة ويستغرب كيف كذب المويلحى وقال أنه خيال ثم يأخذه إلى الدنيا ويخبره أنهم الآن فى سنة ١٩٧٠ ويقول ابن هشام للأسوانى أنه مات سنة ١٩٤٠، ويجوبان القاهرة معًا الأسوانى وابن هشام يشاهدان الأماكن ويروون الحكايات، وتحت عنوان كان يعيش فى سذاجة ويعقل دجاجة يروى

الأسوانى:«واستطاب عيسى الكلام عن الفنانين، والكتاب المشهورين! وأحوالهم العجيبة! وتصرفاتهم الغريبة! فعاد يقول، بلا أرغول:

إن الذى يثير الإنسان العادى حتى يفقد الاتزان، قد لايحوك عرقًا فى فنان!.. وما تراه أن تافهًا من شؤون ! قد يجلب إليه الجنون!..

وقد انفعل شوقى وكاد يفقد الصواب عندما شاهد أول مرة عبد الوهاب!.. إذ آلمه أن يسهر على المسرح غلام نحيل العود!.. وفى يده عود!.. بينما أمثاله الصغار فى هذه الساعة ينامون فى سلام!.. تداعبهم الأحلام!.. وتفاقم فى شوقى هذا الإحساس! فقام من وسط الناس! واتصل بالمحافظ لاستصدار أمر مكتوب! .. لمنع الغلام الموهوب! من الصعود على المسرح تانى!.. لترديد الأغانى!.. وقد وقع هذا القرار على عبد الوهاب كمصيبة ليس لها حل!.. فكاد عقله يختل!.. وظل زمنًا لايذكر أمامه اسم شوقى حتى يرتجف ! وبكراهيته يعترف!.. ثم دارت الأيام!.. واشتد عود الغلام.. فلما رآه شوقى بيه، مال فى الحال إليه!.. أطربه تغريده!فراح يستعيده!.. وفتح له بعد ذلك الطريق.. إلى المجد العريق!.. ونسى أنه فى يوم من الأيام!.. سبب له الآلام!.. وكان شوقى يحب راحته بشكل لايخطر على بال!..»

ويظل يحلل شوقى وشعره وعلاقته بالخديوى بشكل ساخر وجذاب.

وكما ذكرنا قبل ذلك أن الكتابة الساخرة لا تولد إلا من عذابات من الحزن والآلام، ولا تأتى من خفة الدم فقط أو أن إنسانا ينهض فى الصباح ليجد نفسه ساخرًا، فيصرخ ها.. ها.. أنا بقيت كاتب ساخر».. وقبل رحيله بعام كتب الأسوانى روايته «رجل من الأمس» التى كشف فى بدايتها حزن الكاتب الساخر ومرارته حين يدخل مرحلة اكتئاب طويلة: «فراغ يسقم الروح.. وشعور بالهم يتملكنى منذ أعوام.. إننى أحيا بلا معنى وأسعى إلى لا شىء.. حتى الكتب التى كنت أدمن قراءتها لم تعد تغرينى. أصبحت أنظر إليها فى ضيق، بماذا أفادتنى؟، كانت أفيونًا خدرنى طيلة هذه السنين.. أنا اليوم فى الخمسين - رحل وعمره ٥١عامًا- من عمرى.. أشعر بوحدة فظيعة؟ لا زوجة عندى ولا أولاد.. وعندما ماتت أمى من عامين شعرت بعدها بالضياع .. الأم هى

الشجرة التى منها تفرعنا وبعد اقتلاع الجذع علام تستند الفروع؟.. المستقبل لم يعد يشغلنى على الإطلاق .. الماضى وحده يشدنى شدًا عنيفًا...

تسلينى أحيانًا مراجعة صورى الفوتوغرافية التى تمثل مراحل حياتى.. أعزها عندى صورى الفوتوغرافية التى تمثل مراحل حياتى.. أعزها عندى صورتى وأنا تلميذ صغير فى مدرسة المنيرة.. كنت واقفًا منتصب القامة.. على رأسى الطربوش.. عيناى واسعتان .. جميلتان .. تفيضان بالأمل.. كنت أول الصف.. فأين أنا الآن.. هوايتى منذ شهور السير على قدمى فى مواطن صباى.. أطوف الحوارى التى درجت فيها مبهور النفس.. أجتر الذكريات عندما اجتزت أمس بركة الفيل شممت عبير الماضى قويًا.

المنازل التى شهدت صباى لا تزال كما هى. كل ما لاحظته أنها تقف فى إعياء وأن بعض التجاعيد قد عرتها.. تمامًا مثلى .

وقد ذهبنا إلى الأديب الطبيب علاء الأسوانى الذى ورث عن أبيه الموهبة - إن كانت تورث - وحقق مجدًا أدبيًا كبيرًا وحقق شهرة من رواية واحدة« عمارة يعقوبيان» تتجاوز شهرة أبيه وعديد ممن كانوا فى زمنه.. ولكن قبل الدخول إلى عالم عمنا عباس الأسوانى من خلال ابنه.. جلست وقرأت عليه كلام أحمد بهجت .. تلك الكلمات التى لو كان عباس الأسوانى على قيد الحياة وقرأها لأثرت فيه كثيرًا.. حيث كتبها فى ٢١ يوليو ١٩٧٧ .

فى الدنيا أدباء يكتبون كلماتهم فى الهواء ، ويحبون الحديث أكثر مما يحبون الكتابة، هم أدباء كسالى وإن كانت فيهم عبقرية من لون غريب، من هؤلاء مثلاً كامل الشناوى، فقد كانت جلساته مع الأصدقاء طوال الليل مجالاً يبحر فيه السندباد داخله فى بحار الدنيا السبعة، ويعود باللآلئ والياقوت ليضعها كلمات فى الهواء تتبخر إذا جاء عليها الصباح، وتمضى إلى النسيان دون أن يسجلها أحد .. وحين يموت من هؤلاء العباقرة فى فن أدب الحديث أو حديث الأدب أحد ، لاتجد لهم كتبًا عديدة، إنما تجد كتابين أو ثلاثة كتب، أما بقية الكتب فقد وزعها الكاتب على الأصدقاء، ضن بها على الجمهور العريض وآثر أن يكون له جمهوره الصغير المنتقى ، وآثر أن يوصلها إليهم عن

طريق الكلام لا الكتابة، وقديمًا كان الأطفال يلعبون بالقروش الملكية لعبة الحظ التى تقول: «ملك ولا كتابة».. وإذا كان الأدباء هم الكتاب فإن كامل الشناوى ومدرسته هم الملوك

مات واحد من هؤلاء الملوك هذا الاسبوع، مات عباس الأسوانى عن بعض كتب قليلة وجميلة فى الأدب الفكاهى، وعشرات الكتب التى قرأها فى الهواء على أسماع الأصدقاء، ثم تبخر كل شىء وتبدد مثل دخان لفافات التبغ.

كان يحب الكلام والسهر ويعيش الحياة، وبموته أثبت أن الدنيا امرأة غادرة تهرب ممن يعشقها حقًا، ولاتعطى نفسها إلا لمن يعطيها ظهره.

أما حبه للكلام فثابت فى مقدمة كتابه« المقامات الأسوانية»، وهى مقامات يصدرها بقوله« حدثنا عباس بن الأسوانى وليس له فى حب الكلام ثانى، فقال لافض فوه، ومات حاسدوه».

كان الأسوانى من كتاب المقامات، وهى لون من ألوان الأدب الصعب، اشتهرفى عصر انحطاط اللغة، وكان الكتاب يعمدون فيه إلى السجع الدائم والجناس وجميع ألوان المحسنات البديعية ويختمون بالشعر، وكان الجانب المضحك فى هذا اللون من الأدب هيافة مضمونه رغم عظمة شكله، ثم جاءت المقامات فى العصر الحديث فانتقلت على يد بيرم التونسى إلى أداة ساخرة بارعة للنقد الاجتماعى، وعلى حين ركز بيرم التونسى على هدف المشايخ. فإن موضوعات عباس الأسوانى تتناول أفكارًا أكثر معاصرة للحياة وإن كان بعضها يقل فى أصالته عن مقامات بيرم.

والذين يقرأون عباس الأسوانى فى المقامات الأسوانية يحسون أنهم أمام رجل قادر على انتزاع الضحك الصافى من عصارة الحياة وأكدار العيش، وقادر على رؤية الجوانب المضحكة فى حفيف أثواب المآسى، وقادر على أن يهز بمقاماته كثيرًا من الكيانات الاجتماعية الزائفة فى اسلوب يموج بالطرافة والاقتدار.. رحم الله عباس الأسوانى.

سألت الدكتور علاء الأسوانى عن بداية اكتشافه للأديب عباس الأسوانى فقال لى: كانت البداية مبكرة جدًا حيث كنت طفله الوحيد مما جعلنى أقترب من والدى، وكان أب غير تقليدى ، لأن عامل الإنسان داخله كان كبيرًا وربانى تربية غير تقليدية، وحين كنت أعود إلى البيت من المدرسة أفاجأ بوالدتى تقول لى : هس.. والدك قاعد بيكتب، ثم ينفتح -بعد هذه الجملة- عالمة أمامى فأجده يكتب وهو يستمع موسيقا ويشرب قهوة وسجائر.. كنت أجده محلقًا بنظره إلى السماء.. وحين كنت أدخل على أصدقائه أجد شخصيات كنت أعتقد فى طفولتى أنها شخصيات عادية لكنى فوجئت بأنهم أعلام حين كبرت مثل صلاح جاهين وصلاح حافظ وزكريا الحجاوى ومحمود السعدنى ومحمد رضا وعديدين، فوالدى فتح لى آفاقًا كبيرة فى الكتابة، ولم يكن الأديب فيه منفصلاً عن الإنسان عن الوطن...

وعن الدور الوطنى لوالده يقول: نعم وقد حكم عليه بالإعدام حيث اتهم بأنه من المدبرين لحريق القاهرة، وذلك بسبب أن الملك كان يريد أن يتخلص من أعداء القصر، وكان والدى من ضمن أعداء القصر، وقد أجرت وزارة الداخلية فى ذلك الوقت شهود زور، وكاد أن يعدم ولكن الذى أنقذ حياته كان المرحوم جمال العطيفى يقول له أنت أنقذت ابنى لما قامت الثورة كان أبى فى المعتقل.

ومن الجمل المؤثرة التى قالها لنا علاء عن والده: دومًا أحب القول بأنى من تأليف عباس الأسوانى، لأنه صاحب الفضل الأول على توجهى للكتابة، فقد بدأ الموضوع عندى بالقراءة، وقد قلقت والدتى على قراءاتى الخارجية رغم أنها كانت سيدة متعلمة وتعمل، لكنها قلقت والدتى على دراستى، لذا اخبرت والدى الذى قام بعمل جدول لها، وحدد لى الكتب التى أقرأها على مراحل من حياتى، وبدأت أكتب فى فترة مبكرة جدًا وبدأت أراسل صوت العرب وأنا فى أولى ثانوى.. وقبل أن يرحل - وكان عمرى ١٩ عامًا- قال لى بعض النصائح فى الكتابة ومنها أننى كنت أريد التحويل من كلية الطب لكلية الآداب فقال لى: إذا كنت تريد أن تكون أديبا أختر مهنة أخرى لتصرف منها على الأدب، فلو حاولت التكسب من الكتابة قد تتنازل وقد تخسر الكتابة نفسها، وقال لى أيضًا لو أردت أن تكون كاتبًا لابد أن تكون الكتابة الشىء الأهم فى حياتك، وقد أفادتنى نصائحه جدًا.

ويضيف علاء: كان والدى لا يعاملنى فى البيت على أنى طفل صغير، فقد كنت أجلس بين هؤلاء الأعلام من أصدقائه، وأقول أى كلام فى أى كلام.. ولم يكن يوبخنى أو يصغر من شأنى أمام الآخرين، على العكس يأخذ رأيى بمنتهى الاهتمام.. وكان يأخذنى معه إلى مقهى الفيشاوى ويذهب بى للمسرح، وهنا أذكر واقعة مهمة حيث كان عادل إمام فى بداياته وكان فى مسرحية «البيجامة الحمرا» لنجوى سالم.. وكانت نجوى صديقة أبى ودعته إلى المسرحية وبعد أن شاهدنا ذهبنا لنسلم على نجوى سالم فقال لها والدى: عادل سيكون له مستقبل كبير جدًا.. ومن الأشياء الطريفة أنى كنت أعتقد أن عادل إمام لما قابلته مؤخرًا كنت أعتقد أنه نسى الموضوع، لكنه اكتشفت أنه متذكره جيدًا.. كان عباس الأسوانى مدرسة كبيرة جدًا فى الحياة وكانت لديه القدرة على عقد صداقات من أول أمراء فى الأسرة المالكة مثل الأمير عباس حليم وحتى لطفى الذى يمسح الأحذية بمقهى الفيشاوى.

وقال علاء: إن كل أصدقاء والدى ظلوا يسألون عنى وعلى علاقة بى مثل صلاح حافظ وحسن فؤاد وزكريا الحجاوى ومحمد رضا رحمهم الله، ومحمود السعدنى وأحمد طوغان ولويس جريس... ورغم أنه لم يكن ناصريًا إلا أنه كان هناك ناصريون يحبونه جدًا، وأود أن أقول أن جيل الأربعينيات -عمومًا- الذى ينتمى إليه والدى جيل محترم ومناضل، وأذكر فى نهاية يونيه ١٩٦٧ أن أبى كان فى حالة من التعاسة وكأن ابنه مات.

كما أنى لم أرَ والدى قاسيًا معى وكان حكيمًا فحين كنت فى الصف الأول الثانوى ودخلت مرحلة المراهقة بدأت «أزوغ» من المدرسة... وقلت له كصديق: على فكرة أنا «بأزوغ» من المدرسة؟ هل تتخيل ماذا كان رده؟ لقد قال لى: لما تجى تزوغ قل لى لكى أترك لك فلوس زيادة تروح بها النادى أو أى مكان تحبه مع أصحابك... وزوغت أول يوم وكلمته فقال لى عدى خد فلوس، وذهبت وأخذت فلوس وتكرر الأمر ثلاث مرات، وبعد ذلك مللت وأحسست أنى سخيف لأن لذة التزويغ بالأساس أن تختلس الوقت، لذا أوقفت حالات تزويغى!!

لكن هناك ابتعاد لعباس الأسوانى عن الصحافة منذ عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٦٢ وتفرغ للمحاماة وكتابة الأدب ويرى علاء أنه كانت هناك مشكلة وهى أنه كان رجلاً ديمقراطيًا وكان يشعر أن مصر تأخذ منحنى آخر، وأن النظام بعدما حسم الصراع لصالح جمال عبد الناصر بدأ يتجه إلى حكم عسكرى، وكان يعلم والدى خطر الحكم العسكرى، ورغم أن ما حققته الثورة أسعد والدى كثيرًا لأن والى اشتراكى، أن فكرة أن تستأثر حكومة عسكرية بالحكم فكان شيئًا صعبًا بالنسبة لمصر وله أيضًا.

وقد اكتسب اسمه من اسم العقاد: «كان عباس العقاد يوقع فى بداية حياته باسم عباس الأسوانى، وكان أبى يحب العقاد وكان من تلاميذه.. فوقع باسم عباس الأسوانى، وقد بارك العقاد هذه التسمية وفى مقال بأخبار اليوم أحيى الكاتب بلدياتى عباس الأسوانى».

وعن سر صداقة كاتب ساخر تخرج كتاباته من بين نسيج حياة الناس الغلابة بالأمير عباس حليم يقول علاء: لأن الأمير عباس حليم كان نسيجًا متفردًا فى الأسرة المالكة، وكانوا يسمونه الأمير الأحمر لأنه كان متهمًا بالشيوعية، وكان والدى فنانا يحب البشر جميعًا ويعقد صداقات بمنتهى السهولة، وكان عباس حليم مسئول النقابات والعمل النقابى وكان رجلاً ثوريًا لذا اقترب والدى منه، ووالدى كان مستشارًا قانونيًا لنادى السيارات الذى تشترك فيه الأسرة المالكة كلها.. ولم تنعقد صداقات له مع أحد سوى عباس حليم، وسرها الثقافة الرفيعة للأمير عباس وميوله الاشتراكية وشخصية أبى وجاذبيته.

وعن التكوين الطبقى لوالده أضاف: والدى من الطبقة المتوسطة ووالده كان من أثرياء الصعيد وأفلس فاضطر أن يأتى إلى مصر ويعمل موظفًا صغيراً. وقد تأثر مما حدث له فمات، وقد أخذ أبى على عاتقه أن ينفق على إخوته، وينطبق على الموضوع كله «عزيز قوم ذل».

وعن كتب والده التى وعد بها القارئ قبل أن يرجل مثل: شخصيات لها العجب، و«حكاية» يفجر علاء الأسوانى أزمة حقيقية يعيشها بسبب هيئة الكتاب وعباس الأسوانى وسمير رجب:« قمت برفع قضية على الهيئة بسبب والدى، لأنها تعاملت مع

الأعمال الكاملة لوالدى وله كتصفية حسابات للموقف السياسى المعارض للنظام، حيث طبعوا الجزء الأول من أعماله الكاملة وتقاعسوا عن إصدار الجزء الثانى، وعملوا مكافأة.. ولا يعنينى المال ولست فى حاجة إليه.. لكن أن يعطوا لسمير رجب ٧٠ ألف جنيه فى مكتبة الأسرة لقيامه بعمل كتاب عن عظمة الرئيس مبارك، وهو نفس الكتاب الذى يعيده ويغير عنوانه والآية القرآنية، ويأخذ هذا المبلغ عن كتابه وعباس الأسوانى أربعة آلاف جنيه ، فالذين يمدحون بالباطل يأخذون ٧٠ ألف جنيه من الضرائب التى يدفعها المواطن المصرى، بينما القمم الحقيقية فى تاريخ الثقافة المصرى تعامل هذه المعاملة.

وعن المقامات يقول:أعاد أبى بعث فن المقامات من مرقده.. وبيرم التونسى، وكلنا يعلم من هو بيرم التونسى وكتب المقامة لكنى أزعم أن مقامات والدى أجمل وأقوى فنيا من مقامات بيرم التونسى لأن مفهوم والدى للمقامة وقدرته الشعرية وثقافته الموسوعية فى الشعر والتراث العربى، كما كان يقرأ بالفرنسية كما يقرأ بالعربية، كل هذا ظهر فى مقاماته، وأزعم أن المقامة الأسوانية أخذت فن المقامة القديم وطورته فأصبحت أداء للنقد الاجتماعى، وأعتقد أنه لم يأت الناقد الذى يستطيع أن يقدم ما فعله عباس الأسوانى حتى الآن.

وعن الأسوانى الساخر يقول: السخرية عند عباس الأسوانى ليست فكاهة ولكنها رؤية للحياة وقدرة على التعايش وعلى النقد الساخر.. كان لديه قدرة على «كتابة الكلام»... وهنا طائفة من العظماء فى تاريخ الثقافة المصرية مثل كامل الشناوى وزكريا الحجاوى ومحمود السعدنى كان الكلام صورا حقيقية، ولو كتب ما قاله عباس الأسوانى لكسبنا أعمالاً أدبية عظيمة..

السخرية عند والدى سلاح ووجهة نظر وخاصية أدبية بالأساس وليست لمجرد الضحك.. سخرية تدفعك بعد أن تضحك للتفكير وتبرز أمامك التناقض الاجتماعى والسياسى.

محمد مستجاب:

كدت أصبح لصًا..

ولس

كاتباً ساخراً!!

اثنان لا تنسب لهما بلدهما الراقصة

والأدب!!

□ □ □

تعيش سخريته مع الناس لأنها من الناس وإليهم ، فأينما حل محمد مستجاب يحمل ديروط الشريف معه بناسها وزرعها وهوامها وقططها وكلابها وجواميسها وروثها.. قد مضى فى شوارع القاهرة مثل أى ريفى قادم فى « مصلحة» وراجع إلى بلدهم تانى لكنه لم يعد أبدًا فالقاهرة كان يراها ديروط الشريف، يجلس إلى الوزراء والخفراء والسكارى والفنانين لكنه أبدًا لم يتخل عن جلبابه الصعيدى الفضفاض أو منديله القماش- الذى أفل عصره- منذ ظهرت كارمن وزينة وفاين، ويكتب بلغة مختلفة تراها بسيطة سهلة لكن إذا حاولت أن تقلدها فإنك ستأخذ عشرة من عشرة فى الفشل، فهى ليست نتاج يوم وليلة ولكنها نتاج عُمر.. وقد وصفها فى بداية كتابه« قيام وانهيار آل مستجاب» بقوله : فى البشارة به«... ويكون لك ولد ذكر من صلبك تضيع عينه اليمنى جهلاً واليسرى ثقافة، يهلك أطنانًا من التبغ والورق وأبيات الشعر والشاى ومكعبات الثلج وآيات التكوين والمبادئ والملوك والخفراء والثرثرة والشعارات والوزراء ، يكون رءومًا قلقًا جامحًا، جامعًا لصفات الكلاب والعصافير والحنظل والحشرات والأنبياء والأنبياء، يداهمكم بقصصه القصيرة، حتى يقضى نحبه مجللاً بآيات الفخار فى العراء على قارعة الوطن..».

وبقدر ما أحببت محمد مستجاب -رحمه الله- بقدر ما تضايق منى ولعننى فى الأرض والسما، فمنذ التقتيه فى المرة الأولى فى (١٩٩٩/١/٦)وحتى رحيله لم يتأخر عنى فى أى تحقيق ثقافى آخذ رأيه فيه.. كما كنت أذهب له فى بيته بجوار قاعة سيد درويش وحتى بعد رحيله استقويت نفسى، وذهبت إلى زوجته وابنته سوسن وأجريت حوارًا مع سوسن عن والدها واستمتعت بفيلم تسجيلى عنه، أما لماذا لعننى؟ فلأننى صعيدى من قنا فقد ترسبت داخلى مسألة الثأر اللعين، ولأنه من أسيوط فكان يمزح معى ولكن بطريقة «الصعايدة» وكان يكتب مقالاً فى جريدة الأسبوع« رقبة٠- لا مؤاخذة- الحمامة» ، وهاتفته ذات يوم فقال لى إنه ذاهب لمعرض القاهرة للكتاب فتعال

اذهب معى، وذهبت معه، وهناك وكان جالسًا مع عدد من أصدقائه ومنهم الدكتور سمير سرحان- رحمه الله- والشاعر فارس خضر والزميل سامح الأسوانى، وكعادته إذا جلس فى مجلس يكون للمجلس متعة ذات مذاق خاص، حيث يحمل ثقافة رائعة سواء فى الأدب الفرعونى أو الأدب الفرنسى أوالإنجليزى أو الروسى ويستطيع تشخيص كل كاتب وطريقة تناوله شخوص رواياته، ودار النقاش حول مقال له فى الأسبوع.

فأسرعت دون تمهل الخطى كعادتى حين قال - رقبة- لا مؤاخذة .. فأكملت: الحمامة، فأكمل ، بسرعة فى...

يومها ضحك الجميع علىّ، وجاءتنى الفرصة ذات يوم حين كان أحد الزملاء المدعين ثقافة وفكرًا وصحافة يعبث فى أجندة تليفوناتى، وهذا الزميل اقترحت عليه ذات يوم أن يجرى أحاديث مع أمل دنقل وزكى طليمات وعبد الوارث عسر ويحيى الطاهر عبد الله وعبد الحكيم قاسم رحمهم الله.. وزدت فجرًا بأن أعطيته تليفوناتهم المحمولة.. وهى أرقام لأصدقاء، لدرجة أن الزميل أشرف عبد الشافى كاد أن ينهى علاقته بى بسبب أن «صاحبنا» اتصل به وطلب منه رقم موبايل أمل دنقل لإجراء حوار معه، ولما عرف أشرف أننى أعطيته رقمه وقلت له : أشرف أعز أصدقاء أمل ومعه الرقم.

المهم أن«صاحبنا» لمح اسم محمد مستجاب فى أجندة تليفوناتى ، ويبدو أن الاسم جذبه فسألنى عمن يكون محمد مستجاب، وهنا وجدت الفرصة لأنتقم من غبائه ومن حمامة مستجاب فقلت له إن مستجاب هذا يعمل رئيسًا لهيئة الصرف الصحى المصرية الأمريكية، وأن هذا هو أنسب وقت لإجراء حوار مع مستجاب.. وهنا برق صديقى بعينيه يسأل لماذا الآن؟! فقلت له لأن هناك مشاكل حول شبكة الصرف الصحى التى تربط بين مصر وأمريكا لأن هنا عطل حدث فى الشبكة فى منتصف الطريق عند شرق أفغانستان، وأفغانستان رفضت إصلاح الشبكة لأن اتفاقية الجات الخاصة بالصرف الصحى لم تطبق بعد .. وكان -والشهادة لله- ذكيًا ولماحًا فقال لى: وما علاقة أفغانستان بالموضوع، فقلت له: سؤال وجيه- ده مش اسمه على فكرة- لأن

أفغانستان تقع على الحدود بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية والشبكة تمر فيها.. وصدق زميلى كلامى، وهاتف مستجاب الذى حدد له موعدا، وذهب له، وحين وجد مستجابا بجلبابه الفضفاض وكرمه تأكد أنه رئيس هيئة الصرف الصحى بالفعل، فلو لم يكن كذلك لماذا يرتدى جلبابا -مثلاً-؟..

وكان صاحبنا متعجلاً فضغط له رقم فى نقابة الصحفيين الآن على الكاسيت وقال: بعد إذنك سأبدأ يافندم.. فقال له مستجاب : تفضل.

السؤال الأول: هكذا كان يقول لمن يجرى معهم حوارات وحتى الآن، كيف ترى العلاقة بين مصر وأمريكا فى ضوء أزمة الصرف الصحى العالمية؟!!

... أمك .. السؤال إللى بعده.. هكذا كان رد مستجاب

وقال صاحبنا فى نفسه: ما هو بتاع صرف صحى أكيد دى لغوته.. ورفع صوته:

السؤال الثانى:

بصفتك رئيسًا لهيئة الصرف الصحى..

ولم يدعه مستجاب يكمل فقد هوى على قفاه بيده فأسقطه فى الطبق الذى أمامه، وثار ثورة عنيفة وسأله فقال له إنه أخذ الرقم منى وأننى قلت له أنك رئيس هيئة الصرف الصحى، وبعد أن طرده مستجاب شر طرده وأخذ نصيبه ، فوجئت بمستجاب يطلبنى ولم أقل آلو حتى كانت كل شتائم الدنيا تصب فى أذنى.. بينما أنا مستلقى من الضحك فى صمت.. وصالحته لكن بعدها بشهور وحكيت له موقف الحمامة الذى كان .. وكان رحمه الله كلما التقانى نتحدث فى هذه القصة ونضحك فقد كان رغم كل شىء رجل طب القلب يحب الناس ولايجد سعادته إلا بينهم حتى أولاده كان لهم أخا وصديقا .. يضحك معهم ويعيش أجمل لحظاته معهم.. وقد دعانى ذات مرة لأن أذهب معه لديروط الشريف وكنا فى نادى الصحفيين بالبحر الأعظم - وكنت سأذهب معه لولا قصة حب كنت أراهق بها وقد ذهبت القصة وذهب مستجاب.. رحم الله الاثنين..!!

وقد سألت مستجابا : هل أنت سعيد بلقب «الكاتب الساخر»؟

قال: لا أقف على المسرح لأقول للناس «اسمعونى سوف أضحككم... إننى مهموم وحزين ويائس ولست ساخرًا .. كما أنى أعيش حياتى دونما اصطناع.. أنا أكتب و«خلاص»، وكما أن الكتابة الساخرة أنواع فهناك الكتابة الساخرة التى تنتقد لمجرد النقد وكتابها كثيرون جدًا فى العالم العربى، وهذه الكتابة تختلف تمامًا عن الأدب الساخر..

الأدب الساخر حالة إبداعية تجدها عند برناردشو... عند محمود السعدنى هذا الرجل الذى وضع الأدب على الأرض.. حفره فى الطين وأضحكنا حتى الثمالة.. ثم أنا كان من المفروض أن أصبح لصًا وليس كاتبًا ساخرًا...

- ما المهن التى عملت بها قبل الكتابة؟

- الكتابة ليست مهنة بالنسبة لى ولكنها حياة.. وقد عملت فى بداياتى فى سينما ريفولى حين هجرت قريتى إلى القاهرة ثم سافرت إلى أسوان لأعمل فى السد العالى أثناء إنشائه ثم عملت بالمقاولون العرب والتى سافرت من خلالها إلى العديد من الدول العربية فى مهام عمل مثل الكويت ولبنان وغيرهما.

وإرهاصات البدايات لدى محمد مستجاب؟

الوصية الحادية عشرة هى أول قصة كتبتها ثم أرسلتها إلى مجلة الهلال ونشرت عام ١٩٦٩ وقد قدمنى كامل زهيرى إلى القراء .

- ولماذا لم تكمل تعليمك؟

- كنت الولد الوحيد على أربع بنات، ولأنى كنت «الذكر» المميز من قبل أبى فقد أدخلنى المدرسة الابتدائية، وفى الصف الثالث الابتدائى منعتنى عائلتى من الذهاب إلى المدرسة لكى أساعد والدى فى زراعة الأرض وفلاحتها، ولا الومهم لأننا كنا نعيش تحت خط الفقر بمراحل كثيرة.. وكنا نأكل طبيخ وهمى(!!!) حيث تضع أمى الحلة على النار وبها ماء لتلهينا وتوهمنا أنه أكل حتى ننام.

ورغم ذلك فإن أغلب كتاباتك تدور فى منطقة واحدة فى الصعيد«ديروط الشريف» ألا يعد هذا حصرًا لإبداعك فى منطقة واحدة... أين باقى الجنوب من إبداعك؟

- لست باحثًا اجتماعيًا.. ولا جامع معلومات... لقد كتبت عن المنطقة التى أعرفها جيدًا.. ثم إن ديروط الشريف لاتدرى أنها كتبت أصلاً.. ديروط الشريف مشغولة بالمسلسلات والأفلام.. لقد جعلت ديروط الشريف تحتوى على آرائى فى السياسة والدين والأخلاق وكل شىء، لقد صنع فوكز من منطقته عالما خاصا ورحب فى نفس الوقت.

- لا أنقل عن ديروط الشريف لأن ديروط الشريف لا تقرأنى... ديروط الشريف مشغولة بعد الأموال كحضارة معاصرة.. فيه ناس من ديروط الشريف ذهبوا لأداء واجب العزاء فى بلدة تسمى«الناصرية» مجاورة لنا، ومن خلال التعارف قالوا إنهم من ديروط الشريف فقال لهم أهالى الناصرية: أهلاً وسهلاً... بلد محمد مستجاب.. والناس اعتادت أن يقول بلد العمدة فلان مثلاً.. لكن هناك اثنان لا تنسب إليهم البلد: الأديب والراقصة..!

فقال لهم واحد اسمه فاروق : يعنى هو محمد مستجاب كان عمله حاجة... لازرع زرع... ولا ضرع ربى؟ ولا أرض ملك.. فقال له: يابنى أنتم ماتعرفوش حاجة لسه !

هذه الحكاية نقلت لى من طرف محايد؟ فلما ذهبت للبلد قلت له يا فاروق ليه قلت كده؟ فقال لى : هو أنت كبيرنا... أنا مش فاهم يعنى!

وهكذا ديروط الشريف.

هى اتى احتوتك أم أنت الذى احتويتها؟

- أنا أحتوى العالم كله.. أنا حويت، وأستطيع احتواء أموال العالم كله ونقوده وأخلاقه ولكنى لا أعرف هل سأرجعها أم لا؟!

- تقول كم فى المائة من الحقيقة؟

٥٪ أو ١٠٪ من الحقيقة.

لايخرج القارئ لأعمالك إلا وقد تورط فى جرائم قتل وحالات عنف... فهل العنف طبيعة فى مستجاب الإنسان أم فى مستجاب ابن البيئة الشرسة الذى يعد القتل سمة

أساسية فيه، وهل على الكاتب الحقيقى أن يقترب بمثل هذا الشكل من جماعته المغمورة ويعريها بهذا الشكل أم هى حالة مستجابية خاصة؟

- الحكاية لاتستحق كل هذا ... ولكن شاهدنا من ناحية تعويدنا على مجموعة أفكار عظيمة وهم يحاولون إعادتها وصياغتها بطرق مختلفة كى يسمونها أدبًا.. ويصوروا لنا أن العُمَد والأثرياء هم مجال الجريمة.. والفقراء هم أبناء الله .. وأنا ضد هذه الحكاية بالمرة.. نعم أعرف الكثير من الأثرياء فى منتهى الفجاحة.. وكثير من الفقراء أيضًا.. وأعرف أثرياء فى منتهى التقدم والتطور والإدراك والحساسية... فلماذا لا نحافظ عليهم ...؟

مثلاً.. الثورة الشيوعية التى حدثت فى روسيا دمرت كل شىء، وكانت ضد الأغنياء، ولكنها حافظت على مجموعات «الباليه الراقص» وهى فن الأثرياء، وليس فن العمال والفلاحين.. حافظت على «الأرميتاج» ... حافظت على كل هذه القيم.

- هل الطمى والطين عنصر مستجاب فى كتاباته تفرد إبداعى أم مسوغات تعيين كاديب يحمل هم طبقات الدنيا فى المجتمع المدنى ؟

لا أعرف.. أنا أكتب كما أتنفس.. أنقل حياتى فى بيتى وفى قريتى..وفى أى مكان أذهب إليه أو أعيش فيه..فمثلاً الذى يعقل أنى حين أسافر إلى الصعيد أنت تعزمنى وهذا يعزمنى عنده ولقاءات متعددة تصنع الكثير من حياتى، فالذى يعقل بالنسبة لى أنا أمش فى غيطان الطماطم التى شاهدتنى حينما كنت أسرق طماطم، عندما كنت صغيرًا، ويأتى أهل بلدتى إذا شاهدونى أفعل هذا ويقولون «هذا مخه طاقق» أى مجنون!

إننى أقول لهم : دعوا هذا الفوضوى يسير كيفما يحب... خصوصًا إذا لم يكن شريرًا أوليس بقادر على الشر.

هناك مقولة لروجيه جارودى«إن العالم ما هو إلا مجموعة من العادات التى كونها الإنسان فى العالم.. هل تنطبق هذه المقولة على عالم مستجاب الإبداعى العام، وعلى عالم نعمان عبد الحافظ فى ظل إبداع مستجاب بوجه خاص.. خصوصًا عملية الختان فى « التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ»؟!

هذا استخدام تحليلى.. ولكنى إذا حدثتك عن نعمان عبد الحافظ فإنى أحدثك عن

سيره تستحق التناول.. وسأقول لك شيئاً واحداً بخصوص هذا السؤال.. يكفى أن نعمان حين ذهبت أمه كى تزوجه اكتشفت أنه ليس مختونًا..!!

ثم القضية تتلخص فى مسألة البطولة الزائفة التى صورتها أثناء ختان نعمان.. كلها لم تكن تراعى مصلحة نعمان التى قامت من أجل مصلحته.

لقد دُمر هذا الشعب بسبب البطولات الزائفة كأبى زيد الهلالى وهذا اللغط الفارغ... لا أوظف الأسطورة ولكنى منتبه لما يحيق بهذا الشعب.

يأخذ البعض عليك التفكك وعدم تسلسل الأفكار فى مجموعتك القصصية قيام وانهيار آل مستجاب ؟

ليس يأخذ .. انها «ميزة».. إنهم أنشأوا أدباً عظيمًا بهذا النوع من التسلسل الخشن المنظم المرتب.. وأعلن الآن أنه لايعبر عن حياتنا... وأعلن الآن -أيضًا- أن الذى يعبر عن حياتنا حيث لا تسلسل فيها ولا نعومة مستمرة ولا خشونه ولا منطق.. هذا تميز فلقد انتهى عصر القصة المستفة.

- لك «مقلب» شهير مع الدكتور مصطفى محمود؟

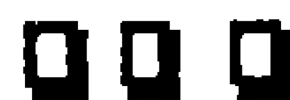
- ليس مقلبًا ولكن استهوانى بابه الشهير« اعترفوا لى» فى مجلة صباح الخير، وقد أرسلت له العديد من القصص الخيالية فى هذا الباب، فكنت أكتب له عن أنى زوجة خانت زوجها أو حبيبة وحيدة وغيرها من القصص ، ولما حكيت له بعد ذلك بالتفاصيل ضحك كثيرًا وتصادقنا.

ابنته سوسن قالت لى بعد رحيله: لقد كان يملأ البيت بهجة وحبا.. كنا معه نحس بالأمان وطيبة القلب وراحة البال.. وكان مهمومًا بى لأنى أصيبت بمرض صعب فكان يلازمنى دومًا وقلق علىّ وعمل المستحيل لأجلى وصرف كثيرًا على علاجى ورأيته يبكى حزنًا علىّ وطمأنته ولما شفيت كان يشبه الطفل يوم العيد فى السعادة والبهجة.. لقد خلّف فراغًا طويلاً فقد اعتدنا على صوته وحركته.. الحياة تصعب كثيرًا فى عدم وجوده .. رحمه الله.

أحمد فؤاد نجم.. الشاعر الصعلوك:

- عبد الحليم حافظ تآمر على مطرب اسمه عبد الرءوف إسماعيل وأرسله الكويت!!

- صلاح جاهين انتهى غناؤه ولم يتبقَ منه شيء!!



عاش ساخرًا من الحياة فسخرت منه الحياة ولم تعره اهتمامًا.. سخر منها أكثر وممن يعيشون عليها فألقوا به فى المعتقلات والسجون..

أحمد فؤاد نجم الفاجومى ابن هانم المعجبانية الفلاح الأصيل الذى يعشق الشعور والحياة والنسوان ويسخر من الجميع يمشى حسب طريقة أبيه القديمة « تُف على الناس» لذا لم يترك نظامًا ولا عصا غليظة مشرعة إلا وبصق عليها..

لم يرتد يومًا ثوبًا غير ثوبه، ولا خبأ ما يخجل منه الإنسان فاعترف أنه زور لكى يتزوج فى بداية حياته، وأنه سرق شعر فؤاد حداد وضمه إلى ديوانه الأول.. والفاجومى ينتمى إلى الساخرين العظام الذين يضحكون من مرارات الحياة ويولدون داخلك ألمًا عظيمًا بعد الضحكات.

عاش تناقضه إلى آخره فتزوج عزة بلبع الأرستقراطية حفيدة الباشوات المطرية المتحررة وتزوج صافيناز كاظم المدتينة إلى حد التزمت والمحجبة بالأسدال.. ثم تزوج أم زينب الفلاحة الصلبة قوية الشخصية ليختم بها حياته.

- ما الذى فيها ليرى فى الرئيس السادات« شحاتة المعسل»؟

- وما الذى فيها ليعتقله السادات ويرميه فى زنارينه كالكلب الأجرب؟

لاشىء هناك يسكت صوت أحمد فؤآد نجم إلا الموت؟ فقد خلق ليقول لا» فمن قال لا ظل روحًا أبدية الألم».

- ومن محافظة الشرقية لحوش قدم وحى الأزهر لمعتقلات القلعة والواحات والفيوم إلى سوريا وليبيا وبيروتس وباريس والكويت والمغرب و« دوخينى يا لمونة» فى كافة أرض الله، وحتى دار أميريت ، للنشر فى شارع قصر النيل امتدت حياة أحمد فؤاد نجم. وفى ميريت ومع صديقه محمد هاشم – صاحب الدار– وبين الشعر والمقاومة والدخان جلسنا وحاورناه.

- وإذا مررنا على سيرته الذاتية قبل الحوار نجد أن :

«كلب» هو أجمل ما فى مذكرات أحمد فؤاد نجم وأكثرها سخرية، فإلى جانب شخصياته (على الشمروخ وابن فاطمة وعبد الجليل الأقرع وأنور السادات وعبد الناصر وكمشيش وزوريا وحجازى وصلاح جاهين وهيكل وفؤاد حداد) تأتى واقعة كلب كارنو فى أروع سخريات الطفولة، وتبدأ القصة حين قال له الشيخ إبراهيم فى الكُتَّاب والتلاميذ أن كلب أهل الكهف اسمه قطمير عليه السلام، وأنا لو لقيت أى كلب وقلت له «قطمير» سيثبت مكانه لا يتحرك و..» وقبل ما أفكر أطلب من سيدنا يقول لنا ولو سطرين فى موضوع كلب أهل الكهف تطوع مشكورًا وسألنا؟

- عارفين كلب أهل الكهف اسمه إيه ياخنازير ياولاد الخنازير؟

- وردينا فى نفس واحد : لا يا سيدنا.

- قال: اسمه قطمير يا زوانى ياولاد الزوانى... وهو سيد كلاب الأرض.. وإذا ذكر يا هلف يابن الهلف أنت وهو.. لازم تقولوا عليه السلام.

- وفوجئنا بسيدنا عمال يتطوح شمال ويمين ويطلع رغاوى من بقه ويزعق بعزم ما فيه:

- يا حبيبى يا قطمير.. الصحبة ياسيد الكلاب.. قطمير.. قطمير.. قطمير.

- وزعقنا فى نفس واحد:

- عليه السلام.

- وابتسم سيدنا فى زهو ووطى على جلابية محمود عرفة اللى كان نايم مسح فيها بقه من الرغاوى وسألنا بلهجة ودية:

- إنت عارف ياكلب يا ابن الكلب انت وهو.. لو كلب هجم عليك فى السكة وقلت له قطمير يعمل إيه؟

- قلنا له: لايا سيدنا.

- ضحك وقال:

- ياعينى عليكو يا جهلة... يقف مطرحه عِدِل وينحنى له باحترام لاتستحقه له أنت ولا أهلك وممكن يديك خصره تركبه.

- أنا بعد كده ما سمعتش حاجة من أصله.. وأول ما خرجنا من الكتاب أصدرت تعليماتى..

- ماحدش يروح.. لا من عصابتى ولا من عصابة غريب.

- وقفوا العيال ساكتين يبصوا لى... فقلت بكبرياء وثقة:

- أنا النهاردة عازمكوا ع الغداء.

- العيال قعدوا يبصوا لبعض مش فاهمين حاجة فكملت:

- الغدا النهاردة مانجة ومن جنينة كارتو.

- وصرخ واد من عصابة غريب:

- ومين اللى حيجيب المانجة من تحت؟

-ورديت بمنتهى الهدوء والعنجهية

- أنا

- وسأل واحد من عصابتى:

- يالهوى .. والكلب؟

- ابتسمت ابتسامة الواثق وبعدين ضحكة بألاطة وقلت ببساطة:

- ح أركبه.

- وانفجرت عصابتى بالتهليل والتكبير:

- الله أكبر... يدوم الحماس يابو عزت.. يدوم الحماس يا دكر.. يدوم الحماس يا بطل.

- وفضلوا يصحنوا لعصابة غريب على كفوفهم ويطلعوا لهم لسانهم إلى أن تحرك الركب الميمون فى اتجاه الهدف الجليل... اللى هو جنينه كارنو.

- واحنا ماشيين ماكانش حد فينا قادر يفتح بقه بكلمة ولا حتى يبص للى جنبه.. سكون مهيب إلى أن وصلنا بسلامة الله إلى الهدف المنشود.

- دلدلنا روسنا من السور لقينا الزميل مربوط فى الشجرة ونايم فى غفلة وماعندوش فكرة باللى حيجراله... وابتسمت فى سرى وقررت بمنتهى الحزم وضع حد لأسطورة الكلب الذى لايهزم.. كنت واثقا من سلاحى لدرجة إنى قلت بصوت مسموع:

- جالك الموت يا تارك الصلاة.

- وبحركة استعراضية رشيقة قفزت على حافة السور وحطيت ديلى فى سنانى.. مع ملاحظة أن الجلابية ع اللحم.. وقلت للعيال:

- سقفة للنبى.

- سقفوا.

- قلت لهم : قولوا هيه.

- قالوا : هيه.

- قلت لهم: وكمان هيه.

- قالوا : وكمان هييه.

- قلت لهم : سقفة شديدة للنبى بقى.

- سقفوا سقفة شديدة.

- وبحركة مظلية مفاجئة رحت ناطط بقيت فى حضن الكلب وزعقت فى وشه بثقة:

- قطمير عليه السلام.

- ودى كانت آخر جملة سمعتها.

ـ ما أعرفش بقى فات قد إيه؟ بعدها فقت لقيت الخواجاية.(صاحبة الجنينة) راميانى فى الزريبة وبتدلق علىَّ ميه سخنة بتغلى وبتدهن لى مرهم وشكلها قرفان من هدومى اللى بقت هلاهيل والدم اللى بيشلب من كل حتة فى جسمى وبتربط بالجريجى بشكل ما يطمنش، وباضرب بعينى لقيت لك تلات عيال من عصابتى متكتفين فى حبل واحد ومرميين فى ركن من أركان الزريبة وما حدش فيهم حسه طالع من الرعب.. ربك والحق أنا بدأت أخاف من المجهول... وإذ بالمنقذ العجيب الدائم اللى هو صوت أمى جاى من بره السراية وهى بتقول جملتين مش فاهمهم إلى وقتنا هذا.. كانت بتقول:

ـ سلامتك يا شلبى!! سلامتك يا معجبانى!!

ـ لمن تنتسب السخرية داخل أحمد فؤاد نجم؟

ـ أخذتها من الواقع الذى نعيشه، وأبويا كان ساخرا ودمه خفيفا، ولكن لم تكن داخله المرارة التى داخلى الآن... لأن حياته كانت مختلفة عنى، لأنى حين أكملت السنوات الست من عمرى كنت مسئولاً عن نفسى.. أبحث عن طريقة لآكل بها.وطوال حياتى كنت أواجه المتناقضات التى تميت من الضحك... وأبى كان يأمرنى بأن أتف على الناس ولا أعرف لماذا حتى الآن؟

ـ أمك الجميلة المعجبانية هانم التى كتبت عنها فى مذكراتك هل كانت عاملاً من عوامل زرع السخرية داخلك؟

ـ هى الست التى قامت بشحن البطارية داخلى... كان دمها خفيفًا ونكتتها حاضرة سريعة . وكنت معجبًا بها وأظل أتفرج عليهاوعلى فقشاتها وذكائها الفلاحى الذى يتخلله الحزن والوجع، وكانت تغنى لى وأنا نائم على حجرها... كان صوتها جميلاً.

الملجأ الذى كان أول خطوات الألم فى حياتك هل ولد داخلك سخرية؟

ـ هو مرحلة مهمة كان مثل السجن... أبعدونى عن الحضن الذى أحبه والأرض التى أحبها... كنت وسط ١٥٠ ولدا يتيما، وتعرضت لنظام عسكرى وطوابير وعذاب وأخرج من سخرية مريرة.. كنت أترك كل هؤلاء الأولاد وأجلس خلف الجامع بمفردى ساخرًا من كل شىء.

- على الشمروخ وعبد الجليل الأقرع وشقيقك عبد العزيز والعمدة.. وكلب كارنو وشيخ الكتاب. شخصيات فى حياتك تمتمت بالعنف والسخرية والغباء فى آن واحد.. فما الذى استفدته من هذه الشخصيات فى بناء شخصيتك؟

- أبويا على الشمروخ الراوى الأمين الشجاع المبدع، كان يحكى لنا حواديت لا تصدق لكنها رائعة... كان يقول لنا أن ابنة ملك الجن الأحمر أحبته وأخذته على ظهرها ومشت به سبع ليالى وعدت به بحورا ثم جاء بها إلى هنا فقبض عليها الجن وحاكموها فى «الخص» الخاص به، وغيرها من الحكايات...

- للشيخ على الشمروخ حكايات جميلة وتعبيرات عبقرية، يقول لى « أنت واد دكر»..أما أخى عبد العزيز فقدكان قاسيًا علىَّ جدًا... وكان ممسوسًا وعصبيا جدًا وكان يضرب بعنف لأنه خائف .. أما شيخ الكتاب أبو عيطة فهو أحد التحف التى التقيتها فى حياتى... فجأة يقوم واقفًا ونحن تلاميذ صغار جالسين على الأرض ثم يقول بصوتٍ جهود:

كـــــلا الأخـــــــوين مظـــــراط ولكن شهاب الدين أظرط من أخيه

وينتظر تشجيعنا ولابد أن نقول له: الله يامولانا .. وإلا سينزل علينا ضربا بالعصا مثل الذين يغنون بالعافية الآن؟

- فى تقديمه لمذكراتك يقول صلاح عيسى إنك كنت أخًا للص خزائن وآخر ابن ليل... كيف كانت علاقتك بإخوتك؟

- لص الخزائن هذا الذى هرب من الحياة والتقيته صدفة فى السجن هوأجمل وأحن أخ التقيته فى حياتى... كنت فى حضن أخى علىّ كأنى فى حضن أمى ونحن فى السجن.

- وأين ذهب بعد خروجكما من السجن... لم تأت سيرته فى مذكراتك بعد لقائكما فى السجن؟

- سأقول لك سرا أحكيه للمرة الأولى لأن ضميرى يعذبنى... أننى متهم من على بالندالة... والقصة أننى كنت جالسًا على مقهى الفيشاوى، بعدما بدأت أشتهر ومر

علىّ على، ولم يرنى ولكننى رأيته، وترددت أناديه أم لا ... فى لحظات هذا التردد كان أخى علىّ اختفى، ومات بعدها ولم أره...!!

شوف الندالة بتاعتى .. أرأيت هو إزاى أشرف مننا كلنا؟!

واعتبرت نفسى مسؤلا عن عدم رؤيته مرة أخرى.

- مَنْ مِنْ إخواتك على قيد الحياة الآن؟

- كلهم مشوا من الدنيا.

- رغم أنك بدأت كتابة الشعر بنفاق المأمور وضباط العنبر حين كنت مسجونًا بتهمة التزوير فى مستندات رسيمة إلا أنك لم تنافق حاكمًا طوال مسيرتك الشعرية فما سر هذا التحول فى حياتك؟

- صدقنى .. هو تحول حدث لى بعدما التقيت بحجازى الرسام وشلة رزواليوسف منتصف الستينيات، والتقيت محيى اللباد وعلاء الديب وموسى صبرى وصلاح الليثى وجمال كامل وناجى... وكان القمر الساطع لهذه الشلة فؤاد قاعود الشاعر الكبير... وحجازى استلقطنى وكنت مازلت أكتب أغانى شعبيه وأغانى حب حتى قال لى ذات يوم : هل قرأت بيرم التونسى؟

- قلت له بمنتهى النصب والفجر وقلة الأدب: قرأته وما عجبنيش.

- نظر لى .. وأنا أعرف نظرة حجازى ثم ضحك وقال لى : تعالى أغديك فى شقتى.

- كانت لديه شقة فى المنيل وجهز لى الحمام والبانيو وملأه بالعطور، وكانت أول مرة فى حياتى أستحمى بمياه ملونة، وجاء لى «بفيار» من عنده وجلسنا أكلنا وأنا ماشى قال لى: خذ هذا ديوان بيرم اقرأه مرة تانية.

- وصلت الرسالة، وبدأت أقرأ بيرم فوجدت حدوتة أخرى، الموضوع ليس «أنا فى انتظارك» و «هو صحيح الهوى غلاب» و«سلامة».. موضوع تانى خالص... وجدت بيرم ركن من أركان التنوير فى مصر وأستاذ ومنحاز للغلابة ويعشق التراب المصرى، ووجدته مؤمنًا أن هذه الأرض ستظل تعطى حتى آخر يوم فى الدنيا... وهذا ما أعطى له قوة

ووجدا وشجنا.. فمثلاً تجده يقول: يا مصر حالك بكانى، يا عبلة أم عيون نسيانى، ده يوم ماهرجع لك تانى، هاتبقى رجعة برسمالها.

ـ كان يعرف أنه سيعود إلى مصر لأن روحه فيها... ثم القصائد العظيمة التى كتبها فى المنفى كانت عبقرية، فتجد قصيدة الإذاعة- على سبيل المثال- حيث افتتحت عام ١٩٣٨ يحكى ما حدث هناك قائلاً:

أرض الحبايب بعيده .·. يا لهفتي عالحبايب
قالوا المحطة الجديده .·. حرر عليها العقارب
تحظى بمصر السعيده .·. عندك في أرض المغارب
جبت الجهاز أمريكاني .·. بالدين ومبلغ يساوي

* * * * *

يا مصر فالك مبارك .·. يا قايمه من بعد نومه
خليتى صوتك يشارك .·. لندن وباريس وروما
أنا الرذيل المعارك .·. لجلك عشقت الحكومه
اللي بنت لك محطه .·. في المحجر الزعبلاوي

* * * * *

حطيت علي القلب إيدى .·. لما سمعت المنادي
ولهان وناكر وجودى .·. في وادي النيل في وادي
أقول له شنف يا سيدي .·. ياما انتظرنا الساعة دي
إحنا إللي لايجين عطاشه .·. هات اللى عندك يا راوي

* * * * *

صوته الحنين قرب لي .·. مخنوق وفي الحلق شارق
حسبته في الوجد مثلي .·. يبكي وفي الدمع غارق

ولاأحسبه حس طفلي .. يبكي في أربع مفارق
فيها الترومای يبرطع .. والرعد من تحته داوي

* * * * *

قام المحاضر يحاضر .. علي السفر والتجاره
كأنه واقف في شادر .. بايظ ومليان سكاره
يزعق ولاحد قادر .. يسمع له يا ميت خساره
فضلت أفتح وأقفل .. حتي بريت الملاوي

* * * * *

رفعت بدا في القرايه .. ونا اللي رفعت سباني
دارت معاه الرحايه .. أحسبها في بيت جيراني
أحلف ما فسرت آيه .. ولا فهمت المعاني
ضرسني صوتك يا رفعت .. وإنت إللي صوتك رهاوي

* * * * *

قعدت محبوس في ضيقه .. خايف تفوتني الغنيمه
ولو تدق الحريقه .. في البيت أقول: لا سليمة
وإن رحت لبعيد دقيقه .. أوجع وأسأل حليمة
وان كنت بغسل إديه .. أرجع في إيدي الرغاوي

* * * * *

وأقول يا عالم بحالنا .. أبدل موجاتك بغيرها
واحجب عن الناس عوارنا .. وكون بفضلك ساترها
نسمع نغم من فيينا .. ومصر نسمع جميرها
والكل سابحين في ملكك .. وفي الميدان السماوي

يا مــصــر مــفــرز وجــالك .٠. مــا تلتـقـيش فـيــه مـجــامل
أحلف بعــزة جــمــالك .٠. مــاركــونى بالعند عــامل
شــمــر دراعــه وبنى لك .٠. مــحطة من غــيــر فــرامل
تحــــود وتفــلت وتربـع .٠. زى الحــمــار الحــصــاوي

* * * * *

تركب بروكــسل عليــهــا .٠. زي الغـطا عــالمكبــه
تخــفي الحــلاوه إللي فــيــهــا .٠. مــاهــوش ركــوب المحــبــة
مــا تقــدرش تغلبــهــا .٠. دي مــن ممــالــك أوروبــا
لا لــك مــدافع تجــيــرك .٠. ولاتفــيــد الشــكاوي

* * * * *

يا للي بنيــتم مــحطه .٠. لــلدينا تســمع وتحــكم
مــا لــكم بديتم بغــلطــه .٠. جــابت على العكس ريحكم
وضــاع أدانكم في مــالطه .٠. أكــمنه من فــوق سطوحكم
والله الفــونوغــراف بدالهــا .٠. يــنــفــع ويمــنــع بــلاوي

* * * * *

اقرأه لترى الشجن والوجد فى قصيدة «التغريبة» التى حكى فيها حكايته وكيف كان فتانا ثقافته عربية إسلامية وعينه عربية إسلامية.. وقرأه فى «بساط الريح» التى غناها فريد الأطرش، هى فكرة قومية عربية.. حيث يذهب إلى كل بلد عربى ويذكر بلسانه أقوال أستاذه:

غــلبــت أقــطــع تــذاكــر .٠. وشــبــعت يا ربى غــربة
بين الشــطـوط والبــواخــر .٠. وبــيــن بــلادنــا لأوروبــا
وقــولتــه عــشــان أبقى أســافــر .٠. إيــاك الاقــيــلى تــربــة

فيها أجاور معاوية .. واصبح حماية أمية

* * * * *

جاورت قاسيون وجرته .. توحش ولافيهش حاجة
وعزرائيل انتظرته .. ماجاش، وكأنه خواجة
نافخ وسايق إمارته .. وقاللى شوف السماجة
البر تحت انتدابنا .. أخرج دى ما هيش وسية

* * * * *

رجعت للبحر تايه .. مقهور وراجع فرنسا
وفى بقى طعم المدانى .. فاكره وأنا عمرى ما أنسى
وإن رحت تونس، فانى .. عذاب أنا والتوانسة
جملان -المندوب السامى .. محضر مدافن للأمة، والأمة حية

* * * * *

فى بورسعيد السفينة .. دست تفرغ وتملى
والبياعين حوطونا .. بكارت بستان وعمله
لكن بوليس المدينة .. وماتفوتش من جنبه نملة
يا بورسعيد والله حاصره .. ولسه يا إسكندرية

* * * * *

هتف بى هاتف وقاللى .. أنزل ومن غير عزومه
أنزل دى ساعة تجلى .. فيها الشياطين فى نومه
أنزل ده ربك تملى .. فوقك وفوق الحكومة
نطيت فى ستر المهيمن .. للشط، ياحكمدارية.

* * * * *

وأقـــولكم بـالصــــــراحـــــة .٠. إلـــى فـــى زمـنـــا قـــلـــيـلـــة
عــشـــرين سنة فى الســيـــاحــة .٠. باشـــوف مناظر جـــمـليـــة
مـــــاشـــــوفت يا قلبى راحـــة .٠. فـى دى الـسـنـيـن الـطـويـلـة
إلا أمـــا شـــوفت البـــراقع .٠. والـلـبـــدة والجـــــلابيـــــة

* * * * *

هذا عمنا بيرم التونسى.. قرأته وهضمته.

- السؤال المحير وقد سأله أيضًا صلاح عيسى فى تقديمه لمذكراتك، كيف حدثت هذه المعجزة.. من الذى حول هذا الكائن الجذاب خفيف الروح المؤهل تمامًا لكى يكون نصابًا دوليًا يبيع شعره فى أسواق النخاسة والموالد وسراديب القصور إلى يد مرفوعة بالواجب اليومى ضد المرحلة؟

- السر فى الناس، فقد وضعنى حجازى فى السكة الصحيحة فبدأت أقابل عمك عبد الله النديم وأخناتون وسمعان الخراز ومارى جرجس والسيدة نفيسة والحسين وعمر مكرم ومحمدعلى وإسماعيل، وعرفت أنى مولود ومتربى فى مملكة.. مصر هذه مملكة... حين تخرج مبدع فى ناحية من نواحى الحياة لابد أن يكون هو الملك... ليس لديها أنصاف حلول، ولا أنصاف ألوان.... لا تحب اللون الرمادى.

الله يرحمه زكى عمر شاعر الفلاحين الذى مات مظلومًا كتب قصيدة فى أمه وتحولت إلى مصر مثل قصيدتى «يامه يابهية» كتبتها فى أمى يقول فيها سيد عمر:

مـــا كـــانتش تحب اللون البـــاهت .٠. مـــاكـــانتش تحب الميـــة الفـــاترة
وكــــانت لما بتكره تـكره مـــــوت .٠. وأمـــــا تحب تحب صــــبـــــابه
وأمـــا بتـــحـــزن تبـــقى دبابة .٠. وأما بتفرح يبقى الفرح على البوابة
كـــــــانت زى الـشـــــــمـــس .٠. وكانت لما بتـغـضب تبـقى مـهـابة

رحمها الله

- خلافات بينك وبين الشيخ إمام الأول بسبب فؤاد قاعود والثانى بسبب سفركم لباريس عام١٩٨٥ .. أليس غريبًا هجومك على رجل كان رفيق حياة؟

- عمرى ماهاجمت إمام.. لم أهاجم إمام فى حياتى.

- كيف أليس أنت الذى وصفته فى مذكراتك بأنه اغتصب وهو طفل صغير... وأنه حين تزوج لم يستطع أن ينام مع زوجته وأنه أصيب بعجز جنسى؟

- إننى أحكى ما حدث.. حين يغتصب وهو طفل أعمى جاء به أبيه إلى القاهرة وألقى به فيها ثم تركه وحيدًا ينام فى مسجد سيدنا الحسين ويأخذونه فى المقابر يغتصبونه .. هذا ليس هجومًا .هذا ماحدث لهذا الفنان.

الناس أخذت الأمر بسطحية... وتفاهة هذا الفنان العملاق الذى ترك كل هذا التراث العظيم فعلوا فيه هذا وهو طفل... ولو تعرضنا لمثل ظروفه لحدث معنا مثله... إننى لا أستطيع أن أهاجم إمام... إمام روحى... نصفى الثانى..

- رغم أن عبد الناصر والسادات اعتقلاك إلا أن حسنى مبارك لم يعتقلك رغم أنك تهاجمه وابنه باستمرار... فما السر فى هذا؟

- والله اسأله هو.. هوقدم الخير بصراحة... وقال لك المثل« من قدم السبت يلقى الأحد قدامه»... فالرئيس مبارك فى حركة غريبة فى بداية تسلمه الحكم، حين قال سأكمل فترة الرئيس السادات وأمشى ولن أستمر فى الحكم، أفرج عن كل المسجونين السياسيين ماعدا أنا ولا أفهم لماذا؟ ولكن كنت سعيد جدًا أن مبارك جاء إلى الحكم لأن السادات كان فقد أهليته لأن يحكم مصر... بل أصبح لايصلح لأن يكون رئيسًا لأرشيف مثلاً... وبدأ يشتم فى الناس ويعتقل فيهم... ولما جاء حسنى مبارك وأفرج على المعتقلين رغم أنه لم يفرج عنى.

- ولماذا لم يفرج عنك ؟

- اسأله هو... لا أعرف..

- ومتى خرجت؟

- بعد توليه الحكم بستة شهور، وفرحت لأن التغيير حياة والثبات موت، وعمنا الإمام الشافعي يقول فى هذا الأمر:

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه . ° . وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده . ° . إن سال طاب، وإن لم يجرى لم يطب

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست . ° . والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والتبر كالتراب ملقٌ فى أماكنه . ° . والعود في أرضه نوع من الحطب

بعض الكتاب يرون أن هذا هو عصر الحريات وأنك تكتب ما تريد... ولا أحد يتعرض لواحد مثلك مثلاً؟

- وهل هذه صفقة مثلاً... ولو عصر الحريات فعلاً، ولو هناك حرية أمسك بواحد من السلطة وأذهب وإياه إلى القسم الشرطة، ووكيل النيابة يحجزه وأقدم ضده مستندات تثبت أنه مجرم.. هذه هى الحريات.

الحريات والديمقراطية هى تداول السلطة... إنما حين يجلس الوزير على كرسيه عشرين عامًا ويجلس رئيس الجمهورية ثلاثين عامًا فكم عامًا يجلس فيها الملك.

- هل كنت ترى السادات ساخرًا؟

كنت أراه ساخرًا... وقد أغاظنى جدًا بالتنازلات التى قدمها... وقعد يكايد مثل شغل النسوان البلدى، يقول: لو الأمريكان مش عايزين قاعدة هنا، هاديهم قاعده هنا»، أليس هذا عيبًا... هل هذا مستوى خطاب رئيس جمهورية مصر العربية التى قال عنها القرآن « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى»، على لسان فرعون، أى جنة باعتراف ربنا... لايجوز أن يجلس على قمتها جزار أوقتال قتلة.. جنة يجلس عليها شاعر أو جناينى...

لقد اختلفت مع عبد الناصر واختلفت مع السادات، وفى خلافى مع عبد الناصر

اتضح أننى كنت على حق بدليل أن الذى اختلفنا عليه هو الذى جاء بالسادات وجاء بحسنى مبارك بعد ذلك، وجاء بيوسف والى وصفوت الشريف وكمال الشاذلى وفتحى سرور. ـ هل لايخرجوا إلا من رحم خطأ.

ـ من أين جاء لك لفظ شحاته المسل؟

ـ كنت فى حالة شعر؟ منفصل فيها عن العالم كله، والمرحوم كان كوميدى وكان جبار.

ـ هل كان يضحكك.

ـ طبعًا كنت أضحك عليه... عارف ماذا كنت أفعل؟

ـ ماذا ؟

ـ كنت أنزل بالتلفزيون تحت فى الحارة أمام الباب وأغلق الصوت... وتتفرج عليه..حركاته تموت من الضحك.

ـ وتقول فى حوار أجرته معك النيويورك تايمز: «أتحدى أى واحد من أصحاب الجلالة والفخامة من الملوك والرؤساء العرب أن يقف فى الشارع لمدة خمس دقائق دون حراسة» ...

ـ هاجمتك جريدة «صوت الأمة» عام ٢٠٠٢ عقب زيارتك لبيروت ووصفتك بأنك واحد من يتامى السادات، وأنه انتهى عصرك ولم تعد لك فائدة الآن.. وأنك تحاول إثارة الغبار حولك بانتقادك هيكل وأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب وصلاح جاهين وسعاد حسنى.

ـ أليس غبار... متى قيل هذا الكلام؟

ـ عام ٢٠٠٢.

ـ واليوم نحن سنة كم؟

ـ ٢٠٠٦؟ (وقت إجراء الحوار)

ـ ولكنى مازلت موجودًا.. حاجة ضخمة لها مكانتها وهذا هو ردى عليهم .. وقد

هاجموني عام ١٩٦٨وسلطوا عليّ كلابهم وسلطوا عليّ الصحفيين المخبرين وكانوا يريدون أن يؤجروا صفحات لى للرد عليهم لكنى كنت أختار القصيدة لترد عليهم، لو تفرغت لمثل هؤلاء لما كتبت شيئًا... وإننى أقول الآن بكل ارتياح إننى أنجزت مشروعى الشعرى بمنتهى الشجاعة والنظافة والنزاهة.

- ولماذا وصفت هؤلاء العباقرة العظام بالأوصاف التالية:

- صلاح جاهين السلطة؟

- صلاح جاهين كان شعر السلطة، إننى معجب به جدًا، ولى رأى يغضب منه إخواننا الناصريين، وهو أن صلاح جاهين هو الذى صنع عبد الناصر وليس العكس... هو الذى قدم لنا عبد الناصر بهذه الصورة الجميلة... كان جاهين فنانا كبيرا ولكنه لم يكن فنان الشعب المصرى مثل النديم مثلاً.

- لكنه كان شاعر الثورة وليس السلطة وغنى للثورة وليس للسلطة؟

- وأين هى الثورة .وأين أغانيه الآن، لو غنى للناس لظلت أغانيه موجودة حتى الآن... الثورة خلاص كل سنة وإنت طيب .. غناء صلاح جاهين.. انتهى خلاص إنما شعره العظيم لا ينتهى.

وقلت هيكل بيتباع

- هو الذى قال إنه يكتب الكلمة بخمسة دولارات... أليس هذا بيعًا.

- وقلت أن عبد الحليم تنكر لأهله وغنى على الشعب؟

- طبعًا غنى على الشعب ، ولم تكن له علاقة بالحلوات ومن فيها... أعرفه كويس وكنت زميله فى الملجأ وحين ذهبت له أنا ومحمد أخى حاول يعمل ما يعرفنيش، ذهبت إليه من طرف خاله الحاج متولى عماشة، وكان معى- بعيد عنك - كشكول مليان أغان وعمل أنه بيحاول يفتكرنى وجلست وأخذت واجبى وخلاص انتهى الأمر... ومن حسن حظى أنى وجدت عنده ملحن جميل جدًا اسمه محمود كامل-رحمه الله- ومعه مغنى مالوش حل اسمه عبد الرءوف إسماعيل، وقد تآمر عليه عبد الحليم وأرسله الكويت

ليعمل مدرس موسيقى حتى لاينافسه ويتعبه، وكان كامل يسمع عبد الحليم لحن هو «وكان العشم غير كده، يهجر أعز حبيب، مكتوب ولما القدر لقيت لجرحه طبيب».

ـ لماذا تراجعت عن ترشيح نفسك لرئاسة الجمهورية؟

ـ لم أتراجع ولكن لأنه ما ينفعش... المطلوب ٢٥٠ عضو مجلس شعب يمضو لى ولن يوجدوا .

ـ ترشح من المثقفين أيضًا نوال السعداوى وسعد الدين إبراهيم... كيف ترى الفرق بينكما؟

ـ الحقيقة مش فرق، أنا لاأرى أى وجه للمقارنة بيننا... أنا من حتة وهما من حتة تانية خالص.

ـ لماذا لم تصدق محمد مهدى عاكف حين أعلن عن طرح فكرة إرسال عشرة آلاف مجند من الإخوان إلى لبنان أثناء الحرب الأخيرة بين حسن نصر الله وإسرائيل؟

ـ هاقد انتهت الحرب... هل أرسل شيئًا... لم يحدث...

ـ وما رأيك فى الإخوان المسلمين؟

ـ هم ليسوا أحسن من السلطة كثيرًا ولكنهم يتميزون عن السلطة بأن أعضاءهم الموجودين فى مجلس الشعب الناس هم الذين أتوا بهم... عكس أعضاء الحزب الوطنى.

ـ هل يضحكك مبارك؟

ـ لا .. منكد علينا كلنا... حكمه دمه تقيل.. يده تقيله على الناس.. لا رحمة عنده، كأنه ليس فلاحًا... كأنه ليس من كفر مصيلحة، لى أصدقاء فى كفر مصيلحة مثل البلسم... الفلاح المنوفى أول إنسان زرع الأرض فى التاريخ.

ـ وما الذى أوصله لهذه الدرجة؟

ـ السلطة والناس... والمال حين يكون سحتًا .

- هل تعتقد أن جمال مبارك سيتولى حكم مصر؟

- المسألة ليست فى اعتقادى... وقد أعجبنى مرة فهمى هويدى حين كتب لجمال مبارك يقول له نحن لا يد لنا فى أن تجيئ أو لا تجيئ.. ولكننا نرجوك ألا تكشر لنا فى الصور وتنظر لنا باحتقار... ابتسم.

- لماذا تأخذ موقف دائم من عبد الرحمن الأبنودى؟

- حين كنت فى معتقل القلعة وشاهدته وشعراوى جمعة فى التلفزيون وشعراوى جمعة يقول له : قال إحنا ياعبد الرحمن بنحبس الشعراء، فيقول له باللهجة الصعيدية: كيف يا سيادة الوزير ما آنى جنبك أهو...

- وهذا ثأر كان لابد أن أخلصه لأنى كنت متعلق بالأمل ومحاه.

- وكيف تراه الآن؟

- لاأعرف عنه شيئاً... أعتقد أنه بطل يكتب شعرا، ولم يعد بالنسبة لى شيئاً حيوياً، بدلاً منه أقرأ فؤاد حداد وبيرم وصلاح جاهين... عندى شعراء كثيرون غيره .. ولكنى أعرف أنه صديق جمال وعلاء مبارك وبيطلع معاهم فى الصور وكان فى مدرسة المساعى المشكورة أثناء ترشيح الرئيس لنفسه... فهل هذه مواقف سياسية له أم سكر بليمون..!!

- «فرفور» الشهير بـ «فؤاد معوض».

- رجاء النقاش جاء بى من على القهوة.. وعادل حمودة جاء بى من القرافة...!!

- أمى .. هى أستاذتى فى الكتابة الساخرة

- حكيم دعاية جيدة لشركة رفو.. و«آه» خالد عجاج أحسن من «آه» العيانين فى الدمرداش؟

□ □ □

يرسم الضحكة على الشفاه بينما هو يعانى الإحباط لحد الاكتئاب من الأصوات التى يستمع إليها ومن الممثلين الذين يشاهدهم.. وهو لا يهدف إلى إضحاكك بالدرجة الأولى حين ينتقد الفنانين ولكنه يكتب مغتاظًا مما يفعلون فتأتى السخرية فى عباراته كالقنابل، وأنا مع وصف خيرى شلبى له- فى مقال غير منشور- بأن الصحافة كسبته والتمثيل خسره حيث يقول: «بعض الأصدقاء- من الكاتبين أو القارئين- يطلقون على فؤاد معوض لقب الكاتب الساخر» أما هو نفسه فيطلق على نفسه لقد «فرفور».

أما أنا فهو فى نظرى فنان بالدرجة الأولى، فنان عصىّ على الانضواء تحت مظلة معينة كأنماط التعبير المتعارف عليها.

وإذا كان قد اتخذ من الكتابة الصحفية أداة للتعبير عن نفسه فإنه قد خسر، وكسبت الصحافة.. ولو أنه اتجه للتمثيل منذ وقت مبكر لكان أحد ألمع نجوم الفكاهة فى المسرح والسينما والتلفزيون والإذاعة، سيَّما وأنه يملك من المقومات الشكلية والموضوعية ما يؤهله لذلك ، فشكله جميل جدًا، وسيم الملامح والتقاطيع، ذو قوام رشيق قابل للياقة البدنية مما تحتاجها كافة الأدوار، كما أنه مصرى السمات والروح، ناهيك عن موهبة التشخيص التى يعرفها عنه كل من يقترب منه.. بل إن الطاقة التمثيلية عنده أقوى مما عند بعض من النجوم اللامعين باسم الفكاهة وهم لايملكون منها إلا الصفاقة والتناحة...»

أما فؤاد معوض فإنه يضحك فنانى الكوميديا أنفسهم...

إن هؤلاء الذين احترفوا الفكاهة وتخصصوا فى إضحاك الناس، لا يضحكهم إلا فؤاد معوض، يضحكهم حتى النخاع، فى قعداتهم الخاصة، ولعله وهو يضحكهم بصفاء يبث فيهم طاقة فكاهية خلاقة، ويوجههم- دون أن يقصد إلى مكامن الفكاهة فى الحياة، وإلى الحكمة المخزونة فى صدور البشر».

وعن توصيف كلمة فرفور يقول خيرى شلبى« قماشة الفرفور التى إن أردنا لها تمثيلاً بدينًا وروحيًا لالتمسناها فى شخصية الممثل الراحل عبد السلام محمد ، ولو أردنا لها تمثيلاً وتراثيًا لالتمسناها فى شخصية فؤاد معوض.

شخصية الفرفور ليست من اختراع يوسف إدريس كما قد يتصور البعض، إنما هى نمط شعبى موجود فى كل الأمم بأسماء مختلفة، ويكثر فى مصر، فى جميع البلدان والقرى، فى الحوارى والشوارع، فى العزب، والكفور، وعلى مستويات متعددة من الثقافة والوعى والذكاء، ومستويات متباينة من الموهبة، وقد يكون الفرفور وزيرًا أو عالمًا أو أديبًا، وقد يكون خادمًا فقيرًا ، أو معدمًا، ولربما كان الفقير المعدم أكثر قدرة على النفاذ والنجاح فى الإضحاك، وهذا هو المرجح، فالفقير المعدم أقرب إلى الفرفورية من غيره، لأنه لاشىء عنده يبكى عليه...

الفرفورية -إذن- كما يعرفها الشعب المصرى، روح وفلسفة وتطهير، وليست مجرد تهريج وهزل.. ولهذا فالفرفور أكبر من الممثل الكوميدى، وأوسع من الكاتب الساخر، إذ أنه يعتبر مصدرًا من مصادر الفكاهة يأخذ منه هذا وذاك أفكارًا ومفردات.

والفرفور نوعان: أحدهما زاعق، والآخر ناعم، الأول لا يتوهج إلا فى سرادق حيث يجتمع حشد كبير أو صغير فيحدث التفاعل بينه وبين المجموع، ويحدث الاحتكاك الذى يولد عند الفرفور بوارق ومفرقعات داوية يضحك لها الجميع حتى الفرافرة، حتى يفقدون وقارهم. أما النوع الثانى- الهادئ الناعم- فإنه يتوهج على الدوام، فى كل وقت فى أى مكان تحت أى ظرف، مع أى ناس، لأن الفكاهة عنده تنبع من الداخل، من داخله هو، نتيجة احتكاكه الطويل بالناس فى الشوارع والحوارى والمقاهى، وأماكن العمل والأسواق، وخبرته فى الصعلكة، تجربته مع العوز والحاجة، أو جلوسه الطويل بين الكتب المتنوعة.

وإلى هذا النوع الثانى ينتسب فؤاد معوض، ومن قبله مع تفاوت فى المستوى الاجتماعى والظروف الذاتية الخاصة- كل من الروائى العظيم نجيب محفوظ، والمثقف الشهير حفنى بك ناصف، والفكاهة عند هؤلاء ناعمة، لماحة، ذكية، موجعة أحيانًا، موجزة، الفكرة فيها أوضح من المفارقة اللفظية، والمعنى أقوى من الفرقعة.

أما عن بداياته وإصداره المجلات الفكاهية فيقول فرفور الشهير بفؤاد معوض: «أيامها كنت رئيسًا لجماعة الصحافة بمدرسة روض الفرج الثانوية، والعمر لم يتجاوز السادسة عشرة، وأحلم لمستقبلى بأن أكون صحفيًا عظيمًا وفخيمًا ومشهورًا يشار إليه بالمانشتات كما محمد التابعى، ولاأقل ، خاصة أننى أمتلك من مواهب التابعى ومن البراعة التى يتقنها ومن الفراسة والنصاحة ما يجعلنا كذلك!

الفارق البسيط أن جيوب التابعى عامرة بالفلوس وجيوب العبد لله عامرة بالخروم -جمع خرم- فمن أين لنا بتكاليف المجلة التى ننوى إصدارها ، وحتى هدانا الله إلى فكرة الاقتصاد من مصروفنا اليومى الذى لم يكن يتعدى «البريزة» فى حينه.. رحت أضع القرش فوق القرش حتى صار معى مبلغ وقدره عشرة جنيهات ناولتها لصاحب مطبعة فى شبرا اسمه مسعد صادق، وطبع لى ألف نسخة من العدد الأول الذى قمت بتوزيعه على باعة الصحف وسط البلد وعلى طلبة المدارس المجاورة وبعض الأعداد بواسطة البريد لأسماء اخترتها من هواة الأدب والصحافة كانت تنشرها المجلات فى أبواب التعارف والمراسلة حتى نفدت الكمية بالكامل وقبضنا ثمنها وهو ما جعلنا بعد ذلك نفكر فى إصدار العدد الثانى والثالث واللى بعده.. وأيضًا نحلم بـ«شوال» الفلوس الذى سينعش جيوبنا من هذا الرواج وذلك الانتشار، وربما يسعدنا الحظ أكثر فنصبح مثل على ومصطفى أمين من أصحاب المؤسسات الصحفية.. و...

يا سبحان الله على الدنيا وعلى هذا العالم الغريب المليء بالمتناقضات.. تظل تحلم وتتمنى ليجيء من يضرب لك هذه الأحلام بـ «الشلوت» ، وعلقه ساخنة من الوالد -رحمه الله- بسبب تركنا المذاكرة وتفرغنا طيلة الوقت لهذا العبث الذى لن نجنى من ورائه إلا الفشل والسقوط من حالق، وإذا ما تم ذلك فليس هناك إلا الطرد من البيت والنوم على الرصيف .. وما أصعب الرصيف وصقيعه فى برد طوبة.. وزعبيبه أمشير..

ومن آخر ضحكة حتى التسعينيات مشوار طويل حيث أصدر فى ١٩٩٠مجلة كاريكاتير التى كان مديرًا لتحريرها ورئيس تحريرها طوغان ومصطفى حسين وبعد ٢٣ عددا بالتمام والكمال تركها.. وعن السبب يقول: «كان السبب واهيًا للغاية، مضحكًا

للغايتين عندما حضر مدير الإعلانات إلى مكتبى.. رجل بكرش.. أصلع الرأس، ودوسيه تحت إبطه، وماكيت صفحة كاملة عن إعلان بعشرة آلاف جنيه يريد نشره فى الصفحة الأخيرة عليه توقيع صاحب المجلة وتأشيره بالقلم الأحمر (ينشر فوراً للأهمية) وكان الإعلان عن وفاة أحد الأثرياء والنعى باللون الأسود تتصدره صورة الميت وكل أسماء العائلة الكريمة بما فيها الأنجال والأصهار، بعضهم موجود ومقيم والبعض الآخر على سفر.. وتصوروا ذلك فى مجلة ضاحكة أرادوا أن يحولوها عن مدارها فى الضحك والفرفشة والانبساط إلى(قرافة) يجلس على بابها مقرئ أعمى،.. منتهى الغرابة والاندهاش وضحك كالبكاء.

ورفض فرفور نشر الإعلان ثم ترك«كاريكاتير» بلا رجعة...

وقد وعد القارئ بكتاب عن المجلات الساخرة لكنه لم يصدره.

- أين كتابك عن المجلات الساخرة الذى وعدت القارئ به؟

- لم يظهر لأن بعض الناشرين فى مصر حرامية، فقد عرضت الكتاب على أحدهم فقال لى سوف أعطيك ألف جنيه.. رغم أن الجهد الذى بذلته فى هذا الكتاب يساوى ملايين، لأنى لكى أجمع هذه المادة من المجلات القديمة كنت أدفع فلوس لناس فى دار الكتب يصوروا لى هذه المجلات... هذه الفلوس تتعدى الخمسة آلاف جنيه. ولازال الكتاب عندى.

- ما الذى تقدمه الكتابة الساخرة إلى المجتمع... ما الذى تضفيه لمجتمعها؟

- الكتابة الساخرة عبارة عن روشة دواء.. ممكن لو قرأها المسئولون لصلحوا أوضاع اقتصادية عديدة، ثم الكتابة الساخرة تشيل الهم من فوق صدور الناس، وعلاج لمشكلات موجودة فى المجتمع..

- حزب الوفد زمان كان بيطلع ١٤ مجلة فكاهية، مثل ابن البلد، المطرقة، وغيرها لأنهم كانوا يوصلون السياسة للناس فى نكتة... كانت فيه مجلات تهاجم الوفد.. فالوفد يطلع مجلة فكاهية وليس سياسية ليرد عليهم ...

- هل صحيح أن الكتاب الساخرين خيالهم أوسع من واقعهم الذى يعيشونه؟

- المسألة أن السخرية مثل العمارة فيها أساس وفيها هندسة وفيها مظهر. فخيال الكاتب الساخر يضفى على هذه الأشياء لمسته لكى تظهر فى النهاية بالشكل الذى يضحك .. والنكتة أيضًا لها شكل هندسى والبعض يسمى هذا خيالا أو فبركة ولكنها ليست كذلك .

- من الذين تعتبره أستاذك وقدوتك فى الكتابة الساخرة؟

- أمى.

- كانت ساخرة؟

- جدًا.. أمى من نفس فصيلة أم محمود السعدنى... كانت تتغلب على همومها اليومية بالضحك والسخرة، وكانت تضحك على كل شىء وكانت ربة منزل وكانت تقول لى : آدى دقنى لو فلحت يا بتاع البعكوكة، وأول مقال كتبته بعدما احترفت الصحافة كان عنوانه «آدينى فلحت يامه».

- ما أكبر مشكلة حدثت بينك وبينها؟

- لم تكن هناك مشاكل بينى وبين أمى قدر ما كانت خائفة على حين كانت أختى تقرأ لها مقالاتى، لأن أمى لم تكن تقرأ أو تكتب، فكانت تعلق أمى بعد نهاية المقال: خايفة عليه يسموه.. وكانت تقول لى دومًا: يابنى إوعى تأكل حاجة عند الناس دى لايحطوا لك سم... وكانت تخاف علىّ جدًا فى هذه المسألة، وكانت تعمل لى ساندويتشين لآخذهم معى فى المجلة التى كنت أعمل فيها وتنصحنى ألا آكل عند أحد.

- وما السر فى حكاية السم هذه، التى تكررها الأمهات الريفيات لأبنائها؟

لأن أم محمود السعدنى كانت حكت لها عن ناقد قديم اسمه محمد عبد المجيد حلمى وكان يعمل بمجلة المصرى، وكان يهاجم منيرة المهدية بشكل دائم، فقامت بسمه... وقد ترسخت الصورة فى ذهن أمى بأن أى أحد هايشتم أى فنانة أو راقصة ستقوم بوضع السم له.

- انتقلت مع عادل حمودة من جريدة صوت الأمة إلى الفجر ولم تظل فى صوت الأمة مثل عديدين؟

- لأن عادل حمودة أستاذ وفنان حقيقى وصديق عمر.. وإذا كان رجاء النقاش جاء بى من على قهوة إيزافيتش لكى أشتغل فى الصحافة أنا وسامى السلامونى وقدمنا لأحمد بهاء الدين فى دار الهلال فعادل حمودة جابنى من القرافة لأنى كنت اعتزلت المهنة وتوقفت عن الكتابة، أرسلت له مقالا فاحتفى به ونشره وأعطى له وضعه وفتح نفسى للشغل ثانى ورجعت، وعادل حمودة يقرأ مقالى حين تطبع الجريدة مثل أى قارئ عادي.. وهذا ما جعلنى أستمر معه بهذا الشكل فهو صحفى محترم وكاتب نجم ويحب يضع نجوما معه.. عادل حموده هوآخر رؤساء تحرير المدرسة المحترمة التى كان فيها أيام أحمد بهاء الدين وصلاح حافظ وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكل.

- لماذا ندر كتاب السخرة الآن؟

- زمان كنت تجد فتحى قورة وحسيب غباشى ومحمد عفيفى شاهين ومحمد عفيفى وطه حراز وحبيب مجلى ومأمون وكامل الشناوى وأحمد الألفى عطية.. كلهم كانوا فى زمن واحد.. تبحث عن أسماء الآن لا تجد .. كما أنى أصبحت أتضايق من كلمة الساخر لأنها أصبحت تطلق على عدد كبير من الكتاب لا علاقة لهم بالسخرية.

- اذكر لى كاتبا ساخرا يعجبك الآن؟

فيه إبراهيم عيسى.. ولا أعرف هل يأخذ باله من هذا أم لا .. أموت من الضحك كثيرًا على كتاباته .. أيضًا بلال فضل كاتب ساخر جميل أقرأ له.. وهناك محمد السيد محمد، وهناك محمد حلمى لو أخذ رؤساء التحرير بالهم منه سيكون من ألمع كتاب السخرية فى مصر.

- يقول عالم النفس البريطانى وليم ماكدوجال« إننا نضحك لأننا تعساء»هل أنت تعيش؟

- أحب هذه المقولة كثيرًا... وثم إن الولادة تعسة والحياة تعسة.. وبعد أربعين سنة من عملى بالصحافة ها أنا ذا ألتقى بك على القهوة وليس فى شاليه فى مارينا منصب

ولا شيء.. فالتماسة بالنسبة لى ليست نقص فلوس ولا شيء من هذا القيل ولكنها مولودة مع الإنسان.

- ما سر اكتئابك أربع سنوات؟

- لأنى حساس جدًا، وأظل أتفرج على الناس فى الشوارع فتؤلمنى مناظر التعاسة الموجودة فيهم فى ظل الاستبداد والفقر والزمن الذى تغير والصورة التى كانت حاضرة فى ذهنى عن الناس وغابت... كنت أرى الناس طول ما أنا مش تضحك لكن الحال تغير الآن تمامًا.. وقد نقلت لى هذه العدوى مثل الطبيب النفسى الذى ينتقل إليه المرض النفسى، لذلك فى أوروبا يعطون له أجازة إجبارية من المهنة لأنه يسمع مآسى ناس على طول... فأنا مولود معدى.

- ماذا عن علاقتك بالسعدنى وما هى صلة القرابة التى بينكما؟

- والدى منوفى وأمى صعيدية... وكان أبى مدرسا يتنقل من بلد لأخرى لذا ولد كل أخ من إخوتى فى بلد فأنا مثلاً مولود فى سوهاج، لى أخ مولود فى الزقازيق، أختى مولودة فى بلبيس، أخ مولود فى القاهرة، ووالدى ابن عم أم محمود السعدنى، فجدى معوض جد أم السعدنى، ورغم ذلك لم أحاول اللجوء لمحمود السعدنى وأنا أعمل فى المهنة، وذهبت للعمل فى صباح الخير وقابلت لويس جريس وكتبت، وبعد عملى بأربعة أشهر وجدت محمود السعدنى كتب عنى «إسلوب هذا الولد» فى مقال وقال فيه أننا من عائلة كلها حرامية فراخ وغفر مزلقانات ومدرسين إلزامى واكتسبنا السخرية من قعدات «الفسحة» والعائلة كلها فيها هذا الحس الساخر وأنا شتام وفؤاد معوض الواد الجديد ده شتام والفرق بين شتيمتى وشتيمة فؤاد معوض إن شتيمة فؤاد معوض ملفوفة فى ورق سلوفان وشتيمتى ملفوفة فى ورق لحمة.

وما ذكرياتك عن أم عم محمود السعدنى؟

أم عم محمود كان دمها خفيف جدًا، ويبدو أن محمود السعدنى ورث خفة الدم منها.. وكان لها قاموس فمثلاً تقول لك «يا واد إنت مالك قاعد زى الطبن كده» والطبن كلمة من اختراعها... أو تفتح الراديو على محطة الأغانى ولا فواصل بين الأغانى

فتجدها تقول لك: «هى المحطة دى كسبت الورقة» وتقصد أن المحطة كسبت ورقة اليناصيب ففرحانة بتغنى .

- قال عنك السعدنى« لو كان فرفور يحب الكتابة بنفس القدر الذى يحب به القعدات واللف فى عموم البلاد والقفش والتكيت على عباد الله من الناس أن نباهى به الأمم يوم افتتاح معرض لكتاب لكن فرفور- لسوء الحظ- كتب قليلاً وحكى كثيرًا؟

أنا كاتب مقل جدًا لأنى أزهق جدًا، وإذا وجدت رئيس تحرير يشطب لى كلمة أو يقول لى بلاش هذا المقال أترك المكان وأمشى، وقد صدمت برؤساء تحرير عديدين من الخائفين فطفشت، وكنت أعوض الكتابة بالقعدات وكان الكلام الذى أقوله فى هذه الجلسات عبارة عن مقال منشور.. وكنت فى هذا الوقت أكثر انتشارًا من الأهرام.

- بمعنى؟

- بمعنى أننى لو نشرت مقالاً فى الأهرام عدد محدود سيقرأه من قراء الأهرام ، لكن جلساتى فى المقاهى تضم أكثر من قراء الأهرام لذا فالجملة التى أقولها أجد مصر كلها ترددها فى الصباح، وكثيرًا جدًا من هذه التشنيعات «ودتنى فى داهية». ورقدت من الصحافة بسببها .

- مثل؟

- كنا فى مجلة الإذاعة وكان رئيس التحرير ثروت أباظة الذى قال: العيال التى تكتب بهذا الأسلوب لا تنفع.. وقال لى أكتب بلغة عربية فصحى فقلت له هو أنا سيبويه ولا ابن المقفع.. وتركت المجلة ومشيت، فارسل لى خطاب رفد وسامى السلامونى ونقلنا للاستعلامات فمشيت أشنع عليه فى كل مصر، وبعد ذلك عرض وزير الإعلام أحمد العطيفى على أحمد بهجت رئاسة التحرير... فأحمد بهجت اشترط رجوع سامى السلامونى وفؤاد معوض وظل اسم ثروت أباظة «ذروت أباظة» حسبما شنعت عليه.. بل إننى قمت بتفريغ عجلات سيارته الأربع ذات مرة..

- ألا يغضب الفنانون مما تكتبه عنهم ؟

ـ على العكس معظم الفنانين أصدقائى... وإخلاصى للمهنة وليس للصداقة... فمثلاً انتقدت عبد الحليم حافظ وعبد الوهاب ومها صبرى وعلى شفيق وأم كلثوم فى عز مجدهم، وكان عبد الحليم يحذر الناس منى ويقول لهم: ده بيدخل بيوتنا ويفشى أسرارنا... لا تدخلوه بيوتنا.. وبسبب إخلاصى للمهنة رفع علىّ ١٧ قضية قذف وتشيهر وكلهم حصلوا على البراءة.. وكان أشهرهم محرم فؤاد، حيث كتبت مقالا نقديا له لأنه أصابه الغرور وكان يقول أنا أحسن من عبد الوهاب ومن عبد الحليم وقلت فى نهاية المقال« ولقد ثبت أن محرم فؤاد مطرب دخله الغرور، ومن دخل فيه لا خير فيه»... ورفع على قضية وجاء بلبيب معوض محاميًا عنه ووقف لبيب فى المحكمة وقال هذا الكلام يقال عن الشاذين جنسيًا، فقال له رئيس المحكمة الدخول عائدة على الغرور، المهم حصلت على البراءة.

أيضًا قام برفع قضايا علىّ شمس البارودى ونادية الجندى وسهير رمزى والغزاوى- نقيب الممثلين- لكنى كنت أحصل على البراءة فى كل هذه القضايا.

ـ لكن الفنانين لا يكرهونك رغم هذا؟

ـ لأنى أنتقدهم بخفة ظل وبصراحة لذا كانوا يأخذونى بالأحضان عندما يلتقون بى ويضحكون على ما كتبته عنهم رغم القسوة.

ـ أصعب موقف تعرضت له بسبب نقدك لفنان؟

حين جاءت فايزة أحمد لمجلة الإذاعة لكى تضربنى فاستخبيت تحت المكتب؟ وبعدين أخذت تتكلم بصوت عالى ثم شتمتنى فطلعت لها من تحت المكتب وشتمتها بقسوة فأغمى عليها وجاءوا لها بالإسعاف وكان يوم.

ـ وفنانين الوقت الحالى الذين تنتقدهم؟

ـ أنا حزين لأنى أنتقد هؤلاء لأن كلهم هايفين وتافهين، وكنت أنتقد فنانين حقيقيين، أما الفنانون الآن فاحس أنهم بتوع ورنيش أومنادين سيارات وتجار نفتالين بلية وليسوا فنانيين ولا مطربين ولا دياولو.

- وما الذى أوصل الفن لهذه المرحلة من الانحطاط؟

- الزمن كله انحط... حتى الشخصية المصرية ضاعت فالمطبخ أصبح أمريكانى بعد صينية المسقعة وحلة الكوشرى وطاجن البامية... أصبح الأكل الآن كنتاكى وبرجر وأشياء من هذا القبيل والفن صار كذلك.. أصبح كله رابح صقر وجاسم العلى وعبده مغربى، ولم تعد لا أم كلثوم ولا شهرزاد ولا عبد الحليم حافظ ولا حتى عبد اللطيف التلبانى، وكلهم يقولون كلمات غريبة والزمن كله انحط.

- ومن الصوت الذى تستمع إليه من المطربين الحاليين؟

- أسمع حكيم باعتباره دعاية جديدة لشركة ريفو.. ومن المطربات نانسى عجرم حيث أقفل صوت التلفزيون واتفرج على جسمها.

- بهذه الطريقة إنت محتاج تسمع هيفاء وليس نانسى عجرم؟

- والله لو الطشت بيقول لها.. يقول لها تبطل مغنى وتريحنا.

- لماذا غاب الفن الشعبى؟

- لأنك لاتستطيع الآن أن تأكل حتة جبنة قديمة وشوية فول حراتى... صدرك يتعبك، لذا فالجيل كله يحتاج لمثل هذه الأغانى وليس للأغانى الدسمة.

- نفس الكلام كتبتوه عن عدوية فى بداياته؟

- على العكس عدوية كان يطربنى جدًا وتتضح قيمته الآن فى ظل هذه الأصوات.

- ألا يطرب شعبان عبد الرحيم؟

- شعبان عبارة عن نكتة سخيفة الناس تسمعها لعاشر مرة وتقول قديمة.

- وبالنسبة للكوميديا فى مصر فما رأيك فى محمد سعد؟

- محمد سعد كلما دخلت فيلم له أتف عليه، وبعدأن أخرج من الفيلم أتف على نفسى.

ـ من أفضل محمد سعد أم محمد هنيدى؟

ـ الدكتور مانعنى من أكل السمك والفرجة على محمد هنيدى .

ـ ما الفرق بين عادل إمام وسمير غانم ومحمد صبحى؟

ـ البدلة التى يرتديها كل منهم والكرافتة وتسريحة الشعر.

ـ من فيهم يضحكك؟

ـ قلت لك على الذين يضحكونى.

ـ هل لابنتك علاقة بالسخرية؟

ـ لا فهى تدرس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وليس لها علاقة بالكتابة أو خلافه.. لها علاقة بالأرقام.

ـ من يضحكك من نجوم الكوميديا؟!

ـ سعيد صالح ومحمد نجم.. حاليًا أحمد آدم لاغير!

ـ ومن يضحكك من الكتاب أو الصحفيين؟

ـ تضحكنى مقالات رجب البنا وأسامة سرايا البنا وسمير البنا ومحمد على إبراهيم البنا وكل أفراد عائلة البنا الموجودة على صفحات الجرائد القومية!

ـ قمت بالتمثيل فى فيلمين«حياة خطرة» أمام نبيلة عبيد و« البيوت أسرار» مع شكرى سرحان وليلى طاهر.. بعدها تركت مجال التمثيل لماذا؟!

ـ علشان عادل إمام ومحمود عبد العزيز ياكلوا عيش.

ـ هل صحيح أنك تزوجت من الفنانة وفاء سالم بطلة فيلم«النمر الأسود» كما نشرت جريدة الوفد أيامها؟

ـ لأ طبعًا.. لأنى لو أتجوزتها كنت قلت لك.. أنت مش غريب .

ـ من الذى قال« إن » الزواج أشبه بـ «برميل» من الزفت يطفو على سطحه قليل من

العسل؟!

- باين أنا!

- من هو مطربك المفضل؟

- محمد فوزى وعبد الوهاب وعبد الحليم ومحمد عبد المطلب ومحرم فؤاد وكل هذه الدفعة الغنائية من المطربين الأفاضل!

- ومن يعجبك من هؤلاء: حمادة هلال، محمد محيى، إيهاب توفيق، مصطفى قمر، محمد زياد، حلمى عبد الباقى؟!

- ولا واحد.. فقد تعددت الأصوات و«النشاز» واحد!

- وهل مايقدمه حميد الشاعرى وعمرو مصطفى وعمرو دياب من نغمات فى أغانيهم تعتبر ألحانا؟

- ما تدقش!

- كثير ممن تنتقدهم بأسلوبك الساخر من الفنانين يأتون لك لمعاتبتك على ما كتبته فتعتذر لهم بجملة أصبحت كالأكلشيه الثابت لكل فرد منهم... فما سر هذه الجملة!

- ذات يوم انتقدت المغنى عمرو دياب بقسوة على صفحات مجلة الإذاعة والتلفزيون التى كنت أعمل بها رئيسًا للقسم الفنى فجاء لمقابلتى ... وقبل أن أدعوه للجلوس أو لتناول القهوة وحتى قبل أن يفاتحنى فيما كتبت كنت أبدى له اعتذارى بـ « أنا عمرى ما كتبت كلمة وندمت عليها زى دى.. عاوزنى أعمل لك إيه علشان أصلح غلطتى؟! فقام الرجل مشكورًا بما قلته حتى التقى بالصدفة على باب التلفزيون بالمطرب مدحت صالح الذى بادره قائلاً: ياأخى فؤاد معوض ده بلطجى على الورق إنما تشوفه تلاقى واحد مهذب ورقيق ومؤدب جدًا.. مدحت قال له: ليه حصل إيه؟! فأجاب عمرو: رحت أعاتبه على اللى كتبه عنى قال لى عمرى ماكتبت كلمة وندمت عليها زى دى.. عاوزنى أعمل لك إيه علشان أصلح غلطتى؟! مدحت رد على الفور ضاحكًا : هو قالها لك ابن اللئيمة دا لسة قايلها لى الإسبوع إللى فات!

- وهل «هذه» هى السياسة التى تتبعها مع كل من يجىء لمعاتبتك الآن؟

- لأمش «هذه» فيه حاجات تانية كتير!

- ما هى أحب أغانى المطرب الراحل عبد الحليم حافظ إلى شخصك ؟

- يا قلبى خبى... حلوة ولا أغنى لك واحدة تانية؟!

- أحد النقاد الفنيين قال عن المغنى عمرو دياب بأنه سيكون مطربًا عالميًا .. على أى «سبيل» بنى هذا الناقد استنتاجه؟!

- على سبيل الهزار طبعًا ..!

- أصبح شكل الرغيف الذى نشرته لايسر عدوًا ولا حبيباً .. الرغيف مليان حاجات غريبة.. وشه أسود وقلبه إسود.. نفسى رغيف نظيف يستاهل أنى أحطه على عينى وأحلف وأقول وحياة دى النعمة!

- أنت عايز تاكل ولاتحلف؟!

- إذا سألتك أسئلة سياسية أخرى مثل رأيك فى الموقف المصرى تجاه ما يحدث فى لبنان وفلسطين أو سيناريو التوريث أو الاعتداء على المتظاهرين أو ارتفاع الأسعار... هل سترد على هذه الأسئلة بصراحة؟

- بصراحة لأ.. مش يمكن بعد كده الاقى نفسى فى ألف ولام وسين وجيم ونون!

- لو قلت لى إن جمال مبارك لايصلح لأن يكون رئيسًا للجمهورية لاعترفت لك بأنك بهذه الشجاعة قد أصبت «كبد» الحقيقة؟

- لا «كبد» ولا«فشة» الحقيقة خلينا نهزر أحسن!

- صديق صحفى من دفعتك حكى لى عن مغامراتك العاطفية فقال إنه كانت لك علاقات عاطفية مع نصف ممثلات الوسط الفنى أيام زمان... طيب مش حرام عليك تحرم ممثلات اليومين دول!!

- دهده! هى البلد مافيهاش رجاله غيرى ولا إيه؟!

- وياترى الصحة عاملة إيه دلوقتى؟

- بتكح زى ماأنت شايف كده!

- وما رأيك بصراحة فى صوت شعبان عبد الرحيم؟

- ما بـ «اسمعوش» على وزن ما أشربوش.

- هل من الممكن أن نطلق على شعبان عبد الرحيم لقب مطرب الشعب؟

- لأ طبعًا الشعب صاحبنا... بعدين يزعل!

- هل صحيح مايقال من أن الزواج تزداد حلاوته على مدار الأيام؟

- طبعًا بس بعد .. الطلاق!

- ما درجة القرابة بينك وبين المكتنة؟!

- تبقى مراتى!

- بجانب مشكلات اجتماعية واقتصادية كثيرة هناك مشكلة أخرى تسىء إلى مصر أكثر.. منظر المتسولين المنتشرين حاليًا أمام الفنادق والميادين والمتاحف والأجانب لا شغلة لهم إلا التقاط هذه الصور التى تسىء إلينا وإلى مصر المحروسة... قوللى لوسمحت إحنا ماعندناش قانون لمكافحة التسول؟!

- كان عندنا وواحد «شَحتُه»!

- أحد المطربين الجدد أقسم ذات مرة بأن ينتقم ممن يحبها بعد أن هجرته وقامت بالسخرية من صوته بقولها« ليه الحبيب يشتمنى ويزيد فى تهليله.. طب ودينى إن شفتة لا غنى له» من هو هذا المطرب يا ترى؟!

- مصطفى كامل ما فيش غيره!

- خالد عجاج لم يعجبنى شريطه الأخير خاصة عندما حاول بطريقته أن يغنى

الموال الشعبى ؟

- إزاى بتقول الكلام ده؟! دا بيقول الـ «آه» أحسن من أى واحد عيان فى مستشفى الدمرداش!

- للمرة العاشرة قبضوا على أحد الجزارين فى الاسبوع الماض متهمًا ببيع لحوم الكلاب على أنها لحوم عادية «بذمتك الراجل ده يبقى إيه»؟!

- يبقى ابن ستين كلب طبعاً!

- وما رأيك فى الأصوات النساطية التى تغنى ومنتشرة حالياً فى كل القنوات الفضائية؟!

- رحم الله شاعرنا الغنائى فتحى قورة الذى قال يومًا.. وكم ذا بمصر من المطربات ولكنه طرب كالبكا... إذا ما سمعت غناء لهن ظننت المغنى كلبكا..!

- فى النساء أيهما تفضل السمراوات أم الشقراوات؟!

- إللى موجود يا ابنى!

- هل يطربك هانى شاكر وكاظم ساهر؟

- هانى شاكر باسمعه لكنى لاأصدقه، واحد طالع يغنى« يامدوينى فى أحلى عذاب» أو أغانيه الرومانسية وهو « بصدغ» وتحس إنه لسه آكل ٦ إسكالوب وحلة محشى، ده لو متعذب هاتبقى الأنيميا وكلاه وسهر الليل والغنا معذبه وباين عليه بعكس عبد الحليم حافظ تصدقه لأنه معصور وباين عليه .

- أما كاظم الساهر لماأحب أسمعه أقرأ ديوان لنزار قبانى لأنى أقرأ شعر نزار قبانى بطريقتى وأحسن منه.

بلال فضل الذى وصفه السعدنى

بأنه طويل وعبيط وعايز عسلية:

- النكتة لا تضحكنى ولا تدهشنى!!

- الدكتور عبد الحليم قنديل وإبراهيم عيسى

انتزعا الحرية ولولاهما ما وجدت

كرم جبر يستحق أوسكار الموالسة

لم أحس بالشهرة إلا حين كتبت للسينما..!

وصفه عمنا الساخر الكبير محمود- شفاه الله - فى برنامج إذاعى مع عمر بطيشه قائلاً: «هو فى واد لما تشوفه شكله غريب قوى.. طويل قوى، وتخين قوى ، شكله عبيط. لما تشوفه تحس إنك عايز تديله عسلية لكن لما تقرا له تلاقيه صحفى جامد قوى.. وهيبقى ليه مستقبل كبير».

ولم يخطئ عمنا السعدنى فهو يعرف الموهبة ويقربها ويعرف قيمتها جيداً.. يعطيها الأمل والبهجة والصلابة.. وهكذا حلق بلال فضل وصار آخر عنقود مضحكى طوب الأرض، فهو ينتمى إلى طوبة صلاح جاهين ومحمود السعدنى على أن عزيز نيسين أبود الروحى ، ومع كل احترامى للرائع عزيز نيسين الذى قرأت له كل ما ترجم إلى العربية، إلا أن بلال فضل طوبة أخرى متفردة ضمن شجرة السعدنى وصلاح جاهين تزغزغ طوب الأرض المجاور لها دون أن يحس بالزغزغة، ولا تزغده كعادة مدعى السخرية الآن.. وهذا الفصيل يكتب القصة والرواية والمسرحية والفيلم والمقال ويعد البرامج،، فالسعدنى كتب روائع مسرحياته «فيضان النبع» و «عزبة بنيوتى» وغيرهما.. إلى جانب المقال والقصة القصيرة والرواية «السماء السوداء» و«جنة رضوان» ورباعية الولد الشقى وغيرها .. وصلاح جاهين إلى جانب رباعياته وقمره وكلمة سلامة وقصاقيص ورق كتب «زهرة فى موسكو» وغنى له عبد الحليم حافظ، وله أوبريتات «الليلة الكبيرة» و«القاهرة فى ألف عام» مع عبد الرحمن شوقى، وللسينما كتب «خلى بالك من زوزو» وكتب السيناريو لحلقات «هو وهى» وغيرها.

كذلك بلال فضل له مقالة «قلمين» فى صحيفة الدستور الذى تهز كراسى الأغبياء المتسلطين علينا.. ومع هذا الهز تهتز كروشنا ضحكاً وإعجاباً به وبقلمه الرشيق، وحتى حين كان يشرف على صفحة البريد فى الإصدار الأول من الدستور كانت ردرده صارخة كصرخات محمد عفيفى .

وتجده حين يكتب مجموعة قصصية مثل «بنى بجم» تجده يكتب بشكل آخر مختلف تماماً عن فن القصة.. لكن حواره يشبه حوار يحيى حقى فى «دماء وطين».. ذلك أن هناك عديدين يتوحدون لأن كتاباتهم عن الناس المغروسة فى الطين عكس العبقرى إحسان عبد القدوس مثلاً فكتاباته عن الناس مغروسة فى «البيسين».

وقد كتب بلال عشرات الأفلام السينمائية ومنها «حرامية فى كى جى تو» و «الباشا تلميذ» و «خالتى فرنسا» و«سيد العاطفى» و «وش إجرام» و «صايع بحر».

واستطاع خلق توليفة خاصة به ومختلفة عن السائد .. كما استطاع خلال فترة قصيرة أن يضع نجومية عديدين ممن الفنانين الذين شاركوا فى أعماله.. كما قدم كوميديا من نوع مختلف عن السائد وتتوق على نفسه فى فيلم «واحد من الناس» وجعل الجمهور يتقبل موت بطلة الفيلم بعد ثلث الساعة الأولى - منه شلبى «ويكتسح الفيلم كل الأفلام الموجودة معه، لكننا أردنا الاقتراب من عالمه الساحر الساحر.. عالم الكتابة لنعرف أى قالب صُبَّ فيه آخر عنقود الساخرين العظام.

كيف كانت بدايتك مع عالم الصحافة؟

- أول مكان تدربت فيه على الصحافة كان مكتب جريدة الحياة اللندنية، حيث كان يدرس لى الدكتور عمرو عبد السميع واختارنى معه فى مكتب الجريدة، ولكن التجربة لم تكتمل. أما أول محطة صحفية فى حياتى فكانت روز اليوسف.. حيث ذهبت لإجراء حوار مع إبراهيم عيسى كلفت به من قبل جريدة «صوت الجامعة» واختاروا بمناسبة العيد الفضى لكلية الإعلام المشاهير الذين تخرجوا فيها ونجحوا لنجرى معهم حوارات مثل إيمان الطوخى وعماد الدين أديب وإبراهيم عيسى، فاخترت إبراهيم عيسى وإيمان الطوخى، ولما انتهيت من إجراء حوارى مع إبراهيم عيسى قال لى: هل تعرف تعمل تحقيقا صحفيا عن التطرف فى المدينة الجامعية قلت له: أعرف، وكتبت تحقيقاً وتوقعت عدم نشره .. لكن كنت من عشاق روز اليوسف أيام تولى عادل حمودة تحريرها.. واشتريت المجلة فوجدت التحقيق الرئيسى فى العدد منشورا باسمى، وهم لا يعرفون اسمى بالكامل فكتبوا بلال حسن، تيمنا بالصحفى الفلسطينى بلال الحسن، ودهشت فرحاً وبدأت أعمل فى روز اليوسف.. واستمرت الرحلة.

متى اكتشفت قدرتك على السخرية أو الكتابة الساخرة؟

- بدأت المسألة معى منذ المرحلة الثانوية، وقعت فى غرام محمود السعدنى وأحمد رجب.. كنت أكتب وأرسل للجرائد، وأكتشفت أنها تعجب أصدقائى وتضحكهم، لكن أول مرة أحسست أن المسألة جد كانت فى الدستور حيث كنت أشرف على صفحة بريد القراء، وكانت ردودى تحمل سخرية فى تعليقات صغيرة.. وكنت أكتب عامودا به كلام فارغ، لأننا نتصور أنه حين تتاح لنا كتابة عامود نكتب فيها عن أشجاننا وقصص حبناً.. فلم أكتب فيه سوى الكلام الفارغ، وبعد ذلك بدأت الناس تنظر إلى ما أكتبه على أنه كتابة ساخرة، ولم أكن أقصد هذا.

هل كنت ساخراً فى طفولتك؟

- أنا ابن أسرة السخرية منهجها فى الحياة خاصة أسرة والدتى.. جدتى رحمها الله وأخوالى.. واقع حياتناً فى الإسكندرية حيث نشأت كان واقعاً شديد القسوة، جدى كان فراش سينما وجدتى كانت خياطة تصرف على اسرتنا بعد رحيل جدى، وكانت لديها سخرية لاذاعة قاسية لمعيشتها وللأحوال التى نعيشها.. كما أن الحياة فى الإسكندرية حياة صاخبة ومليئة بخفة الدم، وكنت دائم «التريقة» وطويل اللسان.

ووالدتك؟

- لم تكن ساخرة، ولكنها كانت مادة لطيفة للتريقة.. ممكن تحكى أشياء هى غير منتبهة أن هذه الأشياء التى تحكيها تضحك، وهى تبكى طوال الوقت، لدرجة أن تفقدك التعاطف معها وتتحول إلى مادة لضحكك.

رغم قراءاتك لأدب ساخر مترجم، واقتناعك أن عزيز نيسين هو أبوك الروحى إلا أن الغالب على كتاباتك الساخرة لغة الشارع المصرى؟

- كل كاتب له طعم مختلف.. ولا يعقل أن تكون نسخة مكررة من الآخرين.. إننى أحاول أن أوازن بين اللغة العربية الفصحى غير المتقعرة ولغة الناس فى الشارع.. المتن بالفصحى، والحوار بالعامية.. مثل السينما.. وهذا ما نقلته من السينما إلى الكتابة الساخرة والعكس، لابد أن تكون لغتك هى لغة الشخصية.. ولا يوجد منهج لدى فى هذه المسألة.

إذن ما سر اتهام النقاد للغة فيلمك «خالتى فرنسا» بأنها «انحطاط لغوى».

- أى عمل عام ملك للناس جميعاً.. ولكنى أأسف على انحدار مستوى النقد فى مصر لأنه لو كان لديهم فهم لعرفوا أن هذه هى لغة الشخصيات وليست لغة الكاتب وأن فن الحوار أداة فنية.. فحين تتكلم بطلة راقصة أو «شرشوحة» هل أجعلها تتكلم بلسان سيبويه مثلاً.. وكان الأمر فى الربع الأول من الفيلم، ولما بدأت الشخصية تتغير تغيرت لغتها معها وصولاً إلى آخر الفيلم الذى انتهت لغتها الأولى تماماً بنهايته.

ولكنك للأسف فى مصر مطالب بأن تشرح للنقاد بديهيات الفن بدلاً من أن النقاد يشرحونها للجمهور، أصبحت الوصاية الأخلاقية من النقاد أنفسهم.. وأستغرب أن النقاد يهاجمون الأفلام على أنها ليس بها مشاهد جنس وأنها سينما نظيفة، ثم يغضبون من الألفاظ الجريئة أو الواقعية، لذا تجد أن النقاد لديهم انفصام فى الشخصية ما بين رغبتهم بوجود المشاهد الجنسية، وما بين رفضهم للألفاظ الشعبية التى أسميها واقعية وحراقة.

سنعود إلى مسألة السينما مرة أخرى لكنى أريد أن أسألك: كتبت ثلاث مقالات فى جريدة الأهرام ثم توقفت .. لماذا؟

- أشكر الرغبة النبيلة التى كانت لدى الأستاذ أسامة سرايا لأن أكتب، لكنى لست شبه الأهرام ولا الأهرام شبهى.. وهناك عديدون غضبوا واعتبروا أن هذه صحيفة عريقة وراقية وأنا كتابتى ليست كذلك وهنيئاً لهم بالرقى، وأنا لم أطلب من أحد أن أكتب ولم أعرض نفسى على أحد .. هم طلبوا منى وذهبت بحسن نية، وكنت أكتب المقال يحذف نصفه رغم أنى كنت ملتزماً.. وكانت تأتى على المقال ردود فعل غاضبة ومعجبة.. وكتبت المقالات الثلاث وأحسست أن الوضع خطأ واستمريت لثلاث مقالات عناداً فى روز اليوسف والحملة التى قامت بها ضدى، وأنا اعتذرت عن الكتابة رغم أنهم طلبوا منى أكثر من مرة أن أعاود الكتابة، وكنت أنشر فى المصرى التى توزيعها أقل بكثير من الأهرام، لكن كانت تأتى إلىّ ردود فعل لا تتخيلها.. فى الأهرام لم يأت لى سوى ثلاثة أو أربعة إيميلات فواضح أننى لست شبه الأهرام.

تساءل عديدون عن غيابك عن الدستور ثم عودتك بمقال «ثورة الشك»؟

-لأنى شخص متقلب المزاج، وهذا لا يليق بالصحافة لأنها تحتاج إلى آلية.. ولم أكن أريد العودة إلى الصحافة وعدت تلبية لرغبة أستاذى إبراهيم عيسى، وكنت أكتب قصص وقررت ألا أكتب فى الصحافة، ولكن حين هاتفنى إبراهيم عيسى وطلب منى مقالا صغيرا فى جريدة يومية كان يصدرها.. وأخذت أكتب لكن الجريدة لا تصدر حتى وجدت أن لدى مقالات كثيرة لم تنشر، فطلب منى كتابتها فى صفحة فعملت «قلمين» التى أعتبرها بمثابة ميلاد جديد لى فقد كسبت من ورائها كثيراً وكسبت احترام ناس كثيرين.. وأصبحت أفلامى أفضل وكذلك حياتى، فأنا مدين لهذه الصفحة بالكثير، لكنى وصلت إلى لحظة أحسست فيها ولأنى أكرر نفسى فتوقفت عن الكتابة.. كما أنى أعمل طوال الوقت فى كتابة الأفلام، كما أن كتابة صفحة ٤٥٠٠ كلمة كل أسبوع تحتاج إلى الكثير.

ولماذا قررت ترك الصحافة وعدم الكتابة فيها؟

- لم أحب الصحافة.. فى البداية كانت لدى صورة براقة وزاهية ومشرقة للصحافة وشاركت فى موضوعاتى فى الدستور وشاركت فى تأسيس الجيل والقاهرة لكن تجربة القاهرة كانت تجربة مريرة بالنسبة لى.

كيف؟

- يعنى .. حيث ترى مثل كاتب كبير مثل الأستاذ صلاح عيسى الذى كان بالنسبة لى أكثر من أب.. ترى أن الصحافة قد تكون مهنة تستخدم لتزييف الحقيقة وللضحك على الناس، وتسقط فيها الناس امام مغريات رخيصة.. مثل سيارة تأتى وتذهب بك إلى البيت.. مقابلات مع الوزير.. ومن هنا حدثت لى صدمة قررت على أثرها ألا أعمل بالصحافة، وكان إبراهيم عيسى يسألنى كيف استطعت أن تسيطر على فكرة الكتابة، لأنها مثل الشيطان، لكنى كنت أسيطر بأن أكتب المقال وأقرأه لأصدقائى على القهوة ثم أمزقه أمامهم رغم إعجابهم به والفترة التى تركت فيها الكتابة والصحافة لم تكن حياتى أفضل وحين عدت للكتابة فى الدستور أصبحت الحياة أفضل لأنها ساعدتنى

على التطهير، وليس صحيحاً أنه لا يوجد أمل فى الكتابة، لقد فوجئت بردود أفعال من الجمهور مثل جوائز الأوسكار بالنسبة لى.. وأنت تكتب لا تعتقد أنك تكتب شيئاً هاما إلا بعد أن تتوقف فترة.

قلت عن «تزييف الوعى» هل تريد أن تقول أن صلاح عيسى ساهم فى تزييف الوعى لدى الناس؟

- حين تعمل فى جريدة مثل القاهرة ورئيس تحريرها صلاح عيسى الذى يجب أن تصدقه طوال الوقت إذ يقول لك نحن نعمل فى جريدة لا علاقة لها بوزير الثقافة أو الوزراة، والوزير يقرأ الجريدة مثل أى شخص حين صدورها ثم تكتشف أنك كنت مخدوعاً طوال الوقت وأنت المفروض مدير تحرير الجريدة وأن البروفات يقرأها الوزير بعدها تنتهى منها ويوافق على ما يوافق عليه ويمنع ما يريد تكتشف أنك خدعت.. وأنا لا أبالغ فى الأمر لقد زيفت الحقيقة هنا.. وأذكر إزاء هذا الأمر ما حدث أثناء أزمة رواية «وليمة لأعشاب البحر» كنت أقود الحملة ضة جريدة الشعب -٠ ولست نادماً على هذا وأخذ محمد عباس حكماً قضائياً على ما كتبته، كنت مقتنعاً بكل كلمة كتبتها، ولكن ما أغضبنى اكتشاف أنهم كانوا يسمحون لى بهذا ليس لأجل الحقيقة وإنما لأجل مصلحة وزارة الثقافة، لأنى حين كتبت مقالات ضد أخبار اليوم وضد موقف فتحى سرور من الأزمة وجدت أن الكلام حذف بخط يد الوزير.. وقصص أخرى ليس مجالها الآن فيها وقائع مؤسفة.

إلا تخاف مما تكتبه؟

- الحياة والموت حاجة بتاعة ربنا - وقد كتبت مقالا ذات يوم - كان فى العدد العشرين من جريدة الدستور تقريباً - هو «صباحك زى وشك يا مصر» اعتبرته وصيتى - كتبته لابنتى كنت أريد أن أقول لنفسى عشت أيام حلوة فى حياتى وخلاص.

● والشهرة؟

-بدأت أحس بها من خلال السينما وليس بسبب الصحافة لأنك تصل إلى جمهور أعرض وتظهر فى برامج لكنى لم أعشها لأن حياتى مقفولة من البيت للشغل ولم أعد أجلس على المقاهى لأنى طوال الوقت أعمل، ورضيت بهذا.. ثم أن عمرى ٣٣ سنة

قضيت منه ٣٠ سنه فى الشارع، لم يكن لدى بيت كان هناك كتب أروح أنام عليه.. لم يكن لدى بيتاً وما صدقت أن يكون لى بيت وأسرة مستقرة وزوجة أحبها ولا أضيع وقتى فلم تعد المقاهى تتجب جديداً،

بين الاستلقاء من الضحك والدموع المنسابة على الوجه تأتى كتاباتك ما نوع السخرية الذى تميل إليه؟

- أعشق الضحك المجروح.. ولا أعرف ممن سمعت هذا التعبير.. فكرة أن تُضحِك من خلال الألم.. من خلال مشاكل الناس.. وجدت هذا فى كتابات محمود السعدنى والأهم والأعظم فى كتابات عزيز نيسين، وقد سافرت لأجل هذا الرجل تركيا وذهبت إلى بيته والتقيت بورثته ورأيت دار الأيتام التى أنشأها سحرنى عزيزنيسين من فكرة التقاطه للتفاصيل.. يضحكك من خلال التفاصيل .. لابد أن تتوحد مع عالمه لكى تضحك مثله، وهذا هو أكثر نوع ضحك يعجبنى ويؤسرنى.

يتضايق كثير من الكتاب الساخرين ورسامى الكاريكاتير والممثلين الكوميديين حيث يسألهم أحد عن آخر نكتة.. فهل أنت كذلك؟

- أنا حكاء فاشل للنكت والقصص، ولا أفضل النكتة.. أفضل الموقف أو أن أحكى قصة أو شيئاً حدث لى وحتى النكته لا أستمتع بها ولا أندهش وهذا شىء غريب، وهناك قصص تحدث فى الحياة تميتنى من الضحك خصوصاً أننى عاشرت «ناس فقريين »عديدين لأنهم موقف وكاريكاتير، ويمكن هذا هو الأصعب.

ابتكارك لأصحاب البطانة مثل فريد بك ووليد بك المناويشى.. من أين تستقى شخصياتك؟

- ما أكتبه إنما نابع من بذرة معايشة مثل الست أم ميمى، خطوط آخذها وأطورها.. وأحب أصعب مسألة على نفسى ولا أستسهل فحين أهاجم جمال مبارك فهذا شىء عادى، لكن حين اخترع حواراً افتراضيا مع شادى جمال مبارك فالمسألة تكون أكثر، فهى رغبة للجوء إلى الحلول غير السهلة وهذا ما يميزك ككاتب أن ترى المسألة بشكل مختلف.. وهى محاولة للاستفادة من تراث الكتاب الكبار أمثال محمود السعدنى وغيره.

ظلت روز اليوسف لأكثر من ثلاثة شهور تهاجمك - فما سر هجوم روز اليوسف الدائم عليك؟

- قد تكون سخريتى موجعة، وكتبت بابا اسمه «أوسكار المولسة» وكتبت مقالين، واحد اسمه «أنت اللى عاتفنى الليلة ياكرم» عن كرم جبر.. وكتبت سطرين ثلاثة عن عبد الله كمال، فواضح أنهم وجعوه فبدأ يقود لى هذه المساحة من الهجوم علىّ التى زادتنى نجاحاً وشرفاً، وحلت لى مشكلة خطيرة حين كانوا يقولون لنا أننا متفقين مع الحكومة لنعارض، فها هى صحف الحكومة تهاجمنى.. ثم كانوا يقولون إن كلامكم ليس له تأثير، فإذا كان غير مؤثر فكيف تجد بروازا يوميا يهاجمك فى روز اليوسف اليومية لشهور.. ولما تنبهوا إلى أنهم يفيدونى توقفوا وأشكرهم كثيراً.

هل تعتقد أن هذا العصر افضل فى ممارسة الحرية أم اسوأ من سابقيه؟

-أفضل كثيراً .. الحرية تنتزع، ولو لم يطلع إبراهيم عيسى والدكتور عبد الحليم قنديل فى العربى وانتزعوا هذه الحرية بأيديهم ما توسع هامش الحرية، ولكنه - الرئيس - يريد عمل توازنات دولية، ولابد أن تستغل هذه المسألة فى انتزاع حريتك وتمشى وراء رافعى لواء الحرية ، وقد دفعت ثمن حريتى بأن جلست لثلاث سنوات بلا عمل ولا مأوى وتعرضت لمآسٍ فى حياتى، ولكن الحمد لله.

تطالب فى كتاباتك سواء فى «المصرى اليوم» أو «الدستور» بالحرية السياسية والغريب أن هذا لا يظهر فى زعمالك السينمائية؟

- السينما وسيلة تسليمة، ليس شرطاً أن «تتفرج» على فيلم سينمائى وتخرج منه برسالة، ولست من أنصار نظرية أن السينما رسالة، وكذلك أنطنيونى وبيلوتشى وكبار فنانى العالم ولست واحدا.. ثم إننى أقدم حدوته مثل «واحد من الناس» مثلاً وأنت تستنبط ما تريد .. وحين أقدم سينما لا أقول للناس تعالوا إننى أقدم لكم قضايا سياسية استمتعوا بها وشاهدوها واذهبوا لكى تقوموا بالثورة.. إننى أقدم فنا من أجل الفن.

تتهم بأنك تكتب كثيراً لدرجة أن لك ثلاثة أفلام فى موسم واحد؟

- على الزرقانى كان يكتب ٤ أفلام فى السنة، وأبو السعود الأبيارى ٧ أفلام فى السنة، وأنا لا أقدم أعمالاً باستسهال، بل أحرص على التركيز أثناء كتابة كل فيلم والاهتمام حتى لا يؤثر عمل على الآخر.

ولكن شخصيات أعمالك تتكرر مثل شخصية الضابط الفاسد واتهام البطل بأنه وراء واقعة القتل ظلما..؟

- إذا نظرت إلى السينما العالمية سوف تجد أن لكل مخرج مميزاته ومفرداته الخاصة به، ولكل كاتب علامات يُعرف بها، ثم إن الحبكة فى كل عمل من أعمالى مختلفة عن الأخرى وكذلك طريقة التناول.

احس أن بلال فضل فى «واحد من الناس» غيره فى الأفلام السابقة؟

- أعتبر هذا الفيلم بداية حقيقية لى، كل شىء جاء فيه مختلف وكان إحساسى ناحيته مختلفاً عن الأعمال السابقة.

هل افادك اقترابك من محمود السعدنى؟

- وأية فائدة؟!. لهذا الرجل حياة أخرى وحب للناس من نوع خاص وخاصة للموهوبين منهم وتبنيه لهم واهتمامه بهم - وقد تكون لمست هذا من خلال اقترابك منه - وفى جلساته تجد كل الأغنياء والفقراء والمشاهير والمغمورين.

الغريب أنك فى حضرة السعدنى لا تستطيع أن تلزم إلا الصمت فهو حكاء رائع وعبقرى ولو سجلت «قعداته» التى كانت فى النادى النهرى لأصبح لدينا تراث عميق من حكايا التاريخ والسياسة والفن والثقافة.. كما أن الشخصيات التى تجلس إلى محمود السعدنى تمثل عالماً فريداً من نوعه، ومن كل الأنواع من المشاهير جداً إلى من لم يعرفهم أحد، من الوزير إلى الخفير.. كلهم يحجون إليه فى حب وفى تقدير، تخرج ضحكاتهم دون حذر ودون قلق .. واحة من الحرية والراحة.. وحين يستعرض السعدنى تاريخه فى المنفى أمامك ويقلد الأشخاص الذين عبروا فى حياته تحس أنك تعيش معه هذه الأيام بكل ما فيها ومن فيها.. وأنك انتقلت إلى عالمه الخاص به، وما أروعه من عالم المشاهير والمغمورين.

وكيف تعرفت عليه؟

- من خلال الفنان صلاح السعدنى .. طلب أن يرانى وذهبت إليه مع صلاح السعدنى ووجدت عنده أصنافا من كل لون من البشر، وحكيت له كيف أنى اسكن فى حارة سمكة بشارع المحطة بالجيزة الحارة التى كان يسكن فيها، وكنت وقتها أعمل فى الدستور - الإصدار الأول - وكانت تعجبه وناقشنى فى العديد من القضايا التى تتناولها .. وكان فى جلسة عم محمود وزراء سابقون وحاليون وفنانون وكتاب كبار.

عم محمود السعدنى ساعدنى كثيراً ولا أستطيع أن أوفى بدينه ولم يقصر معى، وهو أبو البهجة.. وأتمنى أن يخفف الله عنه مرضه ويعيده إلينا بالصحة والسلامة.

الفهـــرس

الصفـحة

سيرة ذاتية

سامى كمال الدين

● مواليد أبو تشت- قنا- جنوب مصر

● ١٩٧٨/٥/٨

● درس بكلية الآداب قسم الصحافة بسوهاج

● تخرج عام ٢٠٠١

● يعمل صحفياً بمؤسسة الأهرام (مجلة الأهرام العربى).

● عضو نقابة الصحفيين.

● يعمل مديراً لمكتب مجلة الدوحة الثقافية فى القاهرة.

● يعمل رئيساً لتحرير مجلة داون تاون، وهى مجلة شبابية تعنى بالقضايا المحلية وهموم الشباب ومشاكلهم.

● عمل أثناء دراسته الجامعية فى عدة صحف ومجلات منها الحياة والجيل والقاهرة وسطور والراية والصدى وصوت الأمة.

● أصدر أثناء دراسته الجامعية كتاب «حوارات من جنوب الوطن المنسى» ويتضمن حوارات مع بعض كتاب وأدباء من جنوب مصر.

● عمل فى عام ٢٠٠١ فى مجلة نصف الدنيا وحتى ٢٠٠٣.

● حاصل على الجائزة الأولى من نقابة الصحفيين المصرية عام ٢٠٠٣ عن كتابه عن الفنانة شادية الذى نشر مع مجلة نصف الدنيا.

● أصدر كتب «أيام مع الولد الشقى» وهو ذكريات مع الكاتب الكبير محمود السعدنى و«شادية.. معبودة الجماهير» و«نزار قبانى وروائع القصائد المغناه.. أسرار وحكايا نجوم الفن مع نزار».

● أصدر كتاب رسائل المشاهير ويحتوى على الرسائل الخاصة، والتى تنشر للمرة الأولى لـ «السادات ويوسف صديق وصلاح نصر وأمل دنقل واحسان عبد القدوس وروز اليوسف وكامل الشناوى وأمين يوسف غراب ويوسف وهبى ومحمد كريم».

● انفرد بلقاء خط الصعيد المتهم بقتل ١٥٠ شخص وزراعة الأفيون وهو محاصر فى قلب الجبل.. ونشر فى مجلة الأهرام العربى بتاريخ ٢٠٠٤/١/١٧. وفى عام ٢٠٠٦ زاد عدد ضحاياه وحاولت العديد من الصحف لقاءه، ولم يستطع أحد لقاءه، لكنه التقاه وأجرى معه حديثاً نشر فى جريدة المصرى اليوم على حلقتين فى ٢٥و ٢٠٠٦/٩/٢٦.

● تم اختياره مع ٧٥ صحفيا من ٥٠٠ صحفى للمشاركة فى الدورة الأولى لمؤسسة محمد حسنين هيكل، والتى أشرف عليها الصحفى الشهير سيمور هيرش.

● كما اجتاز الاختبارات فى الدورة الثانية التى عقدتها مؤسسة محمد حسنين

هيكل، والتى عقدت لشهر كامل، وفاز مع ١٠ من زملائه الصحفيين من ٢٥ صحفياً بمنحه السفر إلى لندن.

● يكتب فى العديد من الصحف مثل المصرى اليوم والكرامة.

● تم تكريمه فى صالون غازى الثقافى العربى عن أعماله المتميزة مع مجموعة من المفكرين والمثقفين والفنانين ومنهم لينين الرملى الفنان التشكيلى صلاح طاهر وخالد المالك رئيس تحرير جريدة الجزيرة السعودية والناقد الدكتور عبد العزيز حموده والمفكر عبد الرحمن بن محمد الرفاعى وغيرهم.

كتب فيلماً تسجيلياً عن الفنانه سامية جمال ودورها الفنى والسياسى من إخراج مخرجة فرنسية من أصل جزائرى وانتاج خالد عبد الرحمن الخميسى، وبذاع فى القناة الخامسة الفرنسية.

● قام بالتقاط الصور الوحيدة للحادث الإرهابى لتفجير ميدان عبد المنعم رياض، والتى بثتها وكالة الاسوتيتدبرس وعرضتها أغلب التليفزيونات فى العالم، ونشرتها الصحف، والغريب أنه التقط هذه الصور بكاميرا هاتفه المحمول.

● انفرد بنشر عدة حوارات مع الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوى قبل رحيله نشرت فى مجلة نصف الدنيا.

● أجرى عشرات اللقاءات السياسية والفكرية مع مثقفين ومفكرين وسياسيين مثل سيمور هيرش وأورهان باموق ومحمود السعدنى وخالد مشعل وموسى أبو مرزوق وعادل إمام وحنا مينه وكوليت خورى وأسرة نزار قبانى والحبيب على الجفرى والمرجع الشيعى محمد حسين فضل الله، وعصمت عبد المجيد وعمرو موسى وغيرهم.

● أجرى الحوار الوحيد الذى مع الدكتور ممدوح حمزة أثناء القبض عليه من قبل شرطة اسكوتلانديارد فى لندن متهمة إياه بالتخطيط لاغتيال أربعة وزراء مصريين، وقد استعانت جهات التحقيق بمحتوى الشريط بعد تفريغة.

samy_585@ya
hoo.com

كامل الشناوي
فكري أباظة
محمود السعدني
أحمد رجب
صلاح جاهين
عبد الحميد الديب
عبد العزيز البشري
عبد الرحمن الخميسي
أحمد فؤاد نجم
عباس الأسواني
محمد مستجاب
فرفور
جحا

الذين أضحكوا طوب الأرض

السخرية مثل الحب لا يوجد قالب يستطيع أن يحويها ويعرفها، فكل التعريفات التي تعرضت للكتابة الساخرة والساخرين والنكتة أصابتها فى مقتل، ذلك لإن الضحكة التي تولدها السخرية لا تنتظر تعريفاً.. ولعل الضحكة هي الشيء الوحيد في العالم كله التي تتشابه فيها الشعوب.

وحقيقة أن الضحك يطيل العمر - ليس بعدد السنوات طبعاً - ويجعل الإنسان أكثر راحة في عالم يسوده القلق والحروب والاستعمار الشرق أوسطى الجديد.. وقد أهتم العالم بالضحك فافتتحت اليابان كلية لتعليم الضحك حتى يستطيع المواطن الياباني أن يكون (بانياً في ملكه) وأن يؤدي عمله بجدية وفي بهجة وسعادة.. وقد أشرف على هذه الكلية فرق السيرك..

وفي مونتريال بكندا عقد مهرجان للنكتة اجتمع فيه ملئة شخصية من صناع النكتة الفرنسيين والانجليز.

هذا ما يراه الكاتب الصحفي سامي كمال الدين في كتابه (الذين أضحكوا طوب الأرض) لكن ما ادهشه حين اقتفى أثر الكتاب الساخرين فوجد اغلبهم ماتوا من الألم والعذاب والاكتئاب، فمحمود السعدني راح يقضي في بيته شيخوخة نبيلة وفي صمت، ومحمد عفيفي ظل السرطان ينهش جسده سنوات خمس ولم تهزم (ترانيم في ظل تمارا) هذا السرطان وصلاح جاهين أحس أنه يغني على الناس ومات مكتئباً وفارق أحمد بهجت السخرية ومات عبد الحميد الديب بمرض الجوع والجنون، وعاد عبد الرحمن الخميسي ميت في نعش من موسكو، أما عبد الله النديم فقد هرب تسع سنوات في قرى ونجوع مصر ودفن في تركيا وكامل الشناوي مات في مستشفى القصر العيني كسير القلب وأحمد فؤاد نجم عذبته السخريةحتى نهايات عمره، وبهدلته في المعتقلات والسجون بسبب أشعاره الساخرة.. وأحمد رجب انعزل على نفسه بعد رحيل زوجته وأقرب إنسانه إلى قلبه، وعباس الأسواني ومحمد مستجاب وفكري أباظة عاشا أسوأ حياة [illegible] الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى الأرض وهذا أصعب.. أما فرفور - [illegible] قصة شهيرة مع فنانة شهيرة جرت وراءه بالحذاء.. وبلال فضل [illegible] الصحافة إلى السينما ولا يستطيع وهو حائر حتى كتابة هذه السطور [illegible] هذا الكتاب يكشف عالما آخر عن هؤلاء الكتاب الساخرين ويقدم [illegible] وحكايات لم تنشر من قبل، وذلك من خلال اقتراب الكاتب من السا[illegible] زالوا على قيد الحياة.. ومن أسرار الذين رحلوا.. ستكشف في هذا الك[illegible] متعة الكتابة الساخرة من بوتقة الألم.



I.S.B.N. 977-376-352-8





دمشق - القاهرة